مبارك ربيع

الأعمال الكاملة

الروايات



الجزء الثاني

II

منشورات



وزارة الثقافة

مبارك ربيع

الأعمال الكاملة

(الروايات)

الجزء الثاني

II

منشورات



وزارة الثقافة

الأعمال الكاملة. (الجزء الثاني) II
الإيداع القانوني : 2008/2833
ردمـــــك : 978-9954-0-4175-3
منشورات وزارة الثقافة 2009
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2009

درب السلطان

روايــة

3

نزهة البلدية

الأعمال الكاملة (الجزء الثاني) II
الإيداع القانوني : 20082833
ردمـــك : 978-9954-0-4175-3
منشورات وزارة الثقافة 2009
سحــب : مطبعة دار المناهل ـ 2009

1

سيرك... سيرك عمار... لهفة وشوق تتطاير من عيون وحلوق، تطاير النجوم الزهر حول هيف الراقصات شبه عاريات شبه كاسيات، ملاعبات الأسود، معانقات النمور، محتضنات الثعابين والابتسام والبهجة وبالغ... بالغ السحر!

يطوف الموكب الإشهاري الأنيق للسيرك، يطوف بعربة جميلة مزينة بالرسوم والزهور ومحيا الجميلات، مصطفات على أرائك يلوحن في بشاشة تغتال العشق في قلوب البشر... موكب موسيقى بهيجة ممتعة وأصوات ذات مقاطع فخمة تنهي فقرات الفرجة، والرسوم على حافات العربة... والملصقات على الجدران في الأحياء... كلها تتنافس في تعداد العجيب الساحر الأخاذ في كل فرجة...

يتابع أهالي درب السلطان موكب السيرك، يسايره الكثير بالخطوات... وبالخواطر... وبالشوق واللهفة... الكون يتوقف هنا، يتوقف بتوقفه ويتحرك بحركته... لا أعجب وأشد إثارة للدهشة... العيون تتهجى الملصقات، تمتص

المراد منها والمتخيل دون أن تحسن لذلك قراءة أو تتحمل عبْء ذلك...

أحاديث السحر تطغى، والسرد ينافس السرد في عجيب ما يُرى وأعجب منه...

أعجب منه والأعجب من كل شيء كان ويكون، على مدار الأحقاب والعقود روايات عن عبد المجيد... عبد المجيد؟ عبد المجيد الساحر الأنيق العجيب العتيد... كل ما تراه العين وتسمعه الأذن، كل ما تلمسه اليد من أعاجيب السيرك شيء، وما يقوم به هذا الساحر العجيب، ما يروى عنه شيء آخر...!

رجل تقدم منه عبد المجيد، يطلب منه أمام الشهود من حاضري العرض أن يذكر ما في حافظة نقوده... يدرك الرجل أنها فرجة، وأنه اختبار... يذكر ما يذكر من أشياء في حافظته... فلوس وأوراق... ولكنه ينسى أشياء يذكره بها عبد المجيد، ويطلب منه إخراج حافظته وإفراغها أمام الشهود والأنظار ليبث صدقه...

يعيد الرجل حافظته إلى جيبه مبهوتاً مأخوذاً، أمام الأنظار المأخوذة المبهورة مثله، ولكن عبد المجيد يسأل الرجل مرة أخرى عن حافظته، أين هي...؟ ولا يفهم الرجل، وأين ستكون مادام قد وضعها الآن في جيبه، ويحس بها تحت إبطه في الجيب الداخلي للمعطف، وحذو القلب منه! لكن عبد المجيد ينبهه إلى أن حافظته ليست حيث يعهدها، بالفعل يتفقد الرجل فلا يجد شيئاً! ... أين هي؟ أين تكون؟ إنها... إنها... ويتوجه عبد المجيد نحو منتصف القاعة... إنها... هنا... عند هذا السارق أو هذه السارقة...؟ وفعلاً تنكشف الواقعة عن صدق الساحر العجيب... والحافظة هنا بكافة محتوياتها كما عرفتها الأنظار المبهوتة المبهورة.

تتنافس الروايات، يطير لها الواقع بلا أجنحة، وينافس الخيال ظله...

إمرأة... هنا حكاية أخرى أعجب... امرأة أجنبية، غير مسلمة أساءت الأدب في حق من لا يجد نصيراً في الشارع العام، فانبرى عبد المجيد لهذه المتكبرة المعجبة بنفسها وبطفلها الجميل، الذي تحمله بإحدى يديها تحتضنه إلى صدرها، مبتهجة به وبنفسها، يتقدم إليها الساحر العجيب، لا ليحييها، بل لينبهها إلى شنيع ما تقوم به والناس تتضاحك من حولها في مشهدها الغريب، امرأة تحتضن ماذا؟ تنتبه المرأة فعلا، فإذا بها لا تجد ما بين ذراعيها وصدرها إلا خبزة (كوميرة) مشرطة محمرة على أحسن وجه! تصعق المرأة، تندب، تكاد تجن، فيهدئ روعها الساحر العجيب أمام الأنظار والشهود، ويأمرها بأن تنظر جنبها فإذا طفلها مبتسم ضاحك...!

ينطلق السيرك موكباً مغرياً، يعلن عن عجائب فرجاته وفرحاته، يطوف بالأصوات والألوان يزين الأزقة والدروب، يلون الخيال والواقع في الأزقة والأحياء، يصف ويعدد من عجائبه وأعاجيبه، أما ما يرويه عنه الناس، ما يتداولونه بالإضافة والتمديد، وما يتبادلونه في شأنه من أخبار وروايات، ويشهد به بعضهم لبعض، فهو أعجب من كل عجب، وأغرب من كل غريب، وأمتع وأعذب...

2

لو كان يسير وحده لما سار في هذا الاتجاه، أو على الأقل لتردد كثيراً قبل أن يتخذه... ولتعثر به الخطو أكثر بعد ذلك... لكن عيادي كان يسير مطمئناً، أو في مظهر المطمئن، بجانبه عزيز تكاد فتوته تطير مرحاً بالاتجاه الذي يتخذه بجانبه «عمه» عيادي... يحس بأنه شخصياً قائد الاتجاه، وأن لا أحد يخامره شك في ذلك.

الفكرة كانت من عيادي نفسه بعد اقتناع وطول تفكير... لن ينكر عزيز ذلك، وهل كان من الممكن أن تصدر مثل هذه الفكرة عن عزيز أو أي شخص آخر في مكانه وموقعه... من يخطر بباله بأن العم عيادي يفكر في يوم ما أن يقصد الستاتية في بيتها؟ وهي من هي في انغلاقها ومناعتها، وفي سطوة هيئتها وما يحيط بها من غموض مرعب... ولو فكر أحد بمثل ذلك، فمن يخطر بباله أن يقصد عيادي عزيزاً بالذات، يحدثه في الموضوع، ويطلب منه أن يكون دليله ورفيقه في هذه الزيارة... الأمر أوضح من ذلك وأنصع، حتى وإن لم تدل عليه العبارات بطريقة مباشرة: أنت يا عزيز بمكانتك المقربة والمصونة لدى

الستاتية، ولدى الشخش قبل ذلك وبعده، أولى من يقدم عيادي إلى هذه المرأة فيما هي فيه، أنت يا عزيز يا أوفى من يفي بالعهد لمعلمه ورفيقه الشخش... أنت وحدك تستطيع أن تقرب ما بين عيادي، وعالم الشخش ماثلا في هذه المرأة الغربية... وعليك في فترة ما، أن تربط ما بين عيادي والشخش... هذه زيارة تقرب وتمهيد يتلوها ما يتلوها، وليس لذلك غيرك يا أوفى وفي عزيز... أكنت تحلم بهذا؟ أن تصبح مدار حركة هامة تخدم بها أعز أصدقاء أبيك وأسرتك، كما تخدم بها معلمك وذكراه العاطرة في خاطرك، وهو وراء القضبان؟

كانا يسيران جنباً إلى جنب، عزيز تطير به فتوته وإحساسه الغامر بالرضى عن نفسه؛ وعيادي تحمله أفكاره المشفقة على آخر الطريق، نهايته وما يمكن أن يجني منه... هل تقبل الستاتية أن تسمح له بالاتصال بابنها... هل ترضى ذلك... بل قبله هل ترضى له زيارته لها... وبما يحمله من عطايا تساعدها في حالها؟!

لا يتردد عزيز في أن يدفع خواطر عمه عيادي مؤكداً ضمناً وتصريحاً، أنها ستقدر هذه الالتفاتة وهي في محنتها، كما يقدر ذلك الشخش، ابنها الغالي في سجنه...

ما كاد عزيز يتلقف رغبة عيادي حتى بادر بالتشجيع عليها، ذاهباً بتصوراته إلى مداها فيما يمكن أن تسفر عنه عندما يتم اللقاء بالشخش... عيادي يهمه الشخش أولاً وأخيراً... الشخش كما كان قوة هائلة قبل سجنه، فهو في سجنه ومن وراء القضبان قوة مضاعفة... وأكثر... فباستطاعته من هناك أن يشير لشلة فتيان تأتمر بما يريد... قوة مدمرة فعلا هو الشخش، سواء كان هنا أو هناك... قوة هائلة تبدو أشبه بحملة النهر الجارف من شأنها أن تتلف وتغرق ما تجده في طريقها... فقط، تحتاج قوة التدمير إلى توجيه... وليتها تسلط على من هم أهل لها... قالها المقالات كلمة كالعابرة ظلت تتردد في سمع عيادي

وفهمه، الشخش ذاك... جرافة، دكاكة ضخمة هدامة... سرها كل السر في زرّ القيادة والتوجيه البسيط... المقالات ذاك... مول المقالات ومولاي المقالات، يبدو لك في بساطة البله غائباً جامحاً، لكن له أحياناً إشراقة شواف يخترق الغياهب، ينير ظلمات المجاهيل... أحياناً... أحياناً، المقالات ذاك، تجتازك باستمرار رؤيته الضعيفة مركبة وراء زجاج نظارته السميك...

يسيران، عزيز تطير به فتوته جنب العم عيادي، يزداد مع كل خطوة إحساساً بأهميته ودوره... إحساساً لم يتمتع به من قبل... فلم يتجاوز أن يكون تابعاً... حتى والشخش في السجن... حتى وهو يزجي الملاحظات والتوجيهات إلى شلته من الفتيان، رفقته من أتباع الشخش، كان دائماً يمتلئ بالشعور بأنه تابع... منفذ... له أهمية التوصيل... دور الوفي فقط... لا غير... الآن، ينفلت من شعوره بالذيلية... ولو أن ارتباطاً كيفما كان مع الشخش، كفيل بأن يملأ النفس بالرضى... الشخش ذلك الغائب الحاضر...

يتأهب عيادي للقاء المرأة الغريبة التي سمع عنها أكثر مما رأى... يستحضر كلمات المواساة والمساندة، يقدم بعض الخيرات مصداقاً لمشاعره... وفي تهيب لا يقلل منه إلا حماسة عزيز... ستحبها إذا عرفتها من قرب وعلى حقيقتها... بسيطة... كل شيء لديها بسيط... السما صافية والدنيا هانية... الناس من بعيد يخافونها... لأنهم لا يعرفونها... سترى... حقاً سيرى ما يؤكده عزيز مادام يرافقه... وإلا فهل كان يتصور أحد، مجرد تصور أو يخطر بالبال، أن عيادي من ذاته بمفرده، يمكن أن يتقدم إلى المرأة بمعروفه في يده، معرباً (هكذا) عن مساندته لها في محنتها، في غيبة وحيدها وسندها الغالي! هكذا! هل كان يستطيع هو أو غيره أياً كان، أن يفعل مثل ذلك؟ ماذا تكون النتيجة؟ من يضمن النتيجة؟ ألا تفترسه المرأة مكسرة أريحيته الفضولية؟! أهي موضوع إشفاق؟ أترضى الإحسان... وشخشها الغالي يصبح موضع كلام بالمساعدة

والمساندة... الشخش موضوع مساندة؟! أي تصور يقبل هذا الكلام... حقاً لولا هذا الفتى عزيز، الذي ما كان عيادي ليرضى عنه بحال من الأحوال، لما أمكنه أن يقبل على تنفيذ الفكرة، أن تسعى إلى عرين الأسد، تتحين فرصة تطبع فيها غرته بقبلة الصداقة والوفاء؟! أتضمن استجابة قاطن العرين؟!

كانا يغذان السير في حمية وقد اقتربا من زنقة الستاتية، عزيز يقترب من عيادي، يحتك به في سيرهما، يخبره أنها في انتظارهما... ستراها وتعجبك... الناس يتكلمون عنها بغير ما يعرفون... لم يكن تصور عزيز يتجاوز بهجة خدمة يؤديها لمعلمه الشخش ولعمه عيادي، واجب وفرض لابد منه، لكنه جد مرض لعزيز وباعث بهجة... ولم يكن ليتساءل عن المقصود بهذا الاقتراب المفاجئ الذي ينشده عيادي من رجل سجين لم يحاول الاتصال به طوال سنوات من الحرية...

أشار عزيز إلى باب المدخل المغروز الدرجات في عمق الأرض... وطرق... لحظات يعاود بعدها الطرق وهو يلتفت إلى عيادي... لا عليك... إنها هنا... آتية... وكأنه يحسب خطواتها وهي تتحرك تحت هيكلها بخطوات متئدة تبدو بها القدمان للملاحظ، أعجز ما تكونان عن حمل ما فوقهما...

انفتح الباب... تقدم عزيز ينزل الدرجات، وقبل الأخيرتين انحنى يقبل كتف المرأة التي بدت ابتسامتها عريضة هادئة، تتحرك عيناها الخابيتان في محيط البشرة السمراء كالمتسائلة...

يقوم عزيز بالدور، يقدم عمه عيادي المتسائل دائماً عن حال أمي الستاتية... دائماً يسأل عنها وعن حال السجين الغالي... دائماً يعتزم الزيارة... لا يقعده في الحقيقة إلا ما كان يطمئنه به عزيز من أخبار... دائماً مشغول البال بحال الستاتية والشخش... دائماً يعتزم الزيارة ويقعد به التهيب والخبر المطمئن من عزيز... حتى تم الاتفاق... اليوم... الآن...

تسمع المرأة كلام عزيز، وكأنما تتابعه بينما يتحرك محجراها الضيقين متأملة ضيفها في هدوء ومعالم ابتسامة بعيدة الغور متنائية... يتقدم عيادي يسلم، يهمهم بعبارت كان قد أعدها ضاع معظمها، وبقيت مجرد مقاطع بلا معنى محدد يوضحها لسان الحال... أو لسان عزيز على الأصح... كان عزيز طلق اللسان في التقريب بين الشخصين والتعبير عن وجدان عيادي، الذي ظل أغلب الوقت يكتفي بالإيماء وموافقاً ومؤكداً... والسجين الغالي، الجد غالي على الجميع... ويوم سراحه الآتي القريب سيكون عيداً لكل درب السلطان... ألم يكن الابن البار لهم بهم جميعاً؟ حامي الدرب وصوته وحارسه؟ لننظر ما جرى بعده، لنر غيره من رؤوس تنبت هنا وهناك... ما كان لها أن تظهر والشخش طليق أو عليم، ولو ظهرت لأقبرت في الحال...

شاركت المرأة نفسها في تعداد مزايا وحيدها الغالي... وعندما أشار عيادي بتواضع إلى تقصيرهم في حقها، وأن ذلك راجع إلى أنهم يعرفون أنها لا تحتاج إلى شيء... معرجاً بالإيماء على القليل الزهيد الذي جاء يحمله إليها، إلا أنه وغيره رهن إشارتها لتقديم كل ما يمكن من عون؛ والخير بين الناس... والجيران أسرة واحدة...

غابت ابتسامة المرأة مما يجعل مثل عيادي في موقعه وموقفه، يخشى أن يكون قد أخطأ المدخل ويتوجس من ردة الفعل... ويجعله فعلا يترنح في مكانه كالمستنجد بعزيز... عزيز العارف بأدغال ومجاهل عالم المرأة الغريبة المتوحدة في عالمها الغريب... إلا أنها ما تلبث أن تفتر عن طيف ابتسامة... تومئ شاكرة معروف الرجل وأريحيته... ثم تمد يدها ترفع ستاراً منسدلاً على ما تحت السرير الخشبي من خيرات ثم تشير إلى أركان أخرى... لا شيء ينقصها من هذه الناحية... ماذا تفعل بكل هذا؟ إنها تنتظر عودة وحيدها... هذا هو كل شيء، وهو بدوره في سجنه لا ينقصه شيء... بل... بل إنه يرسل إليها من

هناك بأطايب أكل وغلال، مما لم يكن يخطر لها بالبال... الحمد لله... المهم أن يعود إليها...

قدمت إليهما رغيفاً مقلياً مع الشاي، ووضعت أمامهما صحناً خزفياً من جوز ولوز وتمر... عبر عيادي عن رغبته الأكيدة في زيارة السجين الغالي... كان في الواقع يستشير ويستطلع، أو يستأذن في الزيارة بطريقة غير مباشرة، وأخبرها عزيز الذي لم تفاجئه الرغبة، يسهل المهمة على الطرفين أن لا بأس بذلك... عزيز قبل ذلك يعرف رأي الشخش... لا بأس بها من زيارة، والغالي العزيز يبتهج حقاً بلقاء عيادي... لا شك في ذلك...

كانت المرأة تتابع بارتياح محايد عبارات عزيز، ناقلة نظراتها الغائرة بينه وبين عيادي... ارتياح واضح منها لا يدعو إلى ابتسام أو يرسمه، لكن عينيها الغائرتين تعبران ببريق بعيد عن ذلك... عيادي بدوره يستأنف الحديث عن عزيز، يعدد من جديد مكانة الغائب الله يطلق سراحه... ويؤكد أن الجميع... الدرب بكامله يمكن أن يتوجه لزيارة الغائب في سجنه، لولا أن الناس يفضلون عدم الازعاج، ويمكن للمرأة الوالدة أمامه، أن تعتبره في هذا المسعى يمثل أهل الدرب والجيران والمعارف...

ـ الله يطلق سراحه...

يؤكدها عزيز مؤمناً على كلام عمه عيادي، تصدر عن المرأة آهة عميقة لا تتجاوز تجاويف الصدر... يحرك عيادي رأسه إلى أعلى رافعاً يديه في هيئة دعاء للشخش السجين:

ـ قريباً إن شاء الله... قريباً...

كأنه بذلك يعمم رجاء عزيز ودعاءه.

ظلت المرأة تنقل نظرتها بين هذا وذاك، نظرة تنوب عن لسانها في الحديث عن شعورها الغامض المغيّب، وحركة الصدر وحدها تدل على تردد النفس والتنهد في الهيكل الضخم للمرأة، لم يكن أمامها إلا أن تبارك المسعى في إيماءات شاكرة مواساة الأوفياء المحبين، وقوفهم إلى جانبها ووليدها العزيز...

عند الانصراف، عرجت بهما على غرفة حبيبها الغالي الغائب، كل شيء معد، كما لو كان صاحبها في غيبة قصيرة عادية... الفراش... والصينية بلوازمها مغطاة بمنديل مخرم... ومائدة الأكل الصغيرة المستديرة التي يجد أكله عليها جاهزاً في أي وقت حضر من ليل أو نهار... كل شيء بانتظاره... كل شيء جاهز له ومن أجله، كما لو كان خارجاً لشأن من شؤونه المعتادة كأنه عائد بعد لحظات... عائد... عائد... وقريباً جدّاً... قريباً إن شاء الله.

3

انحنت الرحمونية تلتقط فردة الحذاء المكشوف، انزلقت من إحدى قدميها وهي خارج عتبة الدار، تفحصت الفردة تتأكد من سلامة السيور أن تنقطع أو الكعب أن ينخلع... ثم ثبتت قدمها ثانية، والتفتت إلى صبيتها التي كانت عند مدخل العتبة على أهبة السير وراءها، تحمل في يديها قففاً فارغة متداخلة...

كعادتها كل يوم... تحيي الرحمونية معارفها، في طريقها إلى سوق الجمعة... تتوقف بين الحين والآخر، تحدث البعض من النساء والرجال، وتستأنف طريقها محدثة صبيتها عن أشياء مختلفة، مما يجب أن تقوم به، أو تعلق لها عن لقاءاتها بمن تمر بهم في لهجة نصائح، تنبهها قبل الأوان، إلى طبائع الرجال والنساء وسنن التعامل مع الكون حولها.

لم يكن يبدو على الصبية اهتمام بما تسمع... لعلها لم تسمع أصلا، أو على الأصح، أنها لم تكن تتبين شيئاً منه، فكله تكرار... وهي أكثر انتباهاً لمشاهدة ما حولها، في هذه الجولة الصباحية، قبل أن تعود لأشغال دار لا تتم ولا تنتهي...

ولها كل الوقت إذ ذاك للاستماع لأمها الرحمونية... أكثر من ذلك، هذه فرصة الصبية لتجْني ثمار حب الرحمونية لها... فبوسعها أن ترغب في شيء بمجرد إيماءة خفيفة خفية، لتتوقف الرحمونية ملتفتة إلى الصبية:

ـ عجبك؟

دوماً تكاد الصبية تتردد، حتى تكون أمها الرحمونية قد قررت، وحازت، وقدمت... ثم تكرر المرأة السؤال، وهي الآن أكثر راحة لتطمئن إلى ما اختارت وما فعلت... ولا تنتظر الجواب فالنظرة تكفي للاطلاع، وطيف الابتسامة على محيا الصغيرة...

تتوقف الرحمونية، تلتفت إلى الصبية التي تفلت الخطوات منها ويزيغ البصر نحو الفساتين المعلقة، زاهية الألوان... وتجدها الرحمونية فرصة للحديث لصبيتها عما عندها من ألبسة، وما تنوي أن تهيئ لها من ذلك.

ـ دفينة وقفطان فاعل تارك... ومضمة...

إنما يجب أن تكبر الصبية قليلا وتسمن... تقول المرأة ذلك، متلمسة جسد الفتاة في عنفوان نموه... ثم تختم بالنصيحة محذرة ابنتها من أن تغتر بالألوان والمظاهر الزواقة البراقة في القماش وفي الحياة أيضاً... عليها أن تتعلم منذ الصغر، كيف تنظر إلى ما وراء الألوان والمظاهر...!

في وقفاتها المعتادة، عند الخضار والجزار والسماك والفاكهاني، رغم كل المعرفة والثقة، كانت تسائل بإلحاح عن جدة البضاعة... تسائل بإلحاح وتفحص بحذق وأناقة... قبل أن تبدأ انتقاءها بالإشارة... حريصة على ألا تلمس إلا من بعيد، حفاظاً على عنايتها التامة بزينتها ومظهرها... مكتفية بتوجيه الصبية إلى ما ترغب فيه... وبين الحين والحين، يصدر عنها انتهار أو استنكار، وسرعان ما يُستدرك الخطأ مقروناً باعتذار...

في جولة كهذه، تحرص الرحمونية رغم كل شيء، على ألا تخلط الجد بالهزل... فرضت ذلك على معارفها من الرجال من تجار وغير تجار، فلا أحد منهم يشير إليها برغبة أو يلمح إلى فتياتها... فرضت ذلك على نفسها قبل أن تفرضه على الغير، ملتزمة في سلوكها مظهر الجد والقصد... على أنها عند الحاجة وفي الظرف المناسب، تعرف كيف تختار أصدقاءها، وكيف تجعلهم يربطون الاتصال بالطريقة التي تريد... تنتقيهم كما تنتقي البضاعة... تفحص وتنتقي دون أن تلمس.

كان أحد الفتيان من حمالة السوق، قد أخذ عن الصبية قفافها التي بدأت تثاقل وتمتلئ، وقد أوشكت الجولة نفسها أن تستوفي أغراضها الضرورية...

توقفت الرحمونية عند مخرج السوق باتجاه طريق العودة، توقفت فترة، ثم نفحت الحمال ما يستحق، وتركته مع الصبية يعودان إلى الدار بما يحملان، منبهة الفتاة إلى الجدية في السير... بينما اتخذت هي سبيلها إلى القيسارية... قيسارية الحفاري العزيزة العتيدة... جولتها اليومية لابد أن تنتهي إلى هذا الملكوت الظليل، تنتعش فيه الروح بعبير الأقمشة الكافوري، ممزوجة بنسائم العطور، ومباهج المصوغات في حسن تنضيدها وبريقها الأخاذ...

في غمرة نشوتها بما ترى وتشتم وتلمس، تتعثر خطواتها الوئيدة... يضيع منها التركيز، وتتبعثر الصور... عندما تلمح شبهاً بين الوجوه والزحمة... لم تكن متأكدة... ربما كان مجرد خيال منها، حتى على الرغم من ذلك، غيرت سبيلها نحو ممر آخر من ممرات القيسارية، مؤجلة ما كانت تقصده بالذات... تعوذت بالله واستعادت أنفاسها وهدوء خطواتها...

ضالتها في الجديد من كل شيء، قماشاً وحلياً وعطراً... ضالتها أن تعرف ما جدّ بين يوم وليلة... تشتري أو لا تشتري... وتؤدي ثمن ما تأخذ أو

تؤجل ذلك... إنما القصد والضالة أن تكون على علم... وسرعان ما أُخذت، صرعتْها قطعة القماش الحريري المنور... منه فيه... تلك التي أخرجها بنرضوان خصيصاً لها... قماش لم يره أحد رأي العين بعد... وقطعة محدودة منه... حرير منور بنمنمة هندية مذهبة على أرضية عكرية، يوشك قانيها أن يستحيل سواداً! صرعتها فعلا! ... لم تسأل عن الثمن، ولم تحاول، فقط أوصت بثلاث قطع منه... بكل الألوان من مختلف النمنمات... أوصت بالاحتفاظ بها لها خصيصاً... لم تسأل عن ثمن، ولا تساءل بنرضوان عن شيء... المهم أن يحتفظ لها بالقطع، وألا يظهرها لغيرها من الخياطات... السبق لها... ضروري...

ارتاحت، بل تنفست الصعداء، كأنما كانت ترقى جبلا شاهقاً... غمرتها البهجة التي تريد أن تزف بها البشرى، وتتأمل مشهد القماش المنسدل على البشرة البضة الشقراء والخمرية من فتياتها... أما على قامتها هي وامتلاء عودها فيا حفيظ... إنما على عود بهيجة، وقصيبة البان لطيفة... وعلى تأويدة من قامتها سعاد... أي عرض ساحر... أية أزياء خاطفة آسرة...

في غمرة نشوتها باكتشافها، خطت لتنصرف بهمة ونشاط حين واجهها... لا مجال للمراوغة أو الانحراف... التبعي بمواجهتها في عينيه تصميم وعزم، خفضت تتجاهله... لكنه كان ملح النظرة والموقف... لم يترك لها فرصة الإفلات... أحست بوهن غير معهود يدب في مفاصلها... هكذا على خلاف كل عادة في أشد المواقف، يعتريها خور شامل... هكذا على خلاف ما كانت تقابله به، كلما واجهها وما أكثر ما أصبح ذلك يحدث، تحس اليوم... الآن... أنها توشك أن تقع، وركبتاها لا تقدران على حملها أو على التحرك بها للإفلات من لقائه... أخخ... منه تبعي ومن تبعاته...

أوقف الرجل محاولاتها للانحراف عن مواجهته بإشارة من كفه مقابل وجهها! ينظر إليها محدقاً، غائصاً في أعماق ما يرى في عينيها، يمسح ملامحها

بقوة، ينفث حدة وبريقاً، مجمدة ظلت بمواجهته، لعلها لو ترف أو... كيف تنأم أو تتنفس؟ كل ما فيها اختنق... لم يكن تحديقه بذاك الذي تدركه وتعرف معناه، وتحسن الرد المناسب عليه... وقاحة بوقاحة وفضولا بفضول أقوى... لا... لم يكن من ذلك التحديق المعهود ولا هو تحديق مستضعف ينشد مساعدة وإحساناً... ولا كان تحديق مجاملة وإعجاب... إعجاب؟ وهل مثل هذا الموقف يستدعي إعجاباً... وممن... لمن...؟!

ظل الرجل يمسح كل ذرة في كيانها، تشعر من قوته كأنه يتحسسها بيديه... يكاد يعتصرها... كأنما يبحث داخل مفاصلها عن شيء... لا يتكلم... لا يقول حرفاً... ولا تدرك كُنْه نظره الغريب، يمسحها متغلغلا يزرع في كيانها وهنا شاملا وارتعاباً، يجوب منها الحنايا والضلوع... جامدة تقف له ومنه، كأنها في لحظة الحساب، كأن له عليها الحساب...

لم تصدق أنه تركها... لم تصدق أنه انصرف عنها أو انحرف، كأنها كانت تنتظر أن يطول موقفهما إلى آخر اليوم أو آخر الدنيا... حركت عينيها فيما حولها... الناس في زحمهم وزحامهم، تشعر بهم لأول مرة منذ موقفها مع التبعي، كأنهم غابوا أو غُيِّبُوا إذ ذاك... تشعر بهم الآن يدافعونها من ذات اليمين وذات الشمال، كأنما انفتحت عنهم فجأة فوهة... تنظر حولها، تفرك عينيها، تفتحهما جيداً، تتلفت، كأنما تبحث عن أثر التبعي الذي لم يبق له أثر حولها... ثم تعمل على أن تتحرك... بتهيب بالغ تحاول أن تتحرك كأنها تستأذن أحداً أو كأنها تنتظر أن تجد نفسها مشلولة... لم تصدق أنها تتحرك، ولم تكد تفعل، حتى وجدت نفسها تسرع الخطى لا تلوي على شيء...

غريب أن يتكرر لقاؤها بالتبعي، يتكرر بكثرة... أكثر من أن يُنسى... بل يتكرر ارتقابها للقائه بخشية ورهبة دفينة سابقة... الرجل سكنها وأقام فيها هاجساً تتحسبه في خطواتها ووجهتها... غريب... غريب... وغريب أن تحس

منذ أول لقاء أنه يتوجه إليها دون غيرها من العالمين... كذبت نفسها وشكت في حدسها، لكنه كان يتوجه إليها فعلا... الآن تأكدت من صدق إحساسها الاولي، موقف اليوم شاهد فريد...

دفعت مصراع الباب، ولأول مرة أزعجها ألا يكون مفتوحاَ على كامل فضائه، مع أنها في العادة أحرص ما تكون على إغلاقه، وعلى تنبيه الصبية وغيرها إلى ذلك...

طرقت الباب، كانت تتلفت حولها يميناً وشمالاً كالمطاردة المتخوفة من مجهول... كررت عدة طرقات سريعة متتابعة حملت منها شدة توتر وانزعاج... جولة اليوم لم تكن فرجة ولا انفراجاً... أخخ... الله يتبعنا بالخير... ويصبحنا ويمسينا على الخير...

وما كاد الباب يفتح، حتى اندفعت إلى الداخل ترد الدفة بجمع يديها وتحكم المزلاج مصعدة نفساً عميقاً، ثم تدلف إلى الداخل وهي تنزع جلابتها، ترميها حولها حيثما اتفق في خطوها نحو سريرها... ترتمي بكامل ثقلها كيفما اتفق، غير عابئة بالتفاف الصبايا وسؤالهن المرتعب الملحاح:

ـ ميمتي... ما لك؟!

4

عجيب! نسيَتْ أن تخبره! إذا صح ذلك... إذا صدقت فيه فعجيب، وإذا لم يصح أو تصدق فهو أعجب وأغرب! ... إذا لم يصح؟! أيمكن ألا يصح؟ أيمكن ألا تصدق؟ لِمَ لا؟

يعاوده جحيم القلق والسؤال وعذاب الحيرة من حيث لا يدري ولا يريد... تقول بإشفاق ومظهر براءة باردة حنون، إن التوكاني كان مريضاً... المسكين مرض مرضة... قاسية كانت... مرضة العدو... مسكين...! معالم الأسى عريضة مرسومة بعمق على ملامحها وهي تقول ذلك لأحمد رقيبة... زوجها... ما أقسى الزمان على رجل وحداني مثل بّاها التوكاني... مسكين وحداني عجوز! إذن فلتعد إليه. لتعد تؤانس المسكين الوحداني العجوز!

صعقت حورية وهي تستمع إلى رقيبة، يصدر عنه رد فعل مثل هذا على كلامها، صعقت من رسوخ الغل في أعماقه، وإزاء من؟ إزاء الكل من دائرتها... إزاء رضى... إزاء جميلة... وإزاء الشيخ العجوز المسكين بّا التوكاني... الرجل الذي لا تدري كيف تصف عطفه عليها وعطفها عليه... عطفه عليها قبل كل

شيء وبعده... ألا يكون من حقها أن تعطف على أحد؟ وهل تستطيع أن تغلق قلبها وكل جوارحها عن أن ترق وتشفق؟ هل تستطيع... أو هل تقبل ذلك من نفسها إذا استطاعت، كيف؟

والتوكاني بالذات تحمل له في حناياها جميل الذكريات... حتى على البعد وطول الزمان... قد لا يرد له ذكر... لكنه لا ينسى وأيامه من حياتها في الصميم... لم يغفل عنها لحظة في فترتها تلك، فهل تغفل عنه وقد علمت أنه مريض... عرفت ذلك بالصدفة في غياب رقيبة في سفرته المعهودة. ليسأل جميلة عن ذلك وعما هو أكثر من ذلك... ليسأل من جديد عما فعله التوكاني من أجل حورية، إن كان حقّاً لا يعلم... لكنه يعلم... يعلم... ويعلم جيداً...

وتحكي جميلة عن الرجل، تكرر وتعيد عن هذا التوكاني العجيب... مرحة ضاحكة هازلة، تقول إنه وكأنه في المخاض! تماماً كأية امرأة في المخاض، لا ينقصه إلا أن يتمدد على السرير طبعاً! لا، لم يكن ممدداً، بل كان بّا التوكاني يتحرك في مكتبه، تارة يجلس على الكنبة، وتارة يعود إلى المقعد، ممسكاً زجاجة أورانجينا المفضلة لديه دون أن يلمسها... وما يلبث أن يسأل جميلة إن كانت حورية بخير؟ إن كان مولودها ذكراً أو أنثى – لا يهمـ سيكون بخير، جميلة كانت تعرف كل شيء، بل هي المصدر الوحيد لكل شيء في هذا الموضوع، لذلك كان يسأل ويعيد سؤاله مرة أخرى... لقد بدت له فجأة وقد أصبحت شيئاً هامّاً، هاته التي لم يكن يتردد في أن ينعتها بالبلادة أو على الأقل، لم يكن ليعيرها جزءاً من هذا الاهتمام... فجأة أصبحت جميلة على لسانه، وقيد اهتمامه، لمجرد أنها الوحيدة التي تأتيه بأخبار حورية...

قالت جميلة إنه طار من الفرح... لعلها لم تجد كلمات تعبر بها عن حاله، هو الذي كان عاجزاً، بلا شك، عن الشعور بما يظهر عليه، فأحرى أن يعبر عن ذلك... تقول إنه قفز... فعلا، تقول قفز بّا التوكاني قفزة لا أخف منها، ولا

أسرع... أمسك بكتفيها وعيناه تصيحان بالسؤال، حقّاً؟ حقّاً؟ ولد؟ أحقّاً؟ لعل حورية نفسها لم تبتهج إلى هذا الحد في الظاهر على الأقل، وما يلبث بّا التوكاني أن تكتسي سحنته طابع الجد، فيتساءل في استنكار وتجهم، كأنه يفاجأ بمشهد إجرامي غريب، فيتساءل وهو يهز كتفي جميلة وكأنه يهددها هي بالذات، أو يتوعد حورية من خلالها، إياك... إياك... أن تفعلي شيئاً بالصبي؟! لتفهم جميلة إذن، ولتفهم حورية ضرورة العناية كل العناية بالمولود... كل العناية وفوق العناية إن أمكن... ألا يترك للتفريط أبداً مهما كانت الحال... مفهوم؟! يود الرجل أن يقول ما لا يستطيع أن يعبر عنه مباشرة وبكامل الوضوح... عليها ألا تهب الطفل لأحد!... يقول أكثر من ذلك، إن حورية إذا فكرت في شيء من ذلك، فلن تنسى، يجب ألا تنسى، أن بّا التوكاني هنا... موجود ومستعد لهذا الأمر... مهما كانت الظروف... لا يطلب ولا يشترط... ويستمر الرجل يهز باستمرار كتفي جميلة، ليرفعها إلى مستوى حرارته... فالموضوع جد في جد، وبّا التوكاني مستعد لكل شيء... كل شيء... أتفهم؟ كل شيء... ومهما كان... أتفهم؟ إنه... أيوه... أيوه... كل شيء..! يستفيق الرجل أمام هوة ما فاه به، وأمام ما شاع من ذعر في عيني جميلة... فيتراجع خافضاً صوته وبصره ليعود هيكله الضعيف المحدود إلى حجمه العادي أو أقل منه بكثير... يقول، يشرح قصده، إنه لا يقصد أكثر من أنه مستعد ليتولى الولد كما لو كان ابنه، فقط لا أكثر... ولا أقل... يريد أن يحيا هذا الصبي قريباً من بصره، لا أكثر... ولا أقل...

تستمع حورية بإشفاق واستبشار... قوة حب الرجل... هذا التوكاني الضعيف المخيف... سعة قلبه لا تعادلها إلا دقته في الكنز والحساب... تتساءل جميلة وهي تسمع تعليق حورية إن كان هذا كل شيء..؟ لهجة سذاجة مبطنة بتخابث ومكر... تقول: من يدري... ربما يكون شيء ما قد حدث سهواً أو لهواً أو...!

ولا تتركها حورية تتم، إذ كانت تبحث بيديها عن شيء ترميها به...! الخبيثة..! اللعينة!

تقفز جميلة بمرح كالهاربة، مولية باتجاه المطبخ... لكن بكاء رضى يرتفع في الغرفة المجاورة فتتدافع نحوه المرأتان في وقت واحد... ويلتقي وجهاها معاً، ويدا كل منهما ممدودتان إلى جوف المهد لاحتضانه!

حسناً، ماذا لو أتيحت الفرصة لهذا الرجل ذي القلب الرحب الكبير، ليكفل رضى؟ ماذا بكل جد الجد، لو سمحت حورية لنفسها بالارتباط بالرجل، فتضمن مستقبل ابنها على الأقل...

إذا كانت حورية لا تفكر مطلقاً... بل ترفض مطلقاً أي ارتباط بالرجل... فمن باب جد الجد أيضاً، أن تترك له الطفل يتبناه يكفله ويربيه، ولها أن تستقل بحياتها كما تشاء... الواقع الواقع، كما تُسر حورية لنفسها، أن العالم مملوء بالحمقى والمجانين، وجميلة واحد من ذلك... ومعها بّا التوكاني... بّاها التوكاني... وإلا كيف كيف يتصور أحدهما... كيف يتصوران معاً أو يتصور الخلق كلهم أنها، حورية، يمكن أن تتخلى عن مولودها... كيف؟

الأصل والفصل، المبدأ والمنتهى... الحب الكبير والأخير، الوجود ذاته وكل الحب الذي ما بعده بعد، ولا فوقه فوق ولا تحته... رضى... حروف رضى... بسمته وبكاه، اسمه ونداه... رضى... رضى... رضى...

صعقت حورية من زوجها، وهو يهذي بما يقول، وبما لا يقول، أيجهل من هو التوكاني في حياة حورية... ماذا تقول له وكيف تطلعه على ما بها إزاء الرجل؟ يكون عليها أيضاً أن تجد كيف تطلعه على ما بها حقاً وصدقاً إزاء جميلة، حتى لا يخطئ في حقها مرة أخرى... يكون عليها ويكون... لا، لا، الأصل والفصل... المبدأ والمنتهى وكل الحب والوجود... رضى... رضى... رضى...

صعقت منه وهو يهذي بما يقول... أما ما لا يقول... أقامت من مكانها؟ لا، بل طارت منه، ماذا يقصد؟ وهل يقصد أكثر مما يقصد؟ التوكاني الوحداني المسكين ألمت به مرضة قاسية، وحورية الرحمة وملاكها الحنون، تستجيب لداعي الآدمية والخيرية، أو ما يجب أن تلبيه من ذلك، فتهرع بالمساعدة والمؤانسة... الوحداني المسكين... مسكين!؟

ظلت تنظر في أحمد رقيبة محملقة محدقة في وجهه بعينين ناريتين... وظل جامد الملامح في موقفه، يردد ما يردد من عبارات التشفي والهزء والاستنكار... كان يبدو بعيداً عن عالمها، بعيداً في عالمه، مغرقاً في أفكاره غارقاً، ولا يريد لنفسه غير ذلك... كلماته، لا تدري حورية من أي مصدر تسمعها ولا صداها البالغ في قسوة سخريته واستنكاره... من أي قاموس... من أي عالم وبحر يستقي...؟

ظلت تنظر إليه بعينين ملتهبتين حقّاً، اختفت زرقتهما فعلا... اختفى بحرهما الساحر... زرقة طبيعة صامتة مموهة بحيوية الإشراق المعتاد... اختفى ذلك... وظلت جامدة بنظرة حارقة إليه... نار... نار... لاهبة على البعد والقرب... واختفى فعلا كل شيء ساحر، وبدت حورية في وقفتها الغارقة في الدهشة والرعشة ومزيج الغضب والغيظ والحنق أشبه بـ... بـ... بهياج هائج أهوج!

وتحدق في برودة أحمد رقيبة، تضرب حولها بذراعيها وبجمع يدها في الفراغ، وتضرب بقوة قدميها على الأرض... محدقة دائماً... ثم تنأى، تدك الأرض، تتوقف ثم تصفق الباب بقوة، منصرفة في عنف باتجاه المرافق الداخلية للمنزل.

لم يكن برود رقيبة مجرد سطح ظاهر، ولا يمكن أن يكون كذلك وهو يأتي على هذا النحو... حالة غريبة كان، بحجمها الهادئ المريح... كالمتفرج بحياد

تام كامل، على مشهد متناء ليس له به من علاقة أو رابط، لم يكلف فكره عناء متابعة ما تفعله حورية الآن وبعد ذلك، ما يمكن أن تفعله في حالتها هذه ومّا لا... لتفعلْ؟ كأنه يؤثر كلال فكره وراحته عن أي إزعاج أو إجهاد... لكن لماذا تدعي أنها نسيت أن تخبره؟ المسكين الوحداني... التوكاني... المريض... ليمتْ إن شاء... إن كان ما يزال حيّاً، لتمتْ معه، لتحيا معه، ليموتا معا أو...

ضغط على الزر إلى جانبه بقرب الكنبة... في الواقع كان ينتفض، ولم يضغط الزر بقصد... لم يكن يقصد أن ينادي أحدًا... لكن جميلة مثلت أمامه في مشهد مهوش، لم تستطع لملمته... عيناها متورمتان حمروان باردتان... لا يمكن أن يخفي حالها ما وراء الحال... منتحبة مع منتحبتها... كلهم حزب واحد ضده... حزْب عليه، لماذا؟

ظل ينظر إليها في برود دون أن يفهم القصد من مثولها أمامه بهذا الجمود، وهذا التهوش... لماذا يقفون ضده... في الصف الآخر؟.. حتى الجدران يخيل إليه أنها كذلك ضده... معهم...

سألته جميلة بصوت مسحوب داخل حنجرتها، إن كان يطلب شيئاً... ظل ينظر إليها متسائلا، لم يقفون دائماً ضده... كلهم دفعة واحدة؟ تؤازر حليفتها، ربه نعمتها، صديقة عمرها... يشد أزرها معا رضى ذاك... رضى! ويبقى هو وحده، جزيرة مهجورة، بلا شراع ولا قارب، في محيط متلاطم الأمواج وعواصف... ليكن، فقد كان دائماً يواجه وحيداً... هو الوحداني بحق، لكن لا أحد يقولها فيه... يستكثرون عليه العطف والتعاطف... ليكن، فقد كان دائماً وحيداً... يواجه وحيداً... هو الوحداني بحق، لا ذاك العجوز الهارف الشحيح... مرضة قاسية تقول له، بل موتة قاسية كما يتمنى له رقيبة من صميمه في هذه اللحظة بالذات..إن كان لم يكن قد مات بعد، إلى الآن...

مرة أخرى ينتفض رقيبة... وأمامه جميلة ما تزال تنتظر، متابعة حركاته... ينتبه إليها مقطباً في هيئة متسائلة عن علة مثولها أمامه، تلتفت متراجعة، ولا يلبث أن يناديها، أنت، أنت؟! تستدير، قهوة، قهوة، ألا تسمع؟ عجيب منها ذلك، كأنما تعمدت حوريته الغالية أن تظهر له علاقتها بالتوكاني، في الوقت الذي اختارته... علاقة؟ عليه أن يكون مغفلا إذا لم يترجم حرقتها على مرضه المزعوم، بأنها لا تنبئ عن علاقة... كانت تحن دائماً إلى إحيائها...

وهكذا وهما في جلسة عادية، يستعدان للحظات من لحظات يومهما... هكذا بدون مناسبة إلا أن تكون مناسبة تكدير الجو الناعم السعيد، هكذا تضع كفها على صدرها... نحرها... متنهدة متأوهة... تذكره بمرض التوكاني... مرضة قاسية... من؟ التوكاني المسكين... وحداني... كاد يموت فعلا... لولا لطف الأقدار، فاجأتْهُ أزمة ما، وهو وحيد في شقته... بالصدفة وحدها، كان صبى البقال يأتي وراءه بقنينة الغاز التي طلبها منه التوكاني منذ دقائق، ليفاجأ بالباب الموارب والصمت المطبق، وكومة التوكاني الهزيلة في إغماءتها العميقة... مسكين؟! كيف علمتْ بذلك إن لم تكن تتابع أخباره أو على علاقة مستمرة به، ومن تحت رأسك يا رقيبة الزمان الفائق؟!

عجيب، تذكرتْ ذلك هكذا في لحظة بلا رابط ولا علاقة، وعندما سألها لَمَ لَمْ تُخبره بذلك من قبل وحين رجوعه، ما دام الأمر قد حصل في غيابه؟ لَم تزد على أن فغرت فاها دهشة... ثم قالت ببساطة إنها نسيت أن تخبره! هكذا... هكذا ببساطة، ودهشتها شاهد اتهام! لعلها زارت التوكاني في غيبته، وغيابه ذالك... وأي غياب له منذ ارتبط بها، إلا أن يكون قصيراً عابراً، وإلا أن تكون هي مرتبته والآمرة به؟! زيارة التوكاني تكون أقل ما يجب إزاء الخل الوفي في هذه الظروف، وترد عليه، أنها نسيتْ! نسيتْ أن تخبره أم تسترت...

أم نسيتُ... أن تستأذنه؟ وهل هذه مما ينسى؟ لتذهب إليه، لتفعلْ، ولْتسنده إلى ركبتيها وتؤنسه، كما كانت تفعل، لتفعل...

ينتفض رقيبة في جلسته أكثر من مرة... متضايقاً من كل شيء... من نفسه بالذات... من حاله... يقوم قاصداً فضاء الحديقة يرثي حاله... يبكي وضعه... يبكي فعلا... يبكي بكاء عميقاً صامتاً لنفسه بنفسه... بكاء طفل يواجه الأنواء وحيداً... بكاء ضال مضلل ينشد عبثاً أن يثق في كون لا يحتمل ثقة وصدقاً... بكاء من نفسه على نفسه لنفسه...

هل حقاً لن تصفح عنه؟ هل حقاً أنها لم تعرفه بعْدُ إلى الحد الذي يجعلها لن تتراجع؟ من هو من هي؟ طريقهما لم يكن صدفة. إنه التقاء... التقاء حقيقي في الكثير، يؤكد لها أن نقط ضعفه كثيرة كما تعرف، ليس عليه أن يكون حتى في مستوى قوتها لمجرد أنه لا يستطيع ذلك... لا يستطيع، ببساطة... بكل البساطة... هذا هو، وهي تعرف، سيزعم أنه يتغير، يزعم ذلك، يؤكد زعمه، لكنه ليس متأكداً إلا من ضعفه ومن عشقه لأن يعيش... يعيش... يعيش... يعيش بالعمق وبالطول والعرض، عسى أن يرتوي فيه هذا الظمأ الذي لا يرتوي، ولا يريد له أن يرتوي... هل حقّاً لن تصفح حورية عنه؟ كيف إذن تتصور أنه يعيش بدونها، إنها تعرف... تعرف... عليها أن تصفح... تتجاوز... تتجاهل... كان رقيبة ينتحب أمامها بعمق... بصدق... وكانت صامتة جامدة... يلفها الغموض...

وجد الفرصة ليهذي بكل مساوئه ونقائصه... هكذا هو كومة عيوب متحركة متنفسة وهي تعرف... تعرف جيداً ولا يمكن أن تؤاخذه كل هذه المؤاخذة، على كلمة أو إشارة أو حركة... هي تعرف عذابه عندما يتكدر مزاجه، لا لما يسبب له ذلك، بل بسبب حدوثه... تكدر المزاج مخيف وعذاب له أقسى عذاب، هو الذي بنَى كل ما فيه على أن يهنأ ويسعد فقط،

هو الذي اختار معها أن يقفز على كل المنغصات... هي التي خلقته وخلقت له ومنه ما تشاء... ألا تساعده الآن؟ هل تتخلى حقاً؟!

كان يهذي، وظلت في جمودها تنظر في برود. جميلة اختلط بعض شعرها بدموع ملتصقاً على خديها، صامتة بدورها ترمق الموقف... وكان رقيبة يهتز حيناً بعد حين... يتحرك كتفاه في هزات خفيفة، بين حين وآخر... كان ما يزال ينتحب بصمت... بعمق... بصدق... وكانت أمامه حورية صامتة جامدة... متابعة في غموض... يلفها غموض...

5

كانت مغامرة منه، لعله لو استشار فيها أحداً من جماعة لخُوت لترددوا كثيراً ولقرروا بدورهم استشارة الشخش من داخل سجنه... أما الشخش فما كان بالتأكيد ليوافق... وهل يوافق على مثل هذا من لا تحرك خيانة عويشة شعرة منه... ولا تثير فيه نأمة أو حركة انفعال..!؟ ذاك ما جعل عزيزاً يقرر وحده أن يغامر وبنفسه ومن ذاته، دون أن يخبر أحداً من جماعة لخّوت. وإذا كان علواني إلى جانبه على علم بنيته، فعلواني ليس منهم أو هو لم يعد... وهو حافظ للسر صادق... أو ليس بجانبه الآن؟! ما كان لجماعة لخّوت أن يعلموا بعزمه وقصده، ولا كان ذلك للشخش أيضاً... علواني وحده... لا بأس...

العملية كلها الآن... ليست إلا جس نبض، إن نجحت فستدلل على الكثير... وأول ما تدلل عليه، أنه هو عزيز، يحسن التدبير والتفكير والتنفيذ... ثم هو، بعد حركة جس النبض هذه، سيعود إلى الأصل، سيستشير الشخش لا في إتمام ما يريد، بل فيما هو أكثر... في الخطة الشاملة المحكمة التي تقضي على الولْد، وعلى جماعته مرة واحدة... سيظهر للكل أن عزيزاً نعم الخلف لمعلمه... والحامي لخطه وخطته وحسن ذكره...

عاد إليه علواني بعد أن ذهب يستطلع المكان، عاد إليه مطمئناً على ما يجري، وهو يتطوع بالمراقبة تحسباً للمفاجآت... وقد نجح عزيز حتى الآن... نجح إذن في المهم، وهو الآن هنا... اخترق عرين الأسد، وإن كان منظوره ليس إلا وكر ثعلب، نتن... حانة قدماء الحواتين... مرتع الشخش الأقدم الأثير... لم يبق من تاريخها إلا الاسم، أما الحواتون فلا قدماء ولا جدد يرتادونها... وإنما هي مرتع للمبنَّتين واللصوص والمحتالين والنشالين... أغلبهم من جماعة الولْد، أو من الطامعين في التقرب منهم... جوٌّ نتن مثل رواده وحماته... أي حماة... وكلهم مبنَّت مؤنث مخنث ولصوص...؟

يقبع عزيز في القبو... وبالضبط في الفراغ المجوف أسفل السلم الإسمنتي، تفغم أنفه حموضة الرطوبة والأشربة التي تملأ صناديقها الممتلئة بالطافح والفارغ من الزجاجات... توسل إلى ذلك كله بعبقرية وتدبير... استعمل سمّاكاً من الذين يترددون بالسمك على الحانة، لأخذ المعلومات الكافية عن المكان، وليلج من الباب الخلفي المؤدي إلى المطبخ في ممر يجتاز بوابة القبو... لم يكن عليه أكثر من أن يرتدي المعطف المشمع، والبوط المرتفع إلى الركبتين، ويخفي ملامحه بطاقية سوداء تلف الرأس والعنق ومعظم الوجه، لا يبرز منه إلا ما تحت الحاجبين إلى الشفتين، مع انحناءة تزيد من إخفاء الوجه تحت ثقل صندوق السمك المغطى بنبات البحر الأخضر... كان السمَّاك الأصلي قد دخل أولاً، يقصد المطبخ حيث يسلم بضاعته، ووراءه عزيز في مثل هيئته بصندوق وهمي، ومالبث أن دفع البوابة، ونزل الدرجات إلى مخبئه... والآن ينتظر... معتبراً أنه قد نجح إلى حد كبير... شعوره بالخطر يتلاشى أمام اعتزازه بما حققته خطته إلى الآن، وما يمكن أن تحققه... إذا كان الآن بهذه السهولة النسبية، قد استطاع أن يكون في هذا الموقع وحيداً وشبه أعزل... فكيف لو قدر مع جماعته أن يهاجم الولْد النتن في وكره وبالسلاح؟! هو نفسه، عزيز، لم يكن يصدق أن ينجز ما

أنجز لحد الآن... الخطة كانت واضحة في رسمها، ورغم عزمه وعزيمته لم يكن ليصدق أن ينجز ما أنجز... علواني كان نعم الساعد المساعد...

صوت الغناء يرتفع من داخل الحانة مختلطاً ببعض أصوات، لكنها ليست الضجة التي تحدث عند منتصف النهار أو مسائه، حيث يتداخل كل شيء بغيره، ويطفو غناء السكارى، وهبات موجات من روائح السمك المقلي، وبين الحين والآخر، يسمع صوت نسوي لإحدى رفيقات الزبائن، أو صوت عويشة وهي تستجيب للطلبات... آه عويشة تلك... ماذا تفعل وماذا تقول؟ إذا نجح وهو ناجح حتماً، مادام قد صمم وبدأ بالتنفيذ، فسيعرف الجميع من هو، وكان مجيء الولْد وحده هو الذي يغير حركة المكان وحركة عويشة بالذات، مجيء الولد وحده يجعلها تغير نشاطها، إذ تقتصر خدمتها عليه وحده مع شلته... خيانتها رشحتها لهذا الامتياز... الكلبة... وقبل ذلك حظيت بامتياز الاشتغال مع قدماء الحواتين... إنما الكل لحساب الولْد... هو الذي يعطي وهو الذي يأخذ... الخائنة الكلبة الملعونة... ما كان أغناها عن ذلك بزواج، أو بقعدة كريمة في رحاب أب حنون... أو برعاية الشخش، مهما كان تذمره من صبيانياتها، فهو أشرف من أن يستخدمها هذا الاستخدام...

خليط أفكار كان عزيز يمعن في تتبعها وتغذيتها بالسؤال والجواب، إيناساً لنفسه في هذا المعزل والمخبإ، في انتظار أن يتصيد صاحبته هنا، معزولة منفردة، من حيث لا تنتظر أو تتوقع... وهي لابد أن تأتي كما تفعل مرة تلو أخرى، وكما يعرف هو ذلك مسبقاً، لابد أن تأتي لأخذ زجاجات من المخزن، كلما تطلب الأمر ذلك... غالباً ما تأتي هي، ويمكن أن يأتي غيرها للغرض نفسه، وهو ما لا يريد عزيز أن يفكر فيه...

وأخيراً... استدارت لتراه بعد أن أحست بالحركة خلفها... وقبل أن تشهق أو ترفع صوتها، كان قد ضغط على حلقها، وزم شفتيها وأنفها ضاغطاً

عليها بثقل صدره إلى الحائط... نظر في عينيها جيداً... جيداً، وهي تحت رحمته... ثم خفف عنها وأزاح الطاقية كلية لتتعرف عليه... متأهباً في كل لحظة ليكتم أنفاسها، إن بدت منها بادرة استغاثة...

شهقت شهقة مكتومة، وهي تسترد أنفاسها... عرفته... كان ضغطه عليها ما يزال قوياً... عاد الدم إلى وجهها، مرت بيديها على جبهتها، دون أن تظهر تبرماً، أو إرادة في التحرر من ثقله... أخيراً، بعد أن اطمأن إلى أنها فهمتْ، انزاح عنها، وبقي بحيث يحول بينها وبين الإفلات، استدارت كأنما تواجه مرآة وهي تتفقد هيئتها ووضع هندامها... ملعونة... بدت امرأة كاملة من الخلف... ملعونة... كأنها تُعلف خيانة وغدْراً... واستدارت إليه في نظرة طاغية التحدي... حدقت فيه، ثم طلعت بنظرتها ونزلت فيه... تغيرتْ كثيراً كثيراً، وعميقاً عميقاً، وبأقصى سرعة هذه الملعونة... ماذا رضعت هي أو سقيت؟ ملامح الصبية النحيفة الدقيقة... كل ذلك تغير، تفجر، لم يبق من قديمها إلى دقة النظرة، والسمرة الخفيفة، تلك المشربة بحمرة قمحية... وتورم الشفتين، وشموخ الصدر... لم يبق من قديمها شيء... ونظرتها الجديدة المشبعة المشربة جسارة وجرأة... تسأله لم يفعل ذلك...؟

كف عن تأملها، كف عن أفكاره عنها، وحاول ألا يجيب حتى لا ينفجر بما لا يريد... ألا تستطيع أن تفهم، أم تعتقد أنه جاء أيضاً يخون الشخش مثلها؟

انتظرت أن يجيب لحظة... ثم خفضت بصرها عنه بإهمال، وخطت نحو صناديق الزجاجات، تختار ما جاءت لأجله، كأن شيئاً لم يحدث... انتقت ما شاءت من زجاجات، والتفتت تريد أن تتجاوزه بالإهمال نفسه... ظل يعترض طريقها... لحظة... صعدت نظرتها إليه بهدوء، وهي تجعل هيكل الزجاجة يرتاح على كتفيها... بإهمال... بإهمال تنظر متسائلة، بصمتها وتحديها...

ألا يترُكها تمر؟ ملعونة... أصبحت ثمرة شهية مشتهاة بكل ما فيها، ما كان أغناها عن الثعلب النتن؟ يسألها مستنكراً: ألا تستحيي مما فعلت وتفعل؟ وماذا تفعل!؟ لأول مرة تبين له أن علكاً كان في فمها، بدأت تلوكه بإهمال... لعله كان مجمداً في حلقها بفعل مفاجئته لها... تلوكه بتحد واضح... وبالإهمال ذاته... وماذا تفعل؟ ومن هو حتى يسألها هذا السؤال؟

أعفته عن كل إجابة، حين طرحتْ سؤالها الكبير: لماذا جاء؟

ـ تقتلني؟

شهقت شهقة خفيفة مفتعلة، جعلت كيانها المتفجر الشهي يترنح، أكد لها أنه جاء فعلا ليقتلها... لو أراد... ومازال يستطيع ذلك لو أرادت، أي إذا لم تفهم... يقتلها... يقتلها أكثر من مرة إذا كان ذلك ممكناً... يقتلها ويقتل ذكرها...

ـ تهددني؟

ليقل إنه جاء ينذرها، لا يريد أن يقتلها مرة واحدة، دون أن تعرف لماذا وكيف ومن؟ هذا إنذار، ولو كان يملك الإذن بما يفعل، لفعل غير متردد...هذا منطق عزيمته على الأقل، الحق أن منطق الرّغبة في القتل ينثني أمام تفجر أنوثتها والتحدي واللامبالاة... ماذا فعلت بنفسها الملعونة..؟ عزيمة القتل نفسها على شدة اشتعالها في باطنه توشك تخبو أمام لامبالاتها... لم يقدر ذلك... لم يفكر به أو يتصوره... لكنه مع ذلك يتأكد من أن قدره أن يقتلها...

ـ بعيد عليك تفهم!

فاجأته بالهجوم، وماذا يفهم؟ تنمّر في موقفه بمواجهة نظراتها اللامبالية المتعالية... لكنها لم تعبأ مؤكدة باللسان وحركة الرأس أنه لا يفهم... بعيد عن أن يفهم! وعليه أن يتركها لحالها ويمضي لسبيله... أيتركها؟! إنه الآن يفكر بأن ينفذ القتل حالاً ودون إنذار لها أو استشارة لأحد، يقتلها الآن...

كانت جسورة إلى أقصى حد... جريئة ورصينة أمامه... مهما كان ومهما أشار وتحرّك، يبدو أنها لا تقدر جيداً ما هي فيه، ولا تقدر جيداً ما شعر به عزيز... مهما يكن... ظلت ثابتة... بالتأكيد لم تكن تعرف دوافعه... لعلها تعتقد أن له فيها رغبة من تلك الرغبات التي جربتها أو تجربها لدى الآخرين... لعلها استنتجت من تجول نظراته في كيانها، ودهشته مما لحقها من تغير، أنه متردد أو غير قادر... إذن هي لم تتأكد بعد من أنه جاء بدافع حقيقي من ذاته، لينتقم لشرف صاحبه ومعلمه... وأنه جاء لينذر فحسب... قرر أن ينذرها قبل أن ينهي خطته بقتلها... هكذا... هكذا... وسينفذ... وربما عليها أن تعلم شيئاً آخر...

وأزاح طرف الجاكيت، ليترك الفرصة لسلاحه الأبيض المغْمد عند خاصرته أن يعلن حضوره. لم تبد عليها مفاجأة أو خوف... لكن بعض لامبالاتها قد تلاشى، وعمتْ ملامحها مسحة جد قاسية مفاجئة... سرعان ما عادت بعدها إلى حالة الهدوء... مطت عنقها إلى أعلى، مظهرة رقبتها له:

ـ اذبح!

ظلت مغمضة العينين في استسلام من يريد أن يقتل... وظل ينظر إليها مشدوهاً... لحظة... ثم فتحت عينيها، أكدت له أنه لا يفهم، هكذا... تكررها مرة أخرى أنه لا يفهم، أو بعيد عليه أن يفهم... أكثر من ذلك، قالتها بلهجة استصغار... كأنها تعني أنه لم يصل إلى مستوى الفهم... ماذا يفهم؟ كانت قد تجاوزته بخطوات هادئة بطيئة، ووضعت قدمها على أولى درجات السلم، لحق بها، يذكرها بالسجين الذي لم تحفظ ذكراه... الشخش؟ ألا يستحق الوفاء؟

أرخت ذراعها بالزجاجة التي كانت ما تزال على كتفها، التفتت إليه، وحدقت طويلا... طويلا... ثم خطتْ تصعد السلم بتؤدة مترنحة الأوصال...

وحتى لا ينفلت منه كل شيء... لمجرد أن يعرف، يسألها إن كانت ترغب في أن ينقل شيئاً إلى الشخش...؟

ظلت ترتقي الدرجات، ودون أن تلتفت، أكدت أنها ليست بحاجة إلى تحميله عناء الرسالة، لا، لماذا ترسل إليه الكلام وهي التي ستلقاه... تحاوره!

ملعونة... لا تحمل كلماتها نبرة غير السخرية... هل سَتُزف إلى الشخش عروساً في سجنه أم في القبر؟ الفاجرة، ألف قتل تستحق، ولقد أنذرها بما يكفي، بل هيأها لتدفع ثمن خيانتها على يديه...

6

للمرة الرابعة أو أكثر، يجد يده تمتد نحو الزر، لتحضر جميلة يسألها عن حورية... تجيب في تحفظها المعهود... يسألها متى وأين وكيف؟ يحس بالمهانة من كثرة ما يسأل، تسأله هذه الخبيثة... جميلة... حقاً تبدو خبيثة أو متخابثة على الأقل... تسأله إن كان يحتاج لشيء آخر غير القهوة والعصير والشاي والماء والثلج... وألف سم زعاف؟ طلبات غير مرغوب فيها، ولكنها تصدر عنه... عن لسانه على الأصح... ليبرر مناداة جميلة... يشعر بالمهانة من كثرة ما نادى، وما سأل... تجيب اللعينة أنها خرجت منذ قليل! كم؟ منذ قليل، دقائق فقط! إذا كان هو هنا، منذ قرابة ساعة يسأل وينتظر، فكم هو قليلُ هذه المتخابثة وكثيرها؟

ـ الله أعلم يا سيدي!

هكذا تحتمي بالجهالة والسذاجة عندما تريد، وتسأله إن كان قلقاً على للا حورية؟ وهل هناك ما يخاف منه عليها؟

ويجد نفسه مورطاً في أجوبة أشبه ما تكون بالاعتذار عن سلوكه... ليس هناك ما يخاف منه عليها، ويشير على جميلة بالذهاب...

لم تكن هذه أول مرة، ولن تكون آخر مرة يعود ليجد حورية خارج المنزل، دون علمه... ليست هذه مشكلة، مادام قد عاد على غير موعد... يعرف حرصها على استقباله إذا عاد... وعلى المكوت إلى جانبه إن كان مقيماً... لم تخلف ذلك إلا نادراً... وتعوَّد منها على ذلك... الآن يدرك فراغ الزمان والمكان بدونها... ومدى اعتماده على وجودها... لا أحد يملأ الرؤية، ولاشيء كالعهد به في غيابها... وهو هو، بغيابها طفل غرير، لا يرضيه شيء... صبي فقد لهوته... لُهْوته الأثيرة والوحيدة، أو مدلل لا يطيق عجزه فراق حاضنته؛ وحذق جميلة مهما بلغ، يبدو غير مقنع، وفاضح لصبوته وصبيانيته...

الآن تعود جميلة من ذاتها بين الحين والحين، هي التي أصبحت تناديه... تطلبه... تسأله، إن كان في حاجة إليها... إلى شيء منها... ألف لا... ألف نعم... سؤالها تحرش وإحراج...

معكر المزاج... جداً... كان على يقين من ذلك... الأمر بلاشك يرجع لتركة عتاب بسيط بينَه وبين حورية... مثل ما يحدث مراراً، ويذُوب مباشرة، أو بعد حين... تذيبه رغبتها القائمة الأكيدة في تجاوز ما ينغص... تعرف ضعفه أمام خواطره وتصوراته، ويعرف ضعفها أمام شخصها وعشقها للحياة، أو ما يراه كذلك... يتصور أنها مثله الآن، وفي كل وقت لا تستطيع البعد عنه ولا الفراق مهما كان مؤقتاً وعابراً... مثله تماماً في ذلك أو تكاد... كل منهما يخشى انفراده بنفسه، ولا يطيق إلا مرآة مشابهة تعكس ملامحه... الجديدة في موقف عتابهما، وسبب انشغاله، تلك النار القداحة من عيني رضى... الصبي، عظم واستطار الشر من عينيه. تنمَّر... على نحو لم يعهده فيه رقيبة من قبل، ولا أحس بمثيله... على نحو أشعره بعداوة متأصلة بينهما... رضى هذا هنا... في حكم عدو عتيد...

كانا معاً، أحمد رقيبة وحورية كأي زوجين ترتفع بينهما حدة خلافات طارئة، ما فتئت أن أصبحت عديدة، وكانا في قمة العتب والمؤاخذة المألوفة إلى حد ما، حين ظهر عليها تبرم بالموقف... نهضت على إثره كالمحتجة الغاضبة... وحين تابعها، لمح الصبي الذي كان على قرب يشهد ما يجري... لمحه... بل احترق بنار نظرته، بتنمر هيئته كلها... بدا له وحشاً ضارياً مهما ضؤل... فتياً يبدو... صبياً يبدو، لكن جباراً متوحشاً متوثباً... أكان يحتضن في بنيته الصغيرة كل هذا الحقد، ومنذ متى؟ من يتصور صغيراً مثله يكن في طراوة عوده، وفي ضموره كل هذا الشر؟! أهي ذخيرته للغد؟ كانت حركته القصيرة مستمرة نشيطة إلى شرابه على نحو فقد معه إحساسه بسرعتها وتكرارها... كما فقد حذق الحركة التي جعلها في البداية خفية عن أنظار جميلة... حركة موّه عنها بطلبات العصير والقهوة والشاي... متذمراً من سوء المذاق والإعداد... بينما يده وكأسه خفيان في ثغرة الرف المحاذي لكنبته... لا يريد لتخابث جميلة أن يلفه، ولا لعنايتها المقيتة أن تأخذه، ولا تطوعها بالخدمة؛ يحس بها ولا يريد أن يأبه، لكنه لا يريد أيضاً أن تلحظ نهمه ولهفته على شيء يخصه، وفي غياب حورية بالذات، وفي لحظة ضعف يراها غير لائقة به أمام أنظار جميلة الحاذقة الحادة، والمتتبعة لهفواته، الملتصقة به عند قفاه أو جنبه، بعد أن أعياها منه إنكار الحاجة إليها... بوده لو تتركه لنفسه ووحدته، لكنها تختلق تعلات العودة إلى مجلسه، تتجمد قوته... لتراقبْ ما تشاء... ليته يستطيع أن ينتزع حوريته من جميلة ومن رضى، كما تسل الشعرة من العجين، وكما استل هو ذاتَه من كثير... استلها من أهله وذويه، واستلها من درب السلطان ذاته... يؤكد لنفسه أنها لو تبذل أقل بكثير مما بذل، لوجدت نفسها معه، مثله، في مثل تفرغه لها. ستقول إن روحها معلقة... مربوطة فيهما بهما، كما هي فيه أيضاً تُحسن أن تقول ذلك... بإنسانها المتعدد الأرواح... متعددة الأرواح فعلا... كم جريمة

يتطلب الخلاص منها؟! قتْلها؟! قهقه في سره بمرارة لفلتة الخاطر بذهنه... قتْلُها؟ قَتْل من؟ تراود خاطره صورة الصبا، في أسطورة الأفعى والوحش ذي الرؤوس المتعددة، والذي يفرض على الوافد الغريب والتائه معركة غير متكافئة... أين هو وكيف هو؟ أين روحه... أو... أرواحه؟ لا يملك إلا أن يؤكد أنه لم يعد يعرف لكونه شيئاً... لا شيء يعرفه لنفسه غير هذه المرأة... أتعبث به بعد كل ما كان ويكون بينهما؟ أتعبث بروحه... تتلفه رماداً...

حين استفاق، كانت حورية إلى جانبه على الفراش... الفراش معد حيث كان هو جالساً في الصالة قرب الكنبة، تماماً حيث كان وحيث فقد إحساسه بكل شيء حوله منذ... منذ متى؟.. شبح إحدى الزجاجتين يبدو منتصباً داكناً إلى النصف... بينما يرقد شبح الأخرى على جنبه فارغاً مستريحاً... والكأس الكمثرية التي يعشق شكلها والبلور المتلألئ منها أيما عشق.. حورية إلى جانبه تمسح على جبهته بخرقة مبللة معطرة... ألم عام وصداع وانحطاط قوي يلفه... حصل إذن ما حصل... أفرغ في جوفه ما أفرغ بطريقة غير معتادة، وفي غياب كل رقابة منه... لحظة كانت فوق ما تحتمل نفسه أو بدنه... لم يزد على أن تمتم بأنه ضائع ميت بدونها... أخرستْ هذيانه، الخرقة المبللة المعطرة تمررها على شفتيه... ثم وضعت قرصاً... قرصين فوارين في كوب ماء... رنا بطرفه الواهن إلى الحبيبات المتناثرة الفوران في تراميها نحو سطح الكأس، تابع شنشناتها قوية في سمعه، لا يدري ما حصل، ولم يكن في تمام وعيه بعد، لكنه يقدر أنه يميز ما جرى ويجري، بتذكر واهن، وإدراك كسول لما حوله... حالة ضعف وانحطاط كيان يعرفها فيه من قديم، كلما غفل عن نفسه وأطلق لرغبته العنان في أوج انفعالاته... عادته القديمة السيئة أن يعشق الإفراط، يملأ جوفه على فراغ كلما استأثرت به وحدته وهواجسه... هكذا كأنه يعود إلى ضلال والى فراغ، لمجرد أنه لا يحتمل نفسه ولا خواطره... وكم يدفع الثمن

غالياً؟ يدفع الثمن غالياً من بنية أساسها ضعيف، ولا يدري كيف كانت تحتمل نزواته.

أغمض عينيه، صوت جميلة المنتحب بآهاته البلهاء، يتردد على منأى ومقرب، كما لو كانت ملتاعة الكبد على وليد، كم تبدو في صورة رحيمة مشفقة... لو أنها فقط، تغفل عنه في غياب حورية، وفي لحظات منه يعرفها في نفسه، حتى لا يغفل عن نفسه... ليتها تغفل في غياب حورية، عن تمثيل دور الحانية المعتنية بكل شيء فيه... نقطة ضعفه، إحداها على الأقل، ألا يشعر بأنه مدين بشيء لكائن كان، بعد حورية، أو غيرها... ألا يكفي أنه يشعر بأنه مدين بكل شيء لشخص واحد في الكون؟! الأمر سخيف ومقيت، ففي غياب حورية دائماً، وفي لحظات بالذات... يحلو لجميلة أن تتقمص دور صاحبتها وصاحبته... تلك اللحظات بالذات التي يكره فيها ذلك... كل ما تظهره وتبطنه في تلك اللحظات ويبدو طاعة واستماتة في التلبية... في طلب التلبية... في التودد والتطوع، كله لا يزيد على أن يضاعف من شعوره بأزمة لحظته... كم مرة راودته فكرة: أن جميلة هذه حَرية بأن ترتكب أكبر جريمة في حقه، لو يخطر ببالها أنها تراه مع واحدة أخرى غير حورية..! يخيل إليه أنها حَرية بأن تأكله أكلا بالأظافر والأنياب!.. تنمرها حينئذ لا يضاهي بأي وجه من الوجوه ولا حتى تنمر الحقد الصبياني لرضى... يخيل إليه أنها تمثل بحق وحش حراسة من نوع متميز ممتاز... وعلى حساب كل شيء فيه. حورية تنهر جميلة عن هذا الهلع الساذج... الحالة عابرة... قوية شديدة، ولكنها عابرة، تعرفها حورية في صاحبها، وتعرف لأي شيء أكثر من ذلك، كان يمكن أن يعرض نفسه بالإفراط، لولا إلحاح حضور جميلة إلى جانبه، حضورها اليقظ المضايق الذي ينكره ويكرهه... لا يعلم، وليس له أن يعلم أن جميلة أحرص عليه منه! يضحك في نفسه بلاشك إذا سمع شيئاً من هذا، وهذه أيضاً علامة على ما به...

تنهر حورية صاحبتها عن هذا الهلع الساذج، الحال رغم كل شيء عابرة، وغداً يكون سيدها بخير...

أظهرت جميلة بعض التحمل مما بها، وطفقت تتعهد ما حول المجلس من نظام وأشياء، تُعيد ترتيب ما تعيد، وتزيح منه ما تزيح من آثار التمريض، منصرفة إلى شؤونها بعد ذلك...

طفقت حورية إلى جنب رقيبة تمر بيدها على جبهته بحنو، محتضنة رأسه، لا بأس عليه من حال عابرة، وعليه ألا ينسى قانون السن والصحة... وأيضاً قانون العشرة... ما كان مباحاً بالأمس من عبث في الكيان وإتلاف للذات، لم يعد مسموحاً به اليوم... لا السن يسمح... لا الصحة تسمح... ولا ما ينشدان من هناء يسمح... أغنية جميلة تعرف أنه يحبها، تكررها على مسمعه محتضنة رأسه بحنو بالغ، من ينشد هناءه كما ينشدان، وعلى نحو ما يبغيان، فليحفظ كيانه... بأية أطراف وحواس نتذوق لحظات الحياة... نعتصرها متعة... نمتصها قطرة قطرة، وإذا اعتل الكيان... يا حبيب، يا عزيز... خطأ كهذا لا يغتفر ولكنه لا يتكرر.. لن يتكرر... والرجوع إلى الوراء ممنوع... ممنوع... ممنوع... إذن قولي وأعيدي يا حبيبة عزيزة... قولي ماذا يناسب السن، وقانون العشرة والعهد على الهناء والرخاء والفرح... قولي يا طبيبة السن والقلب والعين وكاشفة الضر رافعة الكرب وهم الزمان والمكان.. قولي وأعيدي حلاوة الصورة والعبارة... ألا يخرس هذا الهذيان؟ ألا ينام الآن في أمن الملاك الحارس وأمانه؟!

7

تهللت أسارير العسلي، أشرق وجهه وابتسم ابتسامة عريضة، تنم عن ابتهاج حقيقي بمقدم صاحبته، فقام مرحباً، وهي تقف عند عتبة الباب كالمستطلعة... رفع يده إلى الفضاء في هيئة من يريد أن يلاقيها بأحضانه، في حركة كأنها صفقة كف بكف... حركة تحية أراد لها أن تنم عن حميمية وخفة روح، وبعض طيش... لكن بهيجة في الوقت المناسب ردت كفها، أو هي لم تدفعها نحوه لتستجيب لحركته، وإنما نظرت إليه نظرة شبه لوم وعتاب... عيب... حشومة... تنبهه إلى أن هذه حركة لا تجوز أمام الخلائق... المفروض أنها جاءت لشغل وفي محل للشغل، وهو سمسار...

وافقها في سره... لكنه يريد أن يظهر لها أن مقدمها عليه أنساه كل شيء حوله... ثم هل يخاف أحداً، أو يخشى؟! نظر ملياً إلى قميصها الحريري الأسود المنسدل على بنطال الجينز الباهت المكتنز بما فيه... مرحباً، أهلا وسهلا، خطوة عزيزة... مباركة مسعودة...

لم تول بهيجة اهتماماً لتحاياه، اختارت مقعداً في ركن بداخل الدكان، أشعل سيجارة، وأومأ بطرف عينيه كأنه يعرض عليها واحدة، وهو يعرف أنها لن تقبل... لم تحفل بإشارته، عدلت جلستها قبالته، واضعة رجلا على رجل، زاد معها الجينز اكتنازاً وتمسكاً... هيه؟ إنها تأتي تلبية لرغبة، ومراعاة لشعوره، ليس لديها وقت تضيعه... هيه..؟ مرحباً بها في أي وقت... لا يقول هذا مجاملة ولا يقوله لغيرها... تحية صادقة منه، لها، ولها وحدها، لمكانها ومكانتها عنده!

نظر كل منهما للآخر، إذن سيضيع وقت طويل في هذا الكلام الذي لا يقدم ولا يؤخر، يعرف أنها ما جاءت إلا لأن لديها كل الوقت لهذه الزيارة، وأنها في حاجة إليها أكثر منه... وتعلم أن عباراته المكرورة جاهزة لكل زبون... ويجب افتتاح الموضوع... وهو في حاجة إليها وأكثر... حتى إن كانت هي أيضاً في حاجة إليه، أخطأت في حقه، أخطأتِ يا بهيجة... يا عزيزة... يا جميلة... ولولا أنه يعزها ما غفر لها، كيف تتجاهل دعوته وتفسد ما بينه وبين زبائنه؟! هي الخاسرة على كل حال، وهي تعرف ما يعني... ثم إن خطأها معه تكرر، لم يدعها مرة واحدة أو مرتين... بل أرسل إليها مراراً، من يثق فيه... وأكثر من مرة، كلمها بنفسه... لولا مكانتها عنده لما قبل حتى أن ينظر إليها، في وجهها... عيب عيب وحشومة... وهو لا يريد إلا الخير... ظلت الفتاة مرتاحة في وضعها، وهو يفيض في عرض أفكاره... تبدو متهيئة لكل... استمعت... أنصتت ولم تقاطعْه، حتى إذا انتهى، ظلت صامتة لحظات... هيه، كأنها تنتظر منه المزيد، لم يبد أن لديه شيئاً يقال بعد ذلك.

قامت متهيئة للانصراف، أو هي توشك أن تقوم... نفر الرجل حتى أوشك طربوشه على السقوط... مرّ بأطراف أصابعه على قفاه يدلكها، أو يبحث لها عن محط قريب إلى قنة رأسه المصونة... ووضع كفه على ركبة

صاحبته يثنيها عن الوقوف وحركة الانصراف... ما هذا المزاج؟ أعوذ بالله، هل أصبح سيء الحظ إلى هذا الحد؟ لابأس، لتجلسْ، فالموضوع لم يبدأ بعد... أعوذ بالله... لماذا تعامله هكذا... لكم هي صعبة المراس وتبدو مستشرسة... ومما لاشك فيه أن البعض ممن يعرف قد ملأ رأسها عليه... لاشك... يجب التيقظ والحذر...

ظلت تتابع حركاته، إذن يريد أن يسمع منها، ليس له أن يؤنبها أو يؤاخذ، لأنها لم يسبق أن وعدته بشيء، ولم تكن له بها أية علاقة من قبل... واليوم لم تبدأ لها علاقة به لحد الآن... ولو انتهى لقاء هذه اللحظة كما تريد هي، ثم بعث لها رسولا، أو كلمها فيما بعد في موضوع ما، فلن تعرفه أو تتعرف عليه؟ ليفهم جيداً هذا... وليترك الأساليب التي تعرفها جيداً، وأدت ثمنها غالياً عندما كانت جاهلة ساذجة... عليه أولا أن يوقف كلابه عن تتبعها أو إزعاجها في المعارض أو الأسواق... أو أي مكان آخر...

نظر إليها ملياً، يائساً من أن يسوقها باتجاهه، أو يأخذ منها أكثر مما يريد، إذن، هو كان يتوقع دائماً أنها مؤهلة لأكثر مما تتيح لها علاقتها بالرحمونية، أي شغل ذاك، وأية علاقة؟ الشغل للرجال ومع الرجال، الشغل الحقيقي يا بنتي يتطلب حماية حقيقية... أمك الرحمونية، ماذا تستطيع؟ هي بذاتها في حاجة إلى حماية، أشد حماية... حماية حقيقية... لا بالكلام... لا بالتحايل والتخفي... هذاك لعب، لعب نساء... لعب أطفال... من يصدق أن أمك الرحمونية مجرد خياطة طرازة بياعة شراية... من؟ بياعة شراية، صحيح، لكن في ماذا؟ من يصدق هذا الكلام المنطلق منها إلى كل جهة؟ لا أحد... وهي الأحوج للحماية من أي مخلوق آخر على وجه الأرض... معارض ألبسة... معارض حلاقة... معارض... معارض... كله لعب وعلى من؟ لا أحد يصدق... هي بذاتها لا تصدق...

على كل حال، العسلي، أبوك العسلي وأخوك وعمك وصديقك... كل شيء هنا... يا بنتي، الرحمونية لا تستطيع حماية فتياتها، ثم ماذا تجني الفتيات من كل ذلك التعب؟ وإذا كانت المرأة، أمهن الرحمونية لا تشتغل إلا في التجارة الحلال، كما تقول وتظهر، سنصدق ونقول أهي خيرية أم شغل وكسب حقيقي... هيه؟!

كان محدقاً في هدوء بهيجة وبرودها، وكان كمن يقرأ من لوح مكتوب أمام ناظريه، لهجته لا تخلو من تحبب ونبرة حنو، لعلها لم تبلغ شيئاً أو تلمس من خواطر الفتاة... ليكن، فالعسلي ليس ممن يتدخل في شؤون غيره إلا... إلا... على كل حال، فهو لحسن ظنه بالفتاة الحبيبة... بنت الناس... البهجوية البهيجة، كان دائماً يتوقع أن تعرف مصلحتها ومستواها... وهو ما يتمنى أن يكون قد حصل الآن! ترى أيكون مخطئاً أم هو في عين الصواب؟

عمق نظرته إليها متوقفاً عن سيل خطابه، تلتمع في عينيه إشعاعة رضى واقتناع بما يقول، حدق كثيراً في ملامحها، مبتسماً مستجلياً أثر منطقة وخطابه، لا يريد أن يكرهها على شيء، بل عليها أن تفهم كلامه ولقاءه على هذا الوجه، لا على أي وجه آخر، وهل قال إلا كلاماً حقيقياً صافياً سليماً؟! مثل هذا الكلام يا بنتي لا يقال لكل واحدة من... أيها الناس... إنه كلام لك وحدك.

أظهر أنه قال كل ما عنده، لن تجني أية فتاة من الرحمونية ومن دارها شيئاً لمستقبلها، ولا حتى الزواج من أحد... زواج حقيقي لا أي زواج يكون سجناً في عز الشباب...

أفضى بأن نيته واضحة صافية، يريد أن يكون بهيجة في صفه، وتعمل معه، تعمل لصالحها ومستقبلها قبل كل شيء... المطلوب؟ بسيط وهام وراقي... عمل نظيف حقاً... لا يذهب الظن إلى عمل منافي للشرف... لا، لا، أبداً... لا

يزيد الأمر عن مخالطة أوساط في ظروف مريحة... تعارف... تبادل أفكار... مؤانسة... لا شيء أكثر... أوساط راقية نظيفة وعمل مريح... وصاحبته حرة، لا قيد عليها في الزمان أو المكان... طبعا يمكن ربط علاقات باعتبار من تريد ذلك، لا شيء يجبر على شيء... يمكن العثور على فارس الأحلام... كل شيء ممكن... لكن الشغل شغل، ولا دخل لأحد فيما هو شخصي...

كانت تتابعه ببرودها المعهود، مرة بعد أخرى تغير وضع رجل على رجل، وترمق ساعتها حيناً بعد آخر. بدا لها الرجل كما قدرت، له خطة كاملة، أخذتها بسمة خفيفة، دارتها بإيماءة منها كالمصغية باهتمام...

ـ هيه؟

شجعته إشارتها ليفيض في قصده، الساحة لا تحتمل اثنين من صنفهما: إما هو أو أمها... هي معركة بدون أهمية، والرحمونية لا تضايقه، أبداً... لا يشعر بها، إلا أنها تفسد عليه بعض الشيء... أو تشوش... فقط... لا غير... وهو يعرف عن حقيقتها كل شيء... كل شيء... حتى ما لا تعرفه هي نفسها عن نفسها، والعكس غير صحيح...

قطبت بهيجة كمن يصدمها قوله أو ينبهها من شرود، بدت متسائلة عما يعني؟

إذا كانت لا تصدق، فلتعلم أن له من يزوده بكافة أخبار الرحمونية. تتساءل بهيجة عمن بالضبط، كأنها تكذبه أو ترى في كلامه تزيداً بلا مبرر... أحقاً؟.. تسأل حقّاً؟ تريد أن تعرف؟ إذن العالم كله يزوده بأخبار من يشاء... وبأخبار الرحمونية بالذات... أولا الفتيات كلهن... تقريباً! ألا تصدقه بهيجة؟ ذلك من حقها، شأنها... وثانياً الزبائن، زبائن الرحمونية، أغلبهم مبعوثون من قبل العسلي أو بعضهم... عدوك أو منافسك يجب أن تعرفه جيداً... بعضهم

يعثه لجمع أخبارها وأخبار فتياتها، لا تصدق بهيجة؟ لها ذلك ما شاءت... لكن عليها أن تعلم أن كثيراً من الأشياء تحدث لفتيات الرحمونية هنا وهناك... أشياء كثيرة معروفة، وهي حوادث وأحداث غير مريحة ولا مطمئنة... تلك الأشياء لا تحدث بالصدفة، ولم تحدث كذلك، أبداً... بهيجة بالذات أو شكت أن تتعرض لمثل تلك الأمور، وربما تعتبر نفسها تعرضت لذلك فعلا، أهي صدفة أن تشتعل معركة مفاجئة مع رفيقها في سهرة كانت تضمها في الضفاف الجميلة... ثم بقدرة ساحر تتوقف الفاركونيت في اللحظة نفسها، وتتسرب الشرطة إلى الداخل متجهة نحو بهيجة ورفاقها بالذات... يأخذونها أو يسألونها برفق ظاهر... يقودونها بسلام وهي ما تنفك مندهشة... ثم يعرجون بها إلى حيث أرادت أو تريد، إلا باتجاه الضفاف الجميلة، وشريطة ألا تطأ تلك الضفاف مرة أخرى؟! أصدفة كل ذلك؟ أيحدث ذلك لكل من تحملهن الفاركونيت في حادث أو شبه حادث ليلي، في سهرة ضفاف جميلة؟! تتابعه بهيجة، تعرف القصد. أن تشتغل معه فهذا حقها، كما من حقها أن تشتغل مع الرحمونية أو مع من تشاء، فلا شأن لأحد بذلك، أما معركته مع الرحمونية فلا شأن لها بذلك، إطلاقاً، وعليه أن يعرف جيداً... سواء كان ما حدث في سهرة الضفاف الجميلة صدفة أو من تدبير العسلي نفسه، فذلك لن يغير لا من رأيها، ولا من حركتها وحقها في أن تفعل ما تشاء، وما تراه في صالحها... والباقي... الباقي في الموضوع، اللي ما عندو سيدو عندو للاه!

إذن التفاهم ممكن، بل حصل فعلا وهو ما كان العسلي متأكداً منه، لا يريد منها أكثر من أن تعرف مصلحتها، وتعمل من أجلها، تفاهما إذن، لتشتغل مع من تريد بكامل حريتها واختيارها، ولا شأن لها بالمعارك، لتترك ذلك لأصحابه والقادرين عليه، لن يورطها فيما لا تريد، إنما يريدها حريصة على مصلحتها... المصلحة الحقيقية. لها كل الوقت وكل الحرية، على ألا تجذف ضد تياره! مفهوم؟!

نظرت إليه نظرة عميقة هادئة... ابتسم ابتسامة عريضة، رفع ليضرب على كفها... لكنها لم تمد كفها إليه، لينحرف بحركته حذو أذنيه كالباحث لها عن مستقر أو منفذ تحت طربوشه لقنة رأسه. لم يبد عليها تأثر بشيء، لكنها تساءلت وهي تتابع حركة يده الخائبة المترنحة حول طربوشه:

ـ إيوه؟

ليس له ما يقول أكثر مما فعل، لا شك أنها فهمت عنه وفهم منها، هو دائماً في خدمتها في أي وقت، كل ما تحتاجه لحفظ كرامتها... مستعد هو...

توقف ينظر إليها، ليس مبتدئاً ليخطئ في أنها قد فهمته جيداً ولم ترفض، رغم غضبتها... لماذا أتت إذن؟ لتنذره؟! أهاه، يمكنه أن يضحك من ذلك.

توقف عن سيل كلامه، وارتاح إلى ظهر مقعده، بعد أن ظل طوال الوقت منجذباً نحو الفتاة منحنياً...

شيء آخر. آه. طبعاً. كاد أن ينسى. عندما يقول إنه مستعد لكل شيء فهو فعلا مستعد، ولا يقول ذلك لمجرد ادعاء. مثلك يا بهيجة لابد لها معارف وأهل، العسلي مستعد مستعد... يمكن تدبير عقود شغل بالخارج... بأوربا أو الخليج لمن يحتاج... هذه من مهامه والتزاماته... تقديراً لمن يستحق التقدير... هذه مصالح حقيقية وليست كلاماً...

اتسعت ابتسامته، وعاد من جديد ينجذب منحنياً نحو بهيجة في تودد...

تململت للقيام... بدا كأن حركتها تفاجئه، بدا كالمرتبك وهي تقوم دون كلمة شافية، وبنظرة جد متعالية، لا تخفي عنه مع ذلك أنها ليست غاضبة كل الغضب. سحب من شكارته بطاقة عنوان ناولها إياها، مؤكداً عليها أن تزور كلما أرادت ومتى شاءت، فمثلها لا يستقبل في دكان... بل في مكان راق ممتاز وهادئ... شريطة أن تتصل بالتلفون أولاً...

8

أحس أحمد رقيبة بفورة لا يستطيع كبحها. رنا إلى حورية... حدق فيها بقوة... حديثها عن الرجال عجيب... لا يمكنه أن ينكر ذلك... أبداً... أبداً... ولا يمكنه أن يتجاهل عمق ارتكاسه في باطنه. كأنها عرفتْ الرجال، كل الرجال، ومن عهد آدم إلى آخر واحد على وجه الأرض! ملامحه دائماً تحتج، وملامحها أشد... هل سألته هي مرة أو أنكرتْ عليه أن يتحدث عن النساء... تراه فقط، يضع نفسه في موقع ويحكم عليها من خلاله... يسأل ويجيب ويحكم كما يشاء... ألم يتحدث لها مراراً عن نساء... ليفعل إن لم يكن قد... مراراً حدث ويحدث... تقول له ماذا لو فعل إن لم يكن قد... إنه يبدو أيضاً كمن عرف كل النساء من عهود حواء إلى...! أية سخافة تكون منها حينئذ لو أنكرت عليه؟.. لو حاكمته من موقعها..؟ أما هو فيجد في نفسه كل الميل ليستنكر عليها وينكر منها ما يشاء ومتى شاء... كأنها عرفت كل الرجال... عجيب!

تساؤلات وردود... بعضها مبهم وبعضها جلّي، ظاهر وباطن... تصدر عنه حيناً، وتصدر عنها حيناً آخر، لكن هل يمنع ذلك من تولد المشاعر... أو غليانها في داخله؟ يعرف عنف كبريائها... يدرك منها حدة عناد وامتناع... يعرف فيها الإصرار على أنها لم تسلم نفسها لأحد بغير إرادة منها، وأنها بسبب ذلك تحمل وحدها، وتتحمل دون ذرة من هلع أو... ندم. رضى منها... ثمرتها... وابنها وحدها! ألم تقل له إنها تزوجت مرة؟ هل تمكر به أم تكون قد نسيت؟ ومن ينسى زواجاً في حياته؟! الأمر لا يهمه إلا من وجهة نظرته إليها والى نفسه... لم تنكر ذلك الآن إذن... وبشدة... بأقوى ثورة وانفعال؟

نعم. صحيح أنه قال دائماً، ومنذ البدء، إنه يريدها منذ تعرف عليها... لا. بل، منذ ارتبط بها، لا قبل ذلك أبداً... أكد دائماً أنها ماضيها كماضيه، مع الفارق؛ ليسا شيئاً في علاقتهما... يقول إنهما معاً ولدا يوم ارتبطا بزواج... ماذا إذن؟ بدت له مقطبة في تساؤلاتها الهامسة الفصيحة، وكان مثلها يردد ما يتردد فيه من مثل ذلك... مقطبة شديدة العبوس بدت له، لا ذلك العبوس المحبب المستلطف الذي كان يعرفه على ملامحها، آونة بعد أخرى... كانت تبدو كأن شيئاً منها وفيها يقتلع مع جذوره، أو يقتلع معه الجذور... ألم يكن ميثاقهما العتيد أن لا حضور لماضي في حياتهما، لا ماضيه هو ولا ماضيها؟! إن لم يكن هو قد وفى العهد، فهي بدورها لن تجبر نفسها على ذلك، ولا هي قادرة عليه... وقد لا تحتاج إلى أن تذكره بماضيه... بل تأخذه من حاضره فحسب!

ماذا يفعل الآن؟ إحساسه أمامها بتوتر الموقف، يضاعف من حريته... لا يستطيع أن يغير شيئاً مما حدث... الكلام انطلق منه... سؤالاً... حركة وإشارة، لا يستطيع أن يرجع المشاعر إلى الوراء، مشاعره... بل مشاعرها أولاً. حيرته القاتلة. لماذا تهاجم المشاعر من ذاتها دون توقع أو حسبان؟

كان إزاءها لا يستطيع أن يتصرف بشيء، حتى ولا حركة مجاملة... أو تقرب، كل نأمة منه الآن ستولد ما تولد فيها... يعرف ذلك... يعرفه ويرتعب منه... يخشى منه على نفسه... ويخشاه عليها قبل ذلك...

مع ذلك، حاولت أن تظهر عادية أمامه... لم تستطيع أن تنتقل إلى الدعابة والسخرية المستظرفة من تصوراته، كما كانت تفعل أحياناً، وبيسر كامل...

ـ الله عليك... يا سلام..!

هكذا كانت تقابل مواقفه المماثلة... مجرد سخرية مستظرفة من ذكائه الخارق الذي اكتشف... ثم تتركه منصرفة عنه، مهملة له... إلى حين... ويعود الصفاء... لا. الآن، لا يبدو عليها من طلائع ذلك شيء... بركان في داخلها يتماخض... بركان آدمي...

مع ذلك حاولت أن تظهر أمامه الهدوء والبرود. حدثته بجد أنها كانت دائماً حرة فيما تفعل، ولم تتغير... لم تتغير أبداً... حتى في اقترانها به، وهو يعرف ذلك، يعرفه أكثر من غيره، وهو الوحيد الذي يجب أن يقدر ذلك، لأن ذلك ما عشق فيها وهام به... إن لم يكن قد كذب عليها وعلى نفسه أو استغلهما معاً... إن لم يكن أخطأ الطريق والعنوان!

لا... ربما... هي التي أخطأت كل الخطإ. طالما أكدت ذلك لنفسها وتراجعت عنه.

انصرفت عن ملتقى نظرته، وبدت لها من المشهد البعيد وراءه لمحة من زرقة البحر... مشهد جانبي جداً، في أعطافها فجأة وبقوة مشهد غرفة في حي العنق... ببساطة حالها بتطلعها ولهفتها على أية إطلالة على زرقة المحيط كيفما كانت، ومهما تكن؛ مشهد غرفة بالعنق، وطعم لهفتها... أطلت على المشهد الممتد جانبياً إلى زاوية الغرفة، شاطئ البحر الملتوي باتجاه الكورنيش،

لو امتلكت عنق زرافة لأطلت بما يكفي لترى المشهد بكامله، ابتداء من مسكنها بالعنق ذاته، ومن أقرب نقطة إليها، إلى مغيب المشهد بارتفاع البنايات على هضبة عين الذياب... ففي حي العنق ذاته، حيث الشقة المتوسطة المساحة والموقع في الطابق الثالث، لا تستطيع أن ترى العنق ذاته، ولا ما يمتد بشماله في اتجاه المدينة القديمة والميناء... لكنها بالمقابل تمتد برؤيتها تائهة في الفضاء والأرض إلى حيث تجتاز بالتصور ما بعد عين الذياب...

خامرها إحساس بالتضايق، رغم ارتياحها الباطني العميق... أحست كما لو أنها تود أن تدفع بكف اليدين، زاوية البناية لتنزاح قليلا، تاركة فسحة للرؤية الكاملة تماماً... كشعورها بوجود كائن يقبل الإزاحة في حيلولة بينها وبين ما تروم... شعور تجاوزته، وعادت إلى انبساطها بما هي فيه، تتأمل الفضاء بكامل الحرية، تتنشق الهواء، كما لو كانت سجيناً في الخطوات الأولى من إطلاق سراحه، يغلق لتوه بوابة السجن خلفه، ويرنو إلى الفضاء الفسيح، فاتحاً صدره قدر طاقته لهواء الحرية! لا لم تكن يوماً سجينة ولا هي اليوم طليقة... إنها فقط تمتلك شقة بسيطة... تستطيع أن تغلقها وتفتحها متى، ولمن أرادت. شقة بسيطة... ما تزال خالية لحد الآن إلا من سرير بإحدى الغرفتين... ولوازم محدودة... لكنها قابلة لأن تكون جنة تمتلكها! تمتلك؟ بأي معنى؟ المهم أنها تمتلك فعلا أن تعبر عن وجودها بمفتاح ومغلاق يدار حسب رغبتها... بماذا تعبر عن وجود الفضاء المحيط بها، وما تستطيع أن تراه وتنشقه من هواء هذه النافذة أو تلك؟ وحدها... لأول مرة، دون شريك أو استئذان، أو شعور بأنها في حالة مؤقتة أو وضع عابر... تمتلك إذن شقتها وحركتها، والقدرة على إحكام الإغلاق، لأي شيء تريده... أو تفتحه... امتلاك تبدو معه لحظة آخر الشهر والإيجار، بعيدة ومريحة في آن...

صعق بّا التوكاني للخبر... لأكثر من خبر، صُعِقَتْ نظارتاه... طارتا عن موقعهما على أرنبة أنفه لولا مهارة يديه المضطربتين في الإمساك... كله اضطراب... أكثر من خبر... أكثر من وجه للإزعاج... حورية على وشك الوضع... هو الذي أدرك حملها منذ الوهلة الأولى للقائهما... وهل يخفي عليه ذلك؟ حورية تعتزل السطيحة! كيف تفعل ذلك بعد الألفة والألاف؟ كيف... بعد أن أصبحت نجمة السطيحة ونقطة الجذب فيها وإليها... كيف؟ من يخلفها؟.. يهمه أمرها أولا... ثم من يخلفها حالا، ويكون في مستواها؟ ثم في الأخير وقبل كل شيء، لِمَ تغادر دون أن تخبره... ودون تُمهد لذلك؟.. ربما كان بالإمكان تدارك الأمر... ما معنى ذلك؟ من يؤنس التوكاني آخر الليل... أول الصباح... تلك اللحظات التي يتكئ على هنائها، ورخامة صوت حورية ترفعه إلى بعيد، تقطع به الزمان والمكان عبر سيول أسراب الماعز المنسابة صفوفاً متلاحقة متعرجة من أعالي الجبال، جداول متحركة حية من الصدى الدافئ الباحث عن حلمه في اليقظة، ويقظته في الحلم... صوتُها بسحر فيه، يبعث الصدى صافياً... يحمل التائه المشدوه على أجنحة الرفق... يطوي به أبعاداً... وهاداً، ويفتقد الملهم ما يفتقد الآن، غابت عنه اللحظات البريئة الهانئة؟.. ماذا يفعل الآن بفراغها من دفء وارتخاء ووداعة؟.. هل كان على نظارتيه أن تلحظا شيئاً؟ إذا كان عليه شيء من ذلك، فهو لم ير إلا ضُموراً متزايداً، وامتداداً زئبقياً في بياض البشرة الشفافة والتورد المستديم للشفتين والخدين... ماذا يلاحظ بّاكم التوكاني؟! حورية... جلسة الهناء... كانت كل ما عرف في حياته. جميلة... جميلة. هل تعرف هذه البلهاء... أتعرفين أيتها..؟ هل صحيح؟ لا تملك جميلة إلا أن تزايد تأكيد الأخبار المتولدة من خبر واحد بسيط: حورية ذهبت لتضع حملها! بعد شهور ستعود أحلى وأقدر على الهناء والبهجة والإبهاج..! البلهاء... من يسأل عن عودة وعن شهور؟ السؤال عن الآن والحال... ما

العمل؟ آه، ما أقسى الحادث عندما يقع ضد القصد والرغبة والإرادة ماذا يعني الأمر وماذا يفعل؟ ماذا يفعل بّاك التوكاني ببرودة عالمه، بحمله ويقظته وببهجة السطيحة؟ آه —أخيراً— السطيحة؟.. والناس عندما يسألون عن حورية؟ عندما يفتقدون صوتها وقوامها وإشراقها ودنياها... أيتها البلهاء، جميلة المغفلة من يتحدث عن عودة... وعن شهور؟ السؤال عن الآن والحال، وما العمل؟ ما أمرَّ الواقع عندما يقع! وكيف وقع؟

ويبدو التوكاني في ثورة حقيقية على نفسه وكل ما حوله، ثورة غير مسبوقة أبداً، ولا عرفها فيه أحد، كان يجب أن يعرف كل شيء قبل وقوعه ويحتاج له... فعلا كان يعرف...

تسرد جميلة على مسمع بّا التوكاني تلفيقات عديدة، تنسج بها الواقع والخيال، مبررة سلوك رفيقتها، مظهرة ما حاق بها من ظلم الأيام والناس! البلهاء المغفلة... من يجرؤ على ذكر الظلم الواقع على حورية أمام بّا التوكاني، وله خصيصاً؟! هو نتيجة ظلم الأيام ونسيجها الحق... أي نسيج؟ لكن، الآن... كيف يقضي لحظاته، وكيف تبقى السطيحة بدونها؟.. وما لبثت حماسة الرجل أن انطفأت، وتساؤلاته الملحة، وكأنما أدرك أن الأيام أعادت معه سالف عاداتها... ليس له أن يتذمر ويشكو... إنها واحدة من خساراته... هو الذي يكاد يستوي في الربح بالخسارة... المهم في منطق الحساب، أن يعرف كيف يعوض خساراته... تلك قاعدة الحساب والتجارة، حتى في لعبة الورق تلك... وهي أولى في مجال الخواطر والمشاعر والعواطف... عاد إلى برودة الطبع وعادت يداه إلى معركتهما الأزلية مع نظارتيه على أرنبه أنفه...

نظر إلى جميلة المسمرة إلى جانبه في انتظار تنفيذ تعليماته والإجابة عن سؤاله... نظر إليها كأنه من خلالها يتأمّل ما يختفي وراءها... يحدق مركزاً كأنه ينظر من خلال ستارة كثيفة، أو يتهيأ لينفذ من خلال جدار... وقال لها

متسائلا بلهجة حياد تام، عما منع أو يمنع حورية من الاستمرار هنا، وكما كانت في الحضور، حتى لحظة الوضع؟ يمكنها أن ترتاح حين تشاء، وتتغيب حيناً بعد حين، لكن كيف تنقطع؟! يمكنها على الأقل أن تتحرك هنا أمام الناس، حتى وإن لم تغن... على الأقل يشفعون ذلك... يقدرون... على الأقل تبقى قريبة من الرواد والعشاق... عشاق صوتها وحضورها... ويمكنهم أن يسمعوا منها كلمات... وابتسامات... فهم أصدقاء على كل حال... كل من يحضر هنا صديق... كل من يؤثر هذا المكان بوقته وماله... ويختاره ليصرف همومه، ويمتع نفسه فهو الصديق... الصديق... ثم... ثم... هل يمكن أن يصبر بّا التوكاني على رؤياها... يمكنها أن تجلس ما تشاء من وقت هنا في مكتبه... يمكنها أن تحل محله...

وكأنما أدرك من دهشة جميلة أن الفكرة الأخيرة انسابت في غفلة عن عقله وتدبيره... فلا أحد يتصور أنه يمكن أن يترك فرصة مساعدته في مشغله لأحد، فأحرى أن يحل محله... لا تصدق جميلة ذلك، ولا هو نفسه... إنما... المهم... وعلى كل حال، وبصدق صادق، لم يكن هناك ما يمنع حورية من الاستمرار في وجودها هنا... في تصرفها في المكان... هنا... حتى تحين لحظتها... لحظة الوضع... بل ولماذا تترك غرفة جميلة، رغم ضيقها، وتكلف نفسها شقة كراء أو شراء؟ كان بالإمكان التصرف على أكثر من نحو آخر... الم يكن ذلك ممكناً حقّاً؟ لو أشركته في الأمر!

بدأت معالم الهدوء تعاود الرجل، إلا أن ثورته الصامتة كانت تذمراً من ذاته: لماذا لم يلاحظ ويبادر باحتياط... قبل الأوان... كان يعرف كل شيء... وكأنه لم يكن يرى شيئاً...

وظل التوكاني كمن يعاني من شوكة بعمق حلقة... عبارة أو فكرة تحوم حول خاطره، تراوده بإلحاح، ينعكس أثرها على المعركة الحامية، بين يديه

ونظارتيه... بالتأكيد كان من الممكن التصرف على نحو آخر..! بالتأكيد... لكن الفرصة فاتت... ماتت بين يديه ولا شيء يفعل الآن... إلاّ الندم... وفات الفوت...

وأخيراً، أطلقتها جميلة... أطلقتها مدوية، رغم أنها لم تتعد الهمس والهاجس منها إليها... ومنها إليه... كانت تدرك خطورة ما تقول بالهمس في سمع التوكاني أولاً وأخيراً... وفي سمع حورية قبل ذلك... لكنها كما قالت في نفسها، قبل أن تفغر فاها عجباً ودهشة مما صدر عنها... قالت إنها حتماً »تفرقع الرمانة«... ذاك ما يجب، ولم لا؟ لم تعد تحتمل... على الأقل كان ذلك وحده الكفيل بإخراس هوس الرجل وهلوسته... مجنون! عجوز أخرق وأحمق ومجنون! لم تزد على أن همستْ في لهجة من يلوم الرجل على أنه لم يقل شيئاً... لم يفه بكلمة لحورية... أبداً لم يخاطبها بأية رغبة فيها... لماذا حقّاً لم يخاطبها برغبته في الزواج على سبيل المثال... لماذا؟! ظل ينظر إليها وكأنه لا يراها... ساهماً كان... وكأنه لم يسمع أو يفهم... غفل عن حركة نظارتيه... خلا من كل نأمة من وجود أو حياة... خلا من خواطره ذاتها وأمعن في الشرود والابتعاد... كأنه لا يشعر بشيء حوله... كأنه لم يكن يثير حوله وفي نفسه فورة السؤال...

ظلت جميلة متجمدة، تنتظر ردة فعله على قولها... قنبلة اختبار كانت وأكثر... لذلك ظلت تنتظر الجواب مهما طال الغياب والشرود... ولذلك كررت همسها المجلجل بالسؤال... حتى لا تترك له فرصة لعدم السماع... وظلت تنتظر... وظل ممعناً في غيابه لا ينبئ عن حركة بالحياة... إلا أنه عض على شفتيه... وأعاد نظارتيه أخيراً إلى مكانهما، وبدا يتفقد آلته الحاسبة الصغيرة، عندئذ تحركت جميلة منصرفة إلى شغلها المعتاد، بهمة عادية، وكأن شيئاً لم يكن... وذهبت بها الظنون بعيداً... ذكرت ذلك وكررته في سمع

حورية... ظنون عديدة متشابكة متعارضة... الرجل سمع ووعى بدليل أنه عاد إلى نفسه، تفقد وضعه المعتاد... نظارتيه وحاسبته، ليصبح كما تعهده. لم يثر في وجه جميلة وإنما أحست في أعماقها أن أعماقه تصدر آهة... آهة حرقة أو فرحة؟! لا تستطيع أن تؤكد.

أحست جميلة بقية يومها أن الشغل بين يديها يمضي بلا طعم، فجرت الرمانة كما تقول بينها وبين نفسها، فجرتها في وجهه، لكن ما الفائدة؟ ماذا لو استفاق الرجل إلى ما فعلت معه جميلة، فيثور ويصرفها حالاً؟! استبعدت الفكرة في الحال، وإن كانت لا تبالي بذلك أو لم تفكر به إطلاقاً... كل ما في الأمر، وهو الأوكد، أن الرجل يعتبرها بلهاء... بلهاء... تهرف بما لا تعرف... صحيح... يبدو لها الآن أنها لا تعرف... أشياء كثيرة خامرتها من قبل ولم تجد جواباً شافياً لدى حورية بالذات، والآن، تقف بسؤال عند رأس العين، مصدر الخبر واليقين، بّاها التوكاني، فلا يقول بدوره شيئاً... إلا تلك الآهة من عمق أحشائه... آهة حرقة أم فرحة؟!

كأن شيئاً لم يكن. في همة كاذبة من جميلة تنصرف إلى شغلها وخاطر شارد يطوح بها إلى بعيد... فجرت رمانتها ولم يحدث أي شيء... لا... بل حدث شيء هام...

في نهاية اليوم، أقبل عليها بّا التوكاني، ثقيل الخطى كأنه ينوء بحمل هيكله الواهن الضعيف، وناولها شيكاً... هدية منه لحورية... قال بلسان متعثر إنه يغطي لها بضعة شهور الإيجار.... وأشياء أخرى... لم يزد على ذلك كلمة، ولا قال بعدها شيئاً... أي شيء...

بدأت أركان الشقة تبرز باللوازم والمحتويات... والجدران تتزين بمعلقات جميلة... والفضاء يمتلئ بالأشياء وحرارة الحياة... يتجاوب صوت جميلة الطروب، يتلاعب مقلداً أنغام حورية وأداءها... مرة بعد أخرى، تحكي

شيئاً عن بّا التوكاني الصموت... مرة بعد أخرى تغمز لحورية بكيد ظاهر وتخابث... لو تزوجت التوكاني... لو بذلت أقل جهد لتزوجته، ونعمت بما عنده... ونعمت معها جميلة... أخ... تلحظها حورية بعين غير راضية عن هذا المزاح والموضوع من أصله... فينحرف الحديث بينهما باتجاه آخر... المقصود... في الواقع... الغرض هو إسعاد الجنين... الوليد المنتظر، وقد اقتربت إطلالته... إنه يستحق أن يستقبل العالم بسعة في الرزق والعيش الكريم... ثم... ماذا به هذا الرجل... بّا التوكاني... إنه ليس إلا رجل لم يجد امرأة تعرف كيف تفتح عالمه... تقتحمه... هذا كل شيء... ما باله بّا التوكاني؟ وماذا يمكن أن يكون غير رجل كالرجال بما فيهم وما ليس فيهم؟!

مرة أخرى تلسعها حورية بنظرة كاوية، فلا تجد إلا أن تصمت على مضض... وما باله... ما باله... أيكون أقل أو أكثر من عباد الله، أولاد آدم... أولاد تسعة شهور؟! قالت ذلك في يأس لتنهي كل شيء حول الموضوع... ولتلتقط حورية أنفاسها، كما لو كانت تشد من داخل حلقومها بملقاط، لتقول لها وكأنها تنفض بذلك أيضاً، يدها من موضوع لم يضرها أبداً... تنفض يدها منه وتشحن عبارتها بكل عنف واستنكار ممكن: خذيه لك أللا...! عجبك؟ خذيه يا الله! ما له... رجل كالرجال... يا الله... خذيه... خذيه..!

تفاجأ جميلة بما تسمع وباللهجة... تصمتُ، تصرف خواطرها وهواجسها عن هذه الساحة... لكن موجة عطف تجتاحها إزاء الرجل... موجة ليست جديدة ولا سطحية فيما يبدو... رغم كل شيء... رغم ما له وما عليه... فهو لا يؤذي أحداً... أبداً... لا متسلطاً ولا جباراً... لا تصدر عنه كلمة نابية أبداً... ولا جارحة لأحد... أبداً حتى في حال غضبه... كل ماله وعليه أنه يحصن ذاته وأمواله ضد غيره... مهما كان ومن كان... ملكوته، في خلوته إلى حساباته بلا مساعد أو معين، أما الباقي فهو يراقب كل ما حوله...

وكأنه في حياد تام يكاد يصل حد الغفلة... غفلة عميقة في يقظة حادة... كيقظته تلك، عندما تناهى إليه من جميلة ذاتها، أنها ستنقطع عن شغلها بالسطيحة، لتلتحق بحورية في مسكنها الجديد... تؤنسها وتساعدها... بدا الرجل وكأنه يفيق من غيبوبة تتسع لها حدقتاه... وتبحث يديه عن قدرة لتثبيت نظارتيه في مكانهما... ثم ينطفئ البريق ويظل ينظر إليها بحياده المألوف... لينكفئ على آلته الحاسبة وفواتيره...

جامدة كانت حورية في موقفها ومتابعتها لحبل خواطرها، مأخوذة بما يخامرها، أين كانت وأين هي الآن؟

وظل رقيبة يتابع خواطرها بهدوء أكثر، هي هي دائماً حورية التي يعشق في حالات غضبها والمرح، في حالات غصته وفورانه معها، ماذا يملك؟ ماذا يستطيع؟ بغصة ظل يتابعها، يدرك الآن أنها عنه بعيدة، جد بعيدة، ولا يضجره ذلك في شيء منها، كل ما يخشاه، أو يحاول توقعه احتياطياً، هو ماذا بعد البرود الفائر هذا؟

نظر إلى ساعته وهمس في صوت مسموع:

ـ الوقت قرب على الولد... رضى؟

لم يحرك ساكناً فيما حوله، أحس بها عبارة باردة، بل قارسة متجمدة تخرج من بين أسنانه، لا بأس، صدرت عنه العبارة وهو يبحث جاهداً عن شيء يفعله. هداه جهله وغفلته إلا أنه يذكر رضى، وموعد رجوعه من مدوسته... يحرك بذلك ساكن الكون حولهما، لا أكثر! آه، كأنه نسي أن رضى نفسه معركة بينهما... معركته هو مع نفسه ومع حورية... سذاجة! كأنه يضرب على وتر أمومتها ليحرك الموقف... سذاجة وغفلة! محنته في أنها تعرفه جيداً... هكذا يعتقد، وخير ما يفعله، بعد أن أحدث ما أحدث، أن يخرس خواطره... كيف؟ لو استطاع!

يحمحم، يود أن يتحرك ويتركها لنفسها، لكن ماذا تقول حينئذ أو تفعل؟ المحنة محنته هو، أما هي فلم يسبق له أن رآها على هذا النحو... هيئتها كما لو تكون مستقرة على شيء، في ملامح غيظ خفيفة ولا تخفى... هل يغير الموضوع؟ سيفشل حتماً، والموضوع انقطع، سافر بها بعيداً في جمود وشرود، وأبقاه أمامها راسخاً مثقلا... سيفشل حتماً إن سعى إلى اختلاق هزل في الموضوع... هي أحذق منه بكثير في هذا... أو أنه أكثر منها قابلية لما تأتي به من ذلك...

لم يخطئ طريقه.. عشق فيها ذلك الحزم المقرون بالتمرد الدائم، وحب الحياة... إدمان المتعة من أي لون كان ومع أية ريح هبت، عشق فيها وأحب ذلك المزيج الذي تجيد خلفه وخلطه... لا ينكر ذلك... لن ينكر أنها كانت دائماً حرة، وأنه تعلم منها الكثير... تعلم متأخراً جدّاً أن يفعل مثل ذلك، عشق فيها ما عشق في نفسه... لن ينكر ذلك، لكنه يضعف أمام طبيعته وأفكاره العابرة والمداومة... الأمر أجمل بكثير، وأحلى وأنفس، من أن يدوم... يخالطه الشعور بذلك ويداهمه، بقدر ما يبذل في سبيل أن يدوم كل شيء كما يريده معها، وأن يتعدى الدوام، ألم يبح لها مرة، بخاطرته العجيبة الغريبة تلك! أن يستمرّا على ما هما عليه، كما هما، أو في حال أحسن، شريطة أن يقضيا معاً في لحظة واحدة! أية أنانية وحب للذات أكثر من هذا؟

لم تعلق على خاطرته تلك، بأكثر من تغيير للموضوع نحو الهزل الخفيف... فنها الذي تجيده. ألم تخطيء طريقها هي؟ لعل طريقها مع غيره كان أولى، وأحرى... وأضمن؟ ماذا فيه حقيقة مما تعشق امرأة مثلها، أو ترغب فيه؟! المال، وإلحاحه الذي ملأ عليها الطريق، ولا شيء آخر، غير ذلك! سؤال يغيب عنه دهوراً، ولكن عندما يرتسم، يملؤه بالرعب والهول... من هو وأين هو... وماذا فيه وحوله؟

ظلت تتابع خواطره ببرود، يسأل ويجيب، يهاجم ويدافع، يعلن ويضمر... تابعته ببرود ظاهر، وبنار خفية يعلم أجيجها، أية سهام ينفث وأية جراح ينكأ؟ هل فقد الإحساس أم هو خلق آخر... أم مفعول شيء لا تدري كنهه؟ قامت في هيئة من تنفض يدها من كل حديث أو موضوع... وظل رقيبة وحيداً ينفث دخان سيجاره الثقيل...

ماذا فعل بها وبنفسه؟ لا يمكن أن يتصور ما حصل ولا كيف... ولن يتحمل المزيد... الفراغ الثقيل من حوله بدونها لا يحتمل... لا شيء يحتمل بدونها... ولو استطاع أن يغتال خواطره السامة المسمومة لكان أسعد بشري في كون البشر... لينْس إذن... ليجعلْها تنسى بدورها...

عندما فتح باب غرفة النوم... كان الفراش مرتباً بدون تغيير كما قدر... خالياً من كل دْفْء وترحاب كما قدر أيضاً... وتكون حورية الآن دامعة القلب، في الغرفة الأخرى تحتضن الرضى... رضى... رضى...!

9

لم يفهم، لم يكن ليفهم... وكما قالت المسكينة عويشة حقيقة إنه لم... ولن يفهم..! كيف يفهم ذلك ويقدره... بل كيف قدرتْ عويشة أنه لن يفهم؟ أيظهر ذلك من سنّه... من ضحكته، حركته وسكونه..؟ أم أنه بكل اختصار، لم يبلغ الرجولة والفهم... بالعقل والإدراك وحسن التقدير... هو الذي كان يعتقد أنه تجاوز حسن التقدير والتدبير؟!

كان عزيز في أوج أزمة ذاتية عميقة، مهتاج المشاعر مهتزاً بما حدث... في طريقه... هذا الطريق الذي أصبح رفيقه إلى عزلة الشخش في سجنه، ينقل إليه الأخبار، ويتلقى منه التعليمات...

ها هو ذا مرة أخرى في الطريق نفسه، في أزمة هذه الأزمات التي أصبحت قاعدة مشاعره... كيف يبدأ حديثه هذه المرة أيضاً؟ لا. البداية اليوم ميسرة مهما كانت غير منتظرة... إنما كيف يحتمل أن ينقل كل التفاصيل عن غفلته هو عزيز، وهو الذي اعتبر نفسه في وضع الرجل ذي المهمات المتعددة والصعبة، فإذا هو لا يقدر عليها ولا على فهمها... كيف يحكي عن قصور

إدراكه وفهمه... كيف يحكي عن هذه الصبية التي تجاوزته إدراكاً وفهماً... وإنجازاً... والتي حكمت عليه بعدم الفهم..؟

البداية ميسرة مهما جاءت مفاجئة وغير منتظرة، وفي هذه المرة، لن يبقى الشخش ساكناً هادئاً... لا... ولن تصدر عنه مجرد بسمة اللامبالاة... الأمر هنا جدٌّ وهامّ، ولا يتوقع انتظاره... ألم يحاول هو عزيز، في فرصة اعتبرها مغامرة بكل المقاييس يتحمل مسؤوليتها ووزرها في حالتي الفشل والنجاح؟.. واعتقد أنه نجح لمجرد أنّه استطاع أن يخترق عالم الولْد وشلته... ويتسلل إلى عرينهم لمقابلة عويشة وإنذارها بمصيرها المحتوم... أي مصير؟! كم يبدو لنفسه اليوم سخيفاً... جدّاً... لا يفهم... لم يفهم... ولن يفهم شيئاً... أبداً... ابداً...

الأمر يا عمي علي... الأمر يا أخي الشخش... الأمر يا معلمي أن عويشة تلك... قتلتْ!!

هكذا فاجأهم والدها المسعودي المستكين المحطم، عندما أقبل على جماعة لخُوت في ركنهم بمقهى الجيارة... مهدوداً كأنما يخرج لتوه من تحت جبل أو ينبعث من قبر... بدا لهم شحاذاً أو أهبل، أو أشبه ما يكون بخليفة أو رفيق جديد للهبطي في درب السلطان... نهروه أكثر من مرة... نهروه بالإشارة وبالإهمال... لكنه كان مصراً ملحاً، يقصد مركز حوارهم... أخيراً صاح أحد أفراد الشلة... آه... إنه... لم يتم... فالاسم لا يرد، ولكن الكيان المتهالك يحرك رأسه إيجاباً وترحيباً، لا يقلل من معالم الأسى العميقة المرتسمة عليه... يؤكد... إييه... أنا هو... أنا هو... المسعودي أبوها... عويشة... أختكم... بنتكم... عويشة... عوي...

ويجهش الرجل بالبكاء! ينتحب وينتفض منه كل طرف، يهتز اهتزازاً أقرب إلى ارتعاش مستمر.

يتنبه إليه الجميع، يجلسونه بينهم... أما عزيز الذي كان يعرف عن عويشة الكثير... والذي كان قد عزم على فعل شيء أكيد لينتقم منها لصاحبه ومعلمه الشخش، فقد تحفزتْ فيه حاسة الشر... وجال ببصره إلى خارج المقهى تحسباً لمكيدة... لاشك أن فعلته باختراق نطاق الولْد، وإنذاره لعويشة قد أثمرت خيانة أخرى لدى تلك النذلة الوقحة... وحده، كان يقدر خطر ما يحدث... وحده كان في وضع من يقدر دلالة ظهور المسعودي... أو أي غيره من قبل عويشة... لأنه وحده كان يحتفظ بسر ما فعل وما سيفعل... وكان متوقعاً ولو على مستوى ضعيف، أن تضاعف عويشة من خيانتها فتبوح بما تعلم من أمره... لينتظر النتيجة؟ لم يغبْ عنه أنهم سيردون عليه بأحسن من تحيته، إذا وجدوا الفرصة كذلك... أما ما ظل يستبعده من خواطره، فهو أن تتمادى الخائنة الداعرة في غيها، وتضيف على رصيدها النتن، خيانة عزيز أيضاً، وتدبير ما يقضي على الجماعة...

كان عزيز على وشك أن يأمر أفراد شلته بالتفرق والتزام الحذر... حين كان المسعودي يلملم نفسه ليفاجئهم بالخبر الصاعق... صاعق ماحق:

ـ عويشة قتلتْ..!

تماماً، كما لن يفهم الشخش من هذه الجملة المبتدئة المفاجئة إن كانت عويشة، فاعلا أو مفعولا به، كذلك، لم يدركِ ما تبقى من جماعة لخّوت، من الجملة المقتضبة المباغتة شيئاً... ذهلوا برهة... تبادلوا نظرات الدهشة والاستغراب... وعادوا بانطباعهم نحوه، ماذا يقصد الرجل؟ وفيم يفيدهم هذره؟ حدّقوا باتجاهه، نظروا إليه يتساءلون...

ـ عويشة، يا وليداتي قتلتْ... قتلتْ قتلتْ وقَتَلَتْنَا معها؟ قتلتنا كلنا يا وليداتي!

وأجهش الرجل بالبكاء... ولم يزد الأمر إلا غموضاً... نفس الدهشة والغموض الذي سيعتري ملامح الشخش حتماً، وهو يسمع النبأ من عزيز... لكن عزيز بين الشلة إذ ذاك، وفي موقف أمام المسعودي المتهالك، لم يكن ليستسلم للثقة العمياء، أو لألاعيب التغميض والترميز... قد لا يكون الأمر أكثر من أسلوب من أساليب غدْر الولد وتآمره... وكل هذه المسرحية قد لا تكون أكثر من ستار لكسب الوقت، ريثما ينقض عليهم الولد الحقير وشلته، بقيادة الخائنة الداعرة عويشة بنت المسعودي... حيلة ومسرحية ما في ذلك شك! ومهوس أحمق من يظن أن ذلك يفوته أو يجوز عليه...

أما أن تكون عويشة قد قتلتْ غيرها وقَتَلَتْ نفسها، فهذا كله غريب وممكن، لكن أن تكون قد قتلت الجميع، بما فيهم والدها المسعودي الحاضر بينهم ينقل إليهم ما ينقل، متهالكاً فهذا جنون وعربدة، بل مكيدة مبيتة ومؤكدة...

وأوضح الرجل أن عويشة في حكم المقتولة بعد أن قتلتْ وسلمتْ نفسها معترفة بكامل فعلتها... بطواعية تامة... كلهم يموتون الآن حسرة عليها، والدتها المسكينة وإخوتها... قتلتهم جميعاً بعدما... وقضتْ على كل شيء... وقتلتْ والدَها أكثر من مرة، هو الذي كان يتوعدها بالقتل لو ظفر بها... الآن قلبه يتفطر على شبابها، على براءتها... إذ أنها بريئة في نظره وحبه، مهما تفعل ومهما تعترف... يتفطر قلبه على ضياعها... ولا يملك إلا أن يطلب لها المساعدة... ومنهم بالذات فهم الأقرب إليها... المساعدة منهم فهم إخوتها، وأهلها وعشيرتها... هم كل شيء كان لها... ويبقى...

هكذا إذن تزف عويشة إلى الشخش في سجنه؟! أهذا معنى حوارها معه عندما لمحتْ إليه أثناء زيارة عزيز لها..؟ ما أبعد رؤيتها وتصميمها... تلك التي رماها بالصبيانية والهبل والخلط..! وتلك التي أدهشته بنضج أنوثتها في عرين الأسد... العدو... الولد، وهي إذ ذاك تدبر أمرها الكبير... أيكون نضج الأنوثة

ذاك، دالا على نضج في التنوير والتدبير والفهم والإدراك..؟ هكذا تُزف العروس إلى عريسها تفصل بينهما الجدران، وتصل بينهما الجدران... ومجمعهم مهما يكن، سقف واحد... مصير واحد... خواطر ومشاعر واحدة؟!

هكذا تقطع عويشة بين عشية وضحاها الكون والوجود من أقْصى قطب إلى أقصاه ما بين قتل وقتل، وما بين زفاف وزفاف؟ حضرتْ نفسها خير تحضير لليلتها مع الولْد... انصرفتْ مع الشلة... آخر المنصرفين من »الحواتين«... بداية الصباح كانت... متمايلين كانوا، متساندين بعضهم على بعض لا تكاد تحملهم سيقانهم، وفي أتم وعي كعادتهم، وكانت عويشة أقلهم في ذلك كله... طبعاً، عقلها كان أيقظ وأنشط، ولم يكن لها من ذلك مفر أو خيار... هي دبرت وحضرت، وكان عليها أن تتابع إلى آخر الشوط... ليلتها تلك هيأت لها جيداً... وحضرت لها من زمان... لعل زيارة عزيز عجلت أو... لعلّها لم يكن لها دخْل في الخطة على الإطلاق... إلا أن تكون قد شوشتْ على عويشة من حيث أنّها فهمت أن هناك من قد يتدخل، فيفسد عليها ما تنوي... ربما الأمر كذلك، ولا يمكن أن يكون أكثر... التدبير من ذاتها بمفردها وإرادتها الصامتة المتمردة...

بدا الولْد غير قابل لمزيد من السهر تلك الليلة... معها على الأقل... لذلك حاول بإشارة منه أن ينعزل في غرفته للنّوم، بمجرد ما أوصلته الجماعة... قال إنه سينام، وتلك إشارة إلى أن نشاط اليوم انتهى، وعلى كل منهم أن ينام حيث يجد له مكاناً في الصحن أو في الغرفتين الأخريين، عدا غرفة الولد الخاصة، وعدا حجرةً هي الأصغر، خصصت لعويشة، أو لأية واحدة غيرها ممن تطول خدمتهن أو عشرتهن للولْد... وقد تجمع في الوقت أكثر من واحدة حسب الموسم والشغل والمهام... أصرّت عويشة على أن تبدأ سهرتَها مع الولد بطريقتها التي تلائم طبيعتها حين يكون راغباً في المزيد... عرضت عليه سهرة

خاصة بهما على طريقتها، وبما اختارته لنهاية اليوم أو بداية الصباح، تردد في القبول، ثم رنا إليها في حسن ما هي فيه، وفي جرأة نظرتها... ودفعها أمامه... تماماً... كليلة اكتشافه لها... بدت له في جدة تذكره بأول لقاء بها... نفس الجرأة التي اقتحمت بها عالمه... تعرض خزائن ما لديها من مكنون الجسد والروح، كما لو كانت تنافس ذاتها، أو تعيد خلقها من جديد... جديد... شيقة شبقة بدت له أكثر مما عرف ويعرف من فنون الإيناس والتشويق والممانعة... سقته، من رشاقتها المتجددة بعذب اللسان والحركات، سقته من وجودها بأعتق مما سقته من شرابها؛ ووجدها تخرجه من الألفة التي سرعان ما تضرب بينه وبين من يعاشر أو يعرف... الألفة التي بدأت تنسج خيوطها بينهما أيضاً... سُرّ بذلك... دهش له وأعجبَ به، ووجد نفسه يبدأ معها نشاطاً جديداً... يوماً جديداً من باكر صباحه، ومع عويشة أخرى جديدة كل الجدة... ألف مرة تفوقُ تلك التي اقتحمت عالمه أول مرة... غنت فأبدعت، رقصت فأمضت... أضحكت فأشرقت وأشرق معها الصباح والليل والنهار... كون عجيب تفتق عن كيان امرأة صبية ما تزال، خمرية معتقة كأعتق ما يكون السكر والخمر والأنس والدلال... وُهبَتْ لك يا ولْد الأولاد ... ولد المدينة وفتى فتيانها... ولْد المدينة ودرب السلطان... نعيماً يا بنت البنات... وبنت الأولاد... يا كون ألوف النساء... ثمار جنان دانيات القطوف، ممنعات، ساحرات اللون والذوق واللسان ناعمات اللمس والعطر، فاتنات الإشارة والعبارة، نديات شهيات...

كانت ليلة... تمام ليلة... كانت لعبة... أشبه ما تكون بأي بسيط ساذج ممتع ولذيذ... لعبة أثمرتها البهجة والمسرة ونسائم البسط والانشراح... لتشرب... لتشرب أكثر وأحسن وأجود ما يمكن... من منا الأقدر على خفة الرقص وحفظ التوازن بكاس مترع على الكف... على الجبهة... على رأس

الأصبع الواحد... على طرف اللسان؟!

لتكسر الكؤوس... لتنْكسر ما شاءت، وليهرق السائل ما شاء أن يهرق... لينهرق مداد الليلة ووقودها، من أعتق ما اختارت لك عويشة واختارت لليلتها... أشبه بلعبة السذاجة والبساطة بدأتْ. من منّا الأقدر في حالته هذه، على ورطة الحُبّ والحبس؟ تلك الربطة الجهنمية التي تتفنن التقاليد في حبكها لعروس نافرة أو ناشز، من عريس وعرس كريه... يربطونها ربطاً محكماً إلى مصيرٍ الحب المفروض...! الحب المفروض... الحب الممتع... الحب الممتنع المتمنع... كله متعة وفن سذاجة...

آه، تذكرها اللعبة بمرارة ما كان يمكن أن تقاسيه عويشة، لو لم تنج بحريتها لحريتها... إلى الفضاء مهما كان الفضاء... تجرعت مرارة اللعبة تلك... جرعت واحدة كانت، وفرت بحريتها خارج الفضاء كله... لعبة على كل حال!

قهقهه الولد، وتمايلت كفه بالكأس التي أهرق محتواها على صدره... لم لا يمارسان الحبْس والحب والورطة والقيد والأزمة والحل وكل ما يتسع له ليل الصباح وليل النهار والظلام؟! أشبه بلعبة بدأتْ، لم لا يتحملها الرجال؟ لم يتحملها النساء فقط؟ أهن الأقوى والأضعف؟ ألا يجربها الرجال؟ أين الرجال حقاً؟!

تذكرها اللعبة بمرارة ما تخيل أنها كانت ستقاسيه لو لم... وهي لا تقدر على تحمل اللعبة... لم لا يتحملها الرجال... الأولاد..؟ لعبة بالحب وحده بلا حبس، ولا حزن، وبقيد الحرير اللطيف ولا بالحبل..؟! لم لا؟ بحبل حرير لطيف رهيف، لا بحبل مفتول مجدول...؟

أغمض عينيه، وهو ينبطح فوق السرير على ظهره، مفرجاً أطرافه في نشوة وارتخاء... بالفعل كان محتاجاً إلى ارتخاء، ونومة الظهر هذه، كأنه يجهل

راحتها كل الجهل... ويجهل ما تثمره من ارتخاء حقيقي كامل... أناملها المخدرة الساحرة تسري بتيارها في الكيان تقيد وتربط فتضفي ارتياحاً، وإلى تمام الارتياح ارتياحاً... وإلى التنمل الممتع اللذيذ تنملا واستحلاء... أية متعة بالغة كالحلم الرقيق الجميل... تمر الأنامل على مواطن الخدر خلف الأذن على عروق الجبهة... تسري باتجاه خيط الحياة في الجذع وطرف الأطراف... خدر ناعم واسترخاء تعمقه حركة الأنامل الرقاق، والنفس المرهق الطائف على كل ذرة في الكيان... ثم اللطف الأخف، لفة بالحرير، ربطة كعْبي القدم ووصلها بالحاجز الحديدي للسرير... اليمنى... ثم اليسرى... أناملها اللطاف ساحرة المفعول، وهي تداعب مكامن الخدر في الكيان المرتخي المرتاح، تلف الربطة الحريرية على الكوعين، وتصل اليدين بالحاجز الأمامي للسرير... ألا تجرب يا حبيبي؟ اللعبة ناجحة... ويمكن للحبيب المقيد بالحب والحرير، أن يتحرك فتزداد الربطة اشتداداً على القدمين واليدين... الحرير يصبح في شدة الفولاذ أو يكاد... لكن، لا بأس، اللعبة ممكنة... طريفة وجميلة... يمكن رفع الرأس إلى حد معلوم، والتصرف بالوجه... إنها لعبة التمنع والممانعة مجسدة بالقيد والرغبة معاً... هذه الساحرة خلقت الرغبة فعلا وقيدتْها فعلا... وفعلا هذا جوهر اللعبة وحلاوتها... ولعل المتعة تمتد إلى أكثر... تشتد الرغبة والمقاومة حتى تصل حد الفوران، فتثور الفتوة والولْديه، حيث ينبغي أن تثور، فيتقطع الحرير إرباً إرباً... لكن يبدو أن اللعبة تتطلب ما هو أكثر... تتطلب التزام وضع المستسلم... وضع استسلام تام كامل... رباط الحرير يمر على الصدر... يُشد إلى هيكل السرير... لعبة تزداد طرافة، والأنامل الساحرة المخدّرة تعبث بمواطن الارتخاء من تجويف الأذنين إلى صفحة القدمين... متعة لا تخلو من ألم خفيف لذيذ، لمن تكمن فيه مواطن حساسة مرهفة خفيفة... واللعبة طريفة بغير عنف... ووضْعُ المستسلم يجلب راحة ومتعة كافية، لمن لم يعرف لعبة مثلها من قبل... والساحرة تكشف

وتكتشف في كل لحظة موطناً وحساسية كامنة مجهولة... هل تكتمل اللعبة بلف الحرير... عصابة حرير على الجبهة أيضاً تشد بدورها إلى هيكل السرير؟ هكذا تتسمّرُ النظرة والمواجهة لسقف الغرفة... يكتمل وضع المستسلم التام، وأنامل الخدر والمتعة تجوب مواقع الكيان والأربطة، بحس لا يرى، كأنه الظل في الظل أو سري نسيم مداعب، لا يراها في وضعها تتحرك وتجوب، تتفقد ما يزيد أوج اللعبة أوْجاً... تتحركُ في بسطة وانشراح محسوسين لا يراهما حوله في وضع المستسلم المرتبط المشدود... ولم تبدأ اللعبة بعد، لم يبدأ أوجها بعد... الساحرة وحدها تعرف متى يبدأ كل شيء ومتى ينتهي... وحدها تعرف كيف تزرع اللهفة والشوق، ووحدها تحدد موعد الجني والحصاد... ولا يستبقْ أحد شيئاً... التمتع والتطلع ووضع استسلام للعبة حاذقة محذوقة...

يحس بها تطوف به مرتبطاً مربوطاً على السرير، هفيف بسطتها وانشراح محسوس لا يرى... لعبة بسيطة جدّا... مغرية جدّاً وفي أوج الحلاوة والسحر...

تظل تتحرك حول المشهد المغري، تجوب المواقع المرهقة، مرسلة خدرها الرقيق المقلق إلى أعماق الكيان... تتنقل بمهارة وحذق... حقّاً هذه الصبية اللعوب أصلح ما يكون سجاناً لمن يسوقه حسن الطالع إلى حبسها ولعبتها... لعبتها التي بدأت بعقوبة كاملة، وبدت طريفة بالغة المتعة، توشك أن تبلغ أوجها بوضع الاستسلام الكامل... يا حبيبي جربْ أن تتمرد... ولماذا يتمرد امرؤ على استسلام ممتع لذيذ؟! يا حبيبي جرّب أن تتحرر مادام هذا من سر اللعبة وسحرها... ليكن إذن... ولكن التحرر باللطف يبدو متعذراً، لا شيء في الكيان المشدود بأربطة الحب والحرير اللطيف الرقيق يستجيب... لا الأطراف ولا الجذع ولا الرأس، إلا ما يكون من استجابة مقيدة ميتة مكتومة، ومع كل محاولة للتحرر يشتد قبض الحرير على ما هو ملتف به... والرأس أثقل تحت شد

العصابة على الجبهة... لا يا حبيبتي، لا يبدو الخلاص ممكناً إلا أن الإرادة لا تستسلم... ويتعذر على من هو الولْد أن يطلب المساعدة أو ينشد الخلاص من لعبة... امرأة... لا بأس، وضع المستسلم هذا أضمن وأريح من كل مقاومة ومن كل محاولة للتحزر... لتمض اللعبة إلى نهايتها... ولكن يا حبيبي، يا صاحب ليلي ونهاري، اللعبة ذاتها، جوهرها وأوجها يتطلب ذلك... يتطلب جهد التحرر، محاولة التحرر من الأربطة... تلك هي غاية المتعة والأوج... المتعة لمن؟

الولْد في وضع المستسلم ذاك، يحاول أن يتحرك وعويشة تراقب اللعبة عن قرب بملامح لا يراها منها، وإنما يحس بها دون أن يستطيع وصفها، إلاّ أن تنحنى على وجهه، تنظر أو تحدق، وإلا أن تسكن بالقرب منه حتى يستطيع تبين ملامحها... ربما يجب أن تواجهه ملتصقة بالسقف لو أمكن، حتى يستطيع التعرف على دلالة ما بها... ليكن، إنها بلا شك تراقب جميل ما صنعت... كأنها لا تصدق نجاح اللعبة وأنها تحذق الربط إلى هذا الحد... واللعب إلى هذا الحد... وماذا بعد؟ لعله يتساءل في وضعه أكثر مما تتساءل هي... ينتظر المزيد من مفاجآتها... تحمل إليه كأساً مترعة وهو في وضع المستسلم يشده الحب والحرير... يتبرم قليلاً بما تفعل رغم أنّه يحاول أن يفرج شفتيه ليبتلع السائل... لا يستطيع أن يوسع لأي شيء بسهولة أو هي لا تجهد، ولكن لطف حركتها لا يكفي... يتبرم، لأنه يتألم ألماً غير ممتع ولا مريح... يتحرك بجهد حقيقي ليتحرر... لا يريد أن يظهر عليه مظهر عجز... واللعبة لعبة على كل حال، ولعل ذلك لم يكن ليخفى على صاحبه الليلة واللعبة... لكنها لا تبدو عابئة بتبرم الولْد، كأنه لم يحسن التعبير بملامحه أو كأنها لا تتصور ذلك منه... وهو على كل الحال لن يظهر عجزاً... وطفقت عويشة تدفع إلى شفتيه بمحتوى الكأس... بدأ يرفض بتأفف شفتيه وحركة فكيه المحدودة... برفض متأففاً وينفخ الشراب

رَذاذاً ثقيلا إلى كل جهة وفي وجهها... لكنها تستمر بملامح يراها الآن بلا وصف ولا دلالة... يشهق بالسائل... تتغير نظرته وملامح وجهه، يخالطه الضيق الشديد... أبعدتْ عنه الكأس وهو يسعل مما شرق به... وبسرعة خاطفة تداركته بمخدة وضعتها على وجهه وطفقتْ تضغط عليها بكلتا يديها... بكل ثقلها... ثم ارتقَتْها بهدوء، وقَعدتْ عليها مفرجة رجليها متمسكة بيديها بحوافي السرير بكل شدة، وظلتْ بكامل ثقلها تضغط، ورأسه يترنح تحتها... كامل كيانه يتماخض توتراً وهياجاً، كبركان هادر مكتوم تحت ثقلها... لم يكن لها أن تتصور هذه القوة البركانية توشك أن تقذف بها إلى السقف، تضاعف من ثقلها على المخدة بمزيد الخوف والارتعاب.. لم يكن لها أن تتصور هذه القوة الهائلة في كيان بشر مقيد مشدود بأكثر من رباط، وبثقل حقد لا تعادله الجبال؟ قوة هائلة مكتومة مشدودة، توشك أن تقذف بها إلى السقف... لولا تمسكها الشديد بأطراف السرير... لولا شدة الرباط والوثاق... لولا انعدام إحساسها بكل شيء حولها، إلا ما كان من سدم الحقد المغتلي الدفين... وتظل متمسكة مستمرة في ثقلها وشدها... رغم أن الكيان الثائر تحتها قد استكان في وضع المستكين المستسلم حقاً صدقاً... والى الأبد.. وقد ارتخى بهموده رباط الحرير في أكثر من موضع... واستطال معه الزمان، وفعْل قبضتها على حافتي السرير يلتحم حتى العظام...

ظلت على وضعها، رغم انجلاء الموقف بتمامه عن هدوء شامل كامل... لم تزد على أن خففت من ضغطها لقعدتها على المخدة، مطلقة سراح قبضتيها تنتزعهما انتزاعاً من تداخلهما الشديد بقضبان المعدن الصلب... متصلبة... متصببة عرقاً وإجهاداً، اختلط له شعر رأسها، ملتصقاً بكل وجهها في مشهد غريب ينسَبُ لمجذوبة أو مجنونة في أوج انفعالها... وظلت على ذلك ساعات متوالية... حتى فُتحتْ عليها الغرفة بعنف... ساكنة في وضع اللعبة الذي

خلقته... تعتلي وسادة الحرير والحب والموت... متصلبة، جامدة، غائبة... سحبوها من وضعها... قَتَلَتْ وقتلتنا معها... قتلتنا عليها يا أوليداتي... أختكم عويشة ضاعت... وضيعت كل شيء يا أوليداتي...

كم كان مغفلا عزيز عندما ظن بها المظان، ما أسهل أن ينقل ذلك إلى الشخش، ولكن كيف يتوارى من نظرات الرجل المعاتبة المؤاخذة على تلك الشكوك في امرأة من من طينة خارج طينة البشر، في حبها، وفي انتقامها، وحقدها، كيف يتوارى عن نفسه قبل أن يتوارى عن الشخش، خجلا من أفكاره المتسابقة في حق امرأة هي عويشة... وكيف له أن يعرف ويفهم روابط الحب والحرير والموت؟

في طريقه إلى الشخش في سجنه، كان عزيز قد أوصى جماعة لخُوت، بالعناية بالمسعودي المفجوع... فعويشة الآن منهم، وهي أمر يهمهم حقاً... لعلها بالفعل قتلتْهم جميعاً وقتلتْ نفسها، كما قتلتْ الولْد... كما قال والدها... وأكثر من ذلك... ربما تكون قد أحيتْهم... هناك أكثر من طريقة للموت وللحياة معاً... لن يفهم كما لم يفهم أبداً... الشخش وقد زفت إلى جدران سجنه عروسه، يمكن أن يعرف ويفهم... هناك أكثر من معنى للحب والموت والحياة... ربما!

10

في لهجة هادئة أكدت له حورية، أنّه أخيراً أصبح واضحاً؛ ولا أحسن من ذلك في رجل ولعشرة زوجية محترمة... تكرر ذلك في مرارة لا تخفى لهجتها... أخيراً أصبح واضحاً جداً كما تقول، أو أنها رغم كل شيء، لم يكن لها لتفهمه بوضوح قبل الآن!

لم تخف عليه عصبيتها رغم ما تبذله من جهد لإخفاء انفعالها، لم يتعمد إيذاءها بشيء فيما يعتقد... لكنه قصد أن يشعرها بأن له أهلاً... أسرة... زوجة غيرها... وأبناء... تماماً كما أن لها رضى وجميلة ومن تشاء... لم يكن أبداً لينكر عليها أن تذكر أحداً ممن تريد... أتنسى؟ ألم يسائلها أكثر من مرة عن أسرتها، وضرورة ربط الاتصال بها؟ كان ذلك منذ بداية تعارفهما... منذ اللقاءات الأولى... كانت مُصِرّة على أنها طوتْ صفحة الأسرة بصفة نهائية... هو بدوره باح لها بمثل ذلك تقريباً... مع الفارق... مع الفارق... فارق أملاه الواقع وقبله كل منهما: أسرته قريبة منه، محكومة به ومحكوم بها، مع أنه أيضاً طوى تلك الصفحة وبدأ معها من جديد صفحة جديدة... أهم شيء أنهما

معاً، بدآ من جديد رغم الفارق... تجاوزا كل فارق.. تعاقدا وتعاهدا ووفّى كل من جانبه إذن ما الذي طرأ حتى تشتد حساسيتها لكلامه، للفظة عابرة منه يذكر فيها أسرته؟ وما الذي طرأ حتى يدرج على لسانه اسم سليمة؟ وقبل ذلك مرات كثيرة، أصبح يورد ما يفيد حضور الصور القديمة إلى ذهنه... شلة الأنس القديمة... والأولاد... وكل المفتقد القديم من مجالس درب السلطان؟! أتكون بحاجة إلى جهد جهيد لفك شفرة ذلك كله؟

لم يكن راغباً في النقاش، وليس جريمة أن يعاوده الحنين إلى طريقه القديمة، طريق عشيرته، رفقته، ودربه... وهل ينسى إلى هذا الحدّ؟ طريقه القديم مهما يتوارى، يبدو أنه لا ينعدم... يحس بذلك الآن، وقبل الآن... الطريق مستقيم طويل لا يخلو من حفر ونتوءات... نسيم البحر على اليمين، وأضواء عين السبع عن اليسار تقترب، تخترق السيارة خطها المستقيم، وتفوح رائحة كبريت مشبعة بعبير أعشاب البحر ورذاذه... الطريق يظلم ويضيء باتجاه الصخور السوداء.. حديث استجابة الجسد والروح يكرره رقيبة ويعيد... كأنه يجيب ضمناً على ما لم يُرد أن يجيب عنه صراحة... شعوره باحتضار العلاقة بينه وبين رفيقيه... لقد اختار وانتهى الأمر... دعوة رفيقَيْه له لا تجد الصدى، أي صدى في نفسه، لذلك تفادى أن يسمع منها شيئاً مباشراً... لا فائدة... يعرف ويعرفان... لا فائدة... والأهم الأفيد اقتناص فرصة بحضورهما... لحظة هناء... أتكون آخر ما بينهم؟ ليكن ما يكون... يعرفان ويعرف كما تعرف حورية... الطريق يتغير... بل تغير والشعور ووجه الحياة، لابد مما ليس منه بد لولا أن الأمر باختياره، يعرفون عنه منه ذلك.

يكرر رقيبة حديث الروح والجسد... نداء الجسد كما كان الحاج يقول، أيذكر؟ كل ذلك لا يثير حمية أحد للكلام... أزيز السيارة وصفير ارتطام النسيم البحري بزجاجها وبالصفيح كل ما يسمع... أنفاس الجماعة وحدها

داخل السيارة، تكون متقاربة، أما الرؤوس والخواطر، فقد تكون جزراً معزولة متباعدة محصن بعضها عن بعض... تساءلت حورية تخترق الصمت في استنكار مفتعل، إن كان مفعول السهرة معكوس في أمزجتهم المريضة؟ يلوي رقيبة مقود السيارة باتجاه طريق مديونة، يسير فيه بمحاذاة الدرب متمهلا يثقله انقباض، كما لم يثقله من قبل، وهو يدلف يعود برفيقيه، بعد سهرة من معتاد حياتهم... عادته أن يرجع بهما وهو أشد شوقاً إلى استئناف لقاء، وتجديد وصلة... يعود بهما اليوم ثقيل المزاح، يجول في الدرب من ملتقى أزقته في طريق مديونة... ثم يتوقف، يودع رفيقيه، يظل برهة يتابعهما...

تلمسه حورية برفق منبهة إلى شروده وإلى أن يتحرك... ليتابعهما... يظل يتابعهما بخواطره... لو أرادا... لو كان ذلك ممكناً... لعاشا معه في داره ومسكنه الجديد... لو أمكن، لو كان ذلك ممكناً من قبلهما على الأقل، لما فارقهما لحظة... لو... لو... ماذا يفيد التمنّي مع المنع والمانع؟

يتعالى من داخله صوت غير مسموع، مما سنّه وحورية دستوراً لا يقبل الخرق ولا الخدش... نعم للرفقة، أية رفقة، إذا كانت أنساً ومرحاً وبهجة... نعم لعيادي، نعم للحاج، ألف نعم لهما، وألف مرحباً مع الأنس لا مع الابتئاس، لا للندم والحسرة، ألف لا، وللكدر والغم... واليك الحياة... فرحة، بهجة... إليك كل شيء جديد... من جديد... يا عمي رقيبة لك أن تلد نفسك من جديد... لك ألا تقبل إلا من يقدر على أن يلد نفسه من جديد... إليك الحياة... إليك... صعد بسيارته مستقيماً إلى ملتقى الحزام الكبير، وعرّج يميناً لينحرف منحدراً باتجاه مسكنه، مستمرئاً حركة الانسياب الذاتي لسيارته مع انحدار الطريق المستقيم، وخلوه في مثل هذا الوقت... إلا أنه ما يكاد يحاذي وجهته حيث يقصد، حتى يضغط مضاعفاً سرعته... ما أطال النوم عمراً ولا... تدرك حورية قصده من ذلك، وهو يتجه بهما صوب الكورنيش، عين الذياب،

فمازال في الليل رمق يعتصر، مازال في زمن الأنس قطرة ترتجي... لا شيء مع جديد حياة يحتكر أو يدخر، لا لبداية يوم أو نهايته... دستورها المحفوظ لا يتسع، لا ليشرح أو يستفهم... إليك الحياة... الحياة لا تؤجل، وما يزال في الليلة رمق، وبداية اليومَ الباكر لم تكد تشي بإيماءة بعد لساهر أو مقصر... لم تومئ بعد... وما قصر في الأعمار طول السهر...!

يعود أحمد رقيبة إلى نفسه، يعود من خواطره وصور ذكرياته الغابرة حلوة طرية... مريرة فاجعة... يعود إلى نفسه وما حوله، بدون أية رغبة في النقاش... لم يكن راغباً في أي نوع مهما كان... أو في مزيد منه على الأقل، فما مرّ إلى الآن يكفي لتنغيص كل ذرة فيه لدهر مقبل... هكذا إذن يكدر المزاج على أشد ما يكون ذلك...

كان يحس بغاية التعب والانهيار. تدعي أنه أخيراً أصبح واضحاً معها ومع نفسه، وتقصد بذلك ما تقصد، ليكن، إنها زوجته... زوجته بمثل ما الأخرى زوجته... سليمة! من ينكر... دستورهما نفسه لم يكن لينكر... ورضى... رضى هذا، الابن، بمثل ما عزيز وسميرة لديه... وجميلة... جميلة تبقى مكمن السر وكيان الوفاء المتحرك لديها، بمثل ما يكون عيادي والحاج لديه أو... قديدير... أو غيرهم لديه... وإذا كان قد اختار أن يعيش معها كما تريد ويريد، كما يريدان معاً، فقد اختارها حوريته، لحبه وهنائه وراحته، كما اختارت منه ذلك... وماذا في كل هذا ما يثير إلى هذا الحد المزعج؟!

جامدة حورية لا تريم في موقفها، تستمع إلى ما يقول وما لم يقل... وحدها تدرك حدود ما تسمع وترى، وحدها القادرة على ذلك... وحدها تقارن مستنكرة أن يأتي منه مثل هذا الوضوح الآن... والآن فقط، بعد كل ما مر من سنوات... وضوح مثل هذا، كان ينكره عليها في بداية علاقتهما، عندما كانت ترى الفارق قائماً بينهما، والواقع عاجزاً عن جمعهما كما يريد

وتريد... كان يستنكر منها مواجهة ما ترى رافضاً كل تفسير... لم يكن يزيد إذ ذاك على أن يقول إنه لن يحيا إلا بها ومعها، لا يطلبها لشيء ولن... وهو الذي يتحمل من جانبه كل شيء ويتعهد بكل شيء... هاك الآن شفرة جديدة ساطعة لاهبة، إنه الآن فقط، يحن إلى درب السلطان، عبيره، ناسه، وعشرته... فقط، لا غير!

11

بدت الجيارة خالية ساحة ومقهى، في وقت يقارب العصر... من المعتاد أن ترتكن منذ الآن بعض عربات البياعين في زوايا الساحة تهيئاً لنشاط المساء... وأن يغلي فضاء المقْهى بأصوات المتعاركين على وقع الدومينو والضّاما والورق... عصر الأحد معهود تتلكأ في ضجته ظلال الشحاذين، وتتمطى قامة العسلي على طول فرعها بارتياح من وفرة الشغل... لقاءات عديدة لزبائن من الجنسين... زبائن غالباً ما تأخذهم راحة الصباح من تعب الليل، ليدبوا بعدها، يرقبون ما تبقى من زمن اليوم... عصر الأحد معهود معتاد... تخلق الكثير من معتاده بفعل طارئ المبارتين المتابعتين لفريقي الرخاء والسداد «زردة كبيرة» أو «زردة وكبيرة» كما تتمطى بها شفتا القشاش ولسانه المعروف، وهو يفضل أن يتمتع بصوت المذيع عن قرب، ومن داخل دكان المعلم حمو الجزار، الذي كان بدوره مرحِّباً، بقدر ما كانت ملامح القشاش مشرقة ضاحكة، ومزاجه رائقاً ولسانه... لسانه بالذات أكثر مجاملة عما هو في العادة... مجاملته كالقدح والهجاء، وضحكته ليست إلا رعداً مصفقاً لقصف لسانه ولسعه... مع ذلك بدا مجاملا على طريقته.

ـ باسم الله...

وانحنى القشاش يلج دكان المعلم حمو من المنفذ السفلي، تحت المصطبة... ولسان المعلم حمو يرحّب، ويده تهش بالمنشة الريشية على المذياع العتيق، ينفض عنه الغبار، ويضبط رؤوس أزراره المنفلتة... زَرْدَة حقيقية، مادامت الفرقتان غير متعارضتين وجهاً لوجه... زردة تهيئ لزرْدة متتالية... إذا عادت كل منهما بانتصار ليجتمعا في النهاية بمواجهة مثيرة فيما بينهما... وفرحة الرخاويين على حساب السّداديين أو العكس، إذا عادت إحداهما بالهزيمة... أما – والعياذ باللهـ إذا خسرتا معاً، كل في معترك وعادتا معاً بالهزيمة... كارثة تكون، والقلوب واجفة لذلك، تدفع صورته عن الخاطر... أعوذ بالله من ممكن إذا حصل...

كل شيء ممكن مع »الجلدة الكلبة« كما يكرر المعلم حمو، وكأنّه بذلك ينقص من مفعول حماسته للموضوع.

ـ الجلدة الكلبة، ما عندها دين!

كان كمن ينطق حكمه من غابر الزمان، بعين ثاقبة وعقل خبير ضليع.

ـ الجلدة... واللعب اللعب، أبابا...

كان التجاوب واضحاً بين الرجلين، رغم اختلاف الرأي والولاء، تجمعهما الحرقة على متابعة المبارتين ومنذ البداية... بل من لحظات ما قبل البداية... مهما يكن، ومن حسن الحظ الكبير أن الفرقتين معاً غير متواجهتين... قلما يحدث ذلك بينهما، وإذا حدث فليكن بهما منتصرتين، وليكن نهاية تعادل... الله على فرحة... إذا كملت...

على عتبة الدكان تلتف بضعة من زبائن المعلم حمو وجيرته، بعضهم يتكئ على حافة المصطبة المرتفعة، إلى ما يزيد عن منتصف القامة، وبعضهم الآخر في

انتظار الوليمة، يعلقون ويبررون توقعاتهم لما سيجري... كلهم علم... كلهم حماسة... كلهم ماهرون في الحديث عما يجب من لعب...

في مقهى الجيارة، حيث خلت المقاعد الخارجية من شاغليها المعتادين، وجد النادل فرصة لإعادة الترتيب والتنظيف... في انتظار أن يتسمَّر بدوره في الداخل جنب المذياع، مردداً في سره ما تمناه واقترحه مراراً جهاراً دون جدوى: تلفاز! يتغير المشهد حقّاً لو جهز المقْهى بتلفاز، سيصبح عصرياً بحق. مزدهراً بحق، وأيما ازدهار، حتّى في مثل هذه المناسبة بل في مثلها بالذات! صحيح ما يقوله الخاطر المعترض من أن التلفاز يجلب كل من هبّ ودبّ، والخوف الأكبر من الإساءة إلى جمهور لا يقصد الجيارة لتعذر التفرج على شيء في التلفاز، بل للتفرج على الرقع الحية المتحركة والمعارك الحامية الوطيس... الجيارة بذاتها، بناسها ملعب وأي ملعب، ساحة حروب ونزال... لم تلفاز ولمن؟

تستمر خواطر النادل بين المدّ الجزْر، تحرك همّتَه، ويحفزه توقع متعة الوليمة الرياضية بعد قليل، يرفع من حرارتها صوت المذيع المتوتر ولسانه الذلق... ويهمهم «يا رب... تربح... يا رب...» كان رخَاوياً... ويستدرك أمنيته بأنْ تنتصرا معاً إذا أمكن... يا رب... يا رب... تنتصر الفرقتان معاً، يهتز درب السلطان في زفة واحدة يزف فرحته لفرحته... تهتز المدينة كلها تزف أفراحاً لأفراح... يا رب... يا رب...

تستمر خواطر الرجل، تسابق حميته للمتوقع المأمول... والحرقة أن الظروف لا تسمح بمتابعة الجلدة على أرض الملعب، في وليمة كهذه تجري خارج الدار البيضاء... آه على أرض الملعب، تتابع المباراة لا جالساً في منصة مظللة، ولا على مقعد تحت الشمس... بل في الشمس... واقفاً... للشمس تحت الشمس... لا شيء أحلى من الحي في كل شيء... واقفاً... رجلا إلى رجل... جنب رِجْل... جنب خط الملعب... تتابع الحركات والأصوات

بحركات وأصوات، تشتم عرق اللاعبين، تلتقط أنفاسهم اللاهثة، وتتسمع رجْع الركض والقذف من أقدامهم داخل الجوفِ منك، في أعماقك... حرقة تقُلل من لهيبها صورة المحظوظين، من الذين يسافرون مع فريق درب السلطان، يهتفون ويزمرون فرحاً وتشجيعاً، ويتمتعون قبل ذلك وبعده بالسفرة والفرجة... ينعمون بالانتصار على أرض الملعب... ولحظات التحضير قبل القذفة الأولى... الله... الله... الله، تربح يا رب... يا رب...

في دكان المعلم حمو، راق الحديث بين المعلم والقشاش... بعيداً مؤقتاً عن »الزرْدة الكروية« ومكائد الجلدة الكلبة... حديث الراديو والتلفاز، عرّج على حديث السينما وأمجاد قاعة الباهية والشاوية، وفتوحات حلقات كراج علال حيث السينما بدون سينما... هناك في القاعة سينما بصورة متحركة صامتة أو ناطقة، وهنا في الحلقة سينما ناطقة بدون صور... ومهارة السارد تُلهب خيال المتحلق المتفرج، حتى ليرى رأي العين ويلمس لمس اليد، ملء السمع والحس ألَم الجرح، مذاق الموت، لوعة الأسى... لدى المتحاربين الأبطال ويحيا بكامل كيانه في زمن الأمجاد... أمجاد كانت للمغامرة الحقيقية والفرجة والمتعة البالغة، قبل أن يهجم الصوت المسجل والصورة واللون... ثم الهدْم والبناء، فتضيع معالم الفرجة الحقيقية الصميمية، وتجد نفسك مع من؟ مع الدراري... والرجال الدراري أيضاً... مع أولاد »الكواكب« أي والله...! يضحك المعلم حمو ملء جوفه ويكرر تسميته للجيل كما يراه ويضحكه أو يضحك به، تلك الضحكة الجاهزة التي لا تبحث عن تعلة تجلجل موجاتها القوية القصيرة... يسميهم وليدات اليوم، ويسميهم بأولاد الكواكب، ومنهم ذووه وغيرهم... جيل الكواكب منهم أولاده وأحفاده... الكل بلا استثناء، أولاد هذه القاعة والقاعات المماثلة المنبثة في درب السلطان على أنقاض ذكره: قاعة الشاوية والباهية، وساحة حلقات السارد في كراج علال؛ زمان اليوم، زمان الكواكب

وأولاد الكواكب... واللوالب... والقوالب!

أي والله أولاد زمان اليوم... كلهم بدون استثناء نساء ورجالا، والنساء قبل الرجال ومعهم، سيان... ما الفرق؟

أي والله، ويضحك الرجلان ملء جوفيهما بعمق عميق وصفاء متبادل، يضرب كل منهما كفّه بكف صاحبه... تضحك لضحكهما المنطلق شلة من وما أمام الدكان وحوله. يكرر القتاش عبارة المعلم حمو مقهقهاً بعينين مغرورقتين، وبتؤدة كاملة، مضيفاً إليها من عنده وبتلوين من لسانه وحركة من هيكله المتراكم في قعدته... ينظر حوله متهيئاً لما يقول مرتسمة عليه معالم ضحكة مختزنة على طرف أسنانه لتجلجل عند اللزوم... يكرر قول صاحبه منغماً... الكواكب واللوالب والقوالب والحوالب؟

يكررها ويعيد أكثر من مرة بحركات وأصوات وإشارات... ثم يعلّق على ذلك من ذاته، رامياً بنظرته إلى جماعة خارج الدكان، كأنه يشركهم في العبرة، أو يستفزهم بما يخرجهم مؤقتاً من هم المباراة المنتظرة... يضحكهم في اعتزاز وتنشيط...

ـ الحوالب يا سيدي، هاك النستلي، هاك النيدو، وهاك الدانون والدعنون. بالقانون وبلا قانون... وسِرْ...

12

بونا آدم... بونا آدم... بونا...

تتناغم في الحركة والعزيمة، خطوات الهبطي مع نبرات صوته في إيقاع عسكري منتظم، يسمعه وحده، ويردد صداه... تمضي به الخطوات قوية منتظمة يردفها ترديده المتناغم بونا... هه... آدم هه... هه... هه... تمضي الخطوات ضاغطة متطاولة... ثم لا تلبث أن تهن على غير عادتها، وهي تعبر أرجاء درب السلطان، وكأنها تكتشف الموات غير العادي، غياب الضجة المعتادة والحركة، تجمد الحياة في هذا الوقت... موات شامل كامل... موات، تفتقد فيها شغب الأطفال المزعجين، وتحديق عيون الفضول التي لا يصدها عريه الكامل، ولا يكفيها نصف عريه، لا شيء يقف بها دون التحديق الحاد المختلس، تقتحم به شفافية رداء البلاستيك الشامل، تخترق به اللحم والعظم، مدققة في تفاصيل كيان مفصّل، كما لو أنها هي بذاتها خلائق بلا أجسام، أو كأنها لم تر أجساماً آدمية من قبل... وكل ذلك متوج في العادة بالتعوذ والتفل ذات اليمين وذات الشمال، تحوطاً من شر ما خلق! ونظرات النسوة، تلك المشارط الدقيقة الرقيقة

التي تفرق المفاصل مدققة في لحمتها وصمغها، وتنشر للعيان نسغ العظام... تلك المشارط الحاذقة التي ألفتها تقاطيعه بغَور ما تخز، وحَرَّ ما تلسع...

موات لا يؤنس همّة، ولا يغذي عزيمة، تصبح معه الخطوات المعهودة والإيقاع وترديد الصدى، مجرد مسح على الأديم بصفحة قدم متثاقلة مجرورة. الكون غير الكون، والدنيا أخرى، والألوان مستعصية بلا طعم! ماذا! كأن الخطوات أخطأت قصدها، أو كأن النهج غيّر أبنيته وترابه وفقد ناسه؛ كأن النهار غاب والليل اندفن والساعة لا تقف ولا تدور، والرأس غير الرأس والقدمين غير القدمين..!

هه... هه... بونا... آدم... هه... آدم...

لا يبقى من صدى الصوت إلا همهمة ميتة في حنجرة غائرة جافة، ولا يبقى من همة الذات كلها سوى نأمة خافتة تتردد بغير حس ولا صدى، على أوتار متراخية ملتوية على ذاتها... يبدو الهبطي مصدوماً مما حوله، مفجوعاً، فاغراً فاه متدلي الأطراف... لا شيء مما ألفه في خطواته، يراه... لا شيء مما ألفه في جولاته يتبدى له اليوم، لا الألوان تنصاع، ولا الأصوات تتجاذب، ولا العراك أو الخصام، لا شيء يشبه شيئاً مما ألف، وحاله حال الرجل الهبطي.

لن ترى نهاية اليوم في تمام حالها المألوف... هي نهاية الكون إن كان عقل الهبطي يتصور من نهاية، أو هي نهاية عقله إن كان لعقله بداية... أيكون الرجل أخطأ الطريق والخطو والترديد؟ محتمل وإن لم يحدث أبداً... وغير ممكن لأن القدمين اللتين تقودانه على الدوام هما هما القدمان... وقد كانتا إلى لحظة متجاوبتين مع إيقاعه في عزيمة معهودة معدودة.

الجيارة خاوية، ساحة الجيارة نفسها تبدو على أطرافها المحدودة قفراً فسيحاً مترامي الأطراف... تبدو خلاء لا تقع العين الكليلة فيه على وشي من

حياة! الجيارة همد فيها النبض، وخلت من كل أثر لمخلوق، عدا الكراسي والطاولات الفارغة، والرقع المهجورة! أي عقل يفهم ويعرف؟ والهبطي مشدوهٌ مما حوله، كأنه يتفرس في كون غريب عجيب لم يخلق له ولا من أجله... أبداً... أبداً... في عُقر دكان ما، أو على بابه، تبدو بضعة رؤوس آدمية متقاربة متلامسة أو تكاد تكون متداخلة، حول نقطة في الوسط، كأنما أدركها سحر مدينة النحاس، فجمدها مفعوله على ما كانت عليه من حركة قبله، فظلت كما هي في وضعها بلا حركة أو حراك، كأنما كانت حركتها المجمدة على ما هي عليه، متجهة أصلا نحو التناطح والاشتباك، فتوقف بها سحر المفعول ومفعول السحر، عند لقطة التوجه والتطاول تلك!

موات، لا يملك معه الرجل المفجوع المشدوه، الهبطي الضائع في غير عالمه المعهود المعدود، إلا أن يجر صفحة القدم متثاقلة على أديم الأرض جرّاً بطيئاً مثقلا، ويسحب همهمة الصوت إلى الداخل عاجزة عن أن ترتقي... تتردد في وهن تكاد به تستكين، أو تسلم إلى منفذ سهل... موات فقد اللون والوزن والجذب، ولا شيء مما في الهبطي يلتئم مع ما فيه أو ما حوله... هو أيضاً مؤهل ليدرك موات ما حوله بانعدام الحركة حوله... هو أيضاً فيما يبدو مؤهل ليحس بحركة قدميه والصوت والعزيمة... كل ذلك منه، له شأن بمن حوله يرى ويتابع بمن يحدق ويحملق... بمن يخز ويلسع بالظفر وباللسان... هو أيضاً فيما يبدو، مؤهل في هذه اللحظة، ليحس بفراغ ما حوله، بغياب ألوانه وأصواته وحركته وبألسنته وعيون... آه من غيابها... حلو عذابها، عيون الجيارة... ألسنة الجيارة... ألوان الجيارة...

13

لا أشهى منظراً، ولا أحلى مظهراً من سكون هذه الخلائق إلى نفسها، وخلوها إلى طمأنينتها... كأنما أدركها الهدى بعد الضلال، والرشد بعد الغي، والرحمة بعد الغيظ والغضب والصراع... كأنما نودي للصلاة من يوم سعيد، فاستجابت في راحة من وقتها وسعيها النفوس مؤمنة... كل النفوس، فلا مسرع ولا نافر ولا مغذّ، لا رائح ولا ناشر ولا كسول... سكون الرحمة من رحيم قدير... معجزة خالق في خلق... طوبى لمن يكتب له أجرها، أو جزء أجرها من لدن عليم خبير، في هذا السكون المخّيم، ترى العين أفضل رؤية والقلب؛ لا يلتبس وجه بآخر، ولا ملمح بغيره... في ملكوت الصمت والهدوء، يمكن أن يلقي القلب ضالته ولا يضل...

خطوات التبعي في هدوئها المعتاد، وضميره اليقظ الحي ونظره، كله أبصار وأسماع، يلتقط الإشارات والأمارات والدلالات على محيا ضبيته. يسيرٌ عليه الآن في هذا السكون، ما صعب وتعذر في الضجة الرّحمة والاختلاط... يسيرٌ عليه الآن، ما صعب من قبل...

يخطو التبعي متوثباً محفوزاً بما يرى في يومه السعيد، يترجى أن يكون ذلك بشرى بتحقق أمله المنشود، أو بداية الطريق لتحقق ما ظل يحلم به ويتوهمه، منذ استأذن في السعي وراءه والهجرة إليه، دفء حنو هو منْه وإليه، يدفئ كهولته وما تبقى من عمره... الحلم قريب... يقرب الآن... يقرب، وما يراه رأي العين حوله في هذه اللحظة، يوشك أن يفصح بألف لسان عن أن الأمل المنشود ممكن... قاب قوسين أو أدنى، إن لم يكن قد تحقق بالفعل، وما عليه إلا أن يرى جيداً في صفاء ما حوله، وخلوه من التباس واختلاس... هذه القوة التي سكنت بالخلائق إلى طمأنينتها، هي نفسها القوة التي تكشف ملامح منشودة، بلا التباس ولا اقتباس... كان يسعى طرباً في هدوء ما حوله وسكونه، خفيفاً في أعماقه، مفتح العين والضمير، راضياً، ولولا بقية من ثبات وحياء، لقفز كما يقفز الصبيان، ورقص كما يرقصون أو يتراقصون، ولهتف كمن به بعض مس هاتفاً: وجدتها... وجدتها... وجدتها: القوة الخفية التي سكنت بالخلائق إلى نفوسها، وأوت بها مطمئنة إلى بيوتها، في وقت كدح معهود كهذا وفي لحظة دأب كهذه... به حافز ليرفع عقيرته فيمن يمكن أن يسمع، أو ليسجلها شهادة في لحظة لا يرى فيها حوله من يردد الصدى ليقول: إنها، هذه القوة الخفية، مهما كانت طبيعتها، وهو يدرك طبيعتها الآن، ما هي إلا إشارة له ولمن يفهم، بأنها معادل القوة المطلوبة لينكشف له المراد ويبلغ المقصود، تشفيه الطريق أو تشقيه، ولكن مطلوبه يتراءى مبشراً وراء ما يزرع في الكون نبت السكون والطمأنينة والهدوء... تشفيه أو تشقيه ولكنها المعادل لما يريد ويبتغي...

كان التبعي يرى نفسه في غير ما عهد؛ الطريق والدرب بكامل أزقته لفته السكينة، وارتدى حلة صفاء، لا هرج، لا فضول؛ لا سباب ولا سفاه، كأنها الفاضلة مدينة وكوناً ورهبانية! أية أمارة أبلغ، وأية إشارة أدل! لو قضى أضعاف حياته في جهود، وأضاف إليها جهود سلف صالح وخلف فالح، لما

حقق ذلك عشر ما يراه ويحسه... حتى السعاة المتسولين بأدرانهم ومراقيعهم، اختفى منهم كل أثر... وكل ما يخدش الكرامة ويمس الحياء... كله ذاب... وذاب أيضاً سعي المحسنين والعاملين الساعين بالخير لفظاً وفعلاً وذكراً ودعوة لاعتبار... لحظة لا تُضاهي، بقدرة لا تباهي، اختفى بها كل شيء، بل آب كل شيء إلى رشده... المتنافسون المتطاحنون إلى طمأنينة نفوس... المتسولون إلى قناعة... المتسخون إلى طهر ونظافة... المشردون إلى رحمة وظل... فيم إذن ولم إذن إحسان وصدقة وتبرع؟ كأنه لم يفهم سر الأمارة ولغة الإشارة، عندما يطيش به الصواب إلى اختيار حول غياب فاعل الخير والإحسان من حركة هذه اللحظة، إن كانت مقبولة، في غياب مشرد ومتسول ودرن منها؟ فيم إذن، ولم إذن إحسان وخير وتطوع إن غابت الحاجة إليه والحافز عليه؟ لحظة شاملة، قوة كاملة تلم الخلق والكون إلى ما يجب أن يلم إليه... تلك هي المعادل المبتغى منه، لمنبوذه ومطلوبه...

وترجّى التبعي بحرقة المبتهل أن يكون ما أدركه قد حصل فعلا وتحقق... وإن لم يكن، فعلى الأقل، أنه إشارة صادقة، على أن حصوله ليس بعيد المنال، ولا متعذراً كل التعذر، وما هي إلا بداية الطريق... طريق هادئ مكين، دافئ بحنان، تعتدل في عمقه وأنحائه أنوار الملامح المنشودة لصبية بريئة النظرات والصبا، وجلال امرأة...

وجد التبعي في الفضاء الجديد الهادئ، طمأنينة السير والدعاء، كأنما خلق له ومن أجله، لم يسبق له أن شكا من زحمة السابق وضجته، ولا أدرك مقدار ما كان يشوش عليه من رعوية، والآن يدرك ذلك... صدقوا، بضدها تتميز الأشياء، وكان في السابق يرى في سيدي السيد ولد السيد، ما يرافقه ويحيط به من هدوء، حتى وهو في الضجة، وكان يرى الضجة تخرس، والحركة تجمد لحضوره، فلا يملك إلا إكباراً وإجلالاً... وعندما يجيل النظر فيما حوله الآن،

ويعود إلى نفسه، يجد الهدوء الشامل في ذاته ومع وقع خطواته حيثما وطئ، فيه وحوله، وحيثما التفت، فلا يملك إلا أن يستحي من جهله وتسرعه ولهفته. لكل شيء أوان، يحدث فيه وله، وفي كل شيء حكمة تدرك، ووراء كل غشاوة نور...

يحس الهبطي في سعيه اليوم، في هذه اللحظة، كأنه يخلق من جديد بإدراك جديد، لهفته على مطلوبه أصبحت برداً وحرقته سلاماً...

سار التبعي بتؤدة أكثر مما اعتاد في سيره، في سره يحدث نفسه بأنه نسي أو كاد أن العجلة من الشيطان، وتساءل مستنكراً كيف قبل أن يسرع في سعيه، ويزاحم في الضجة والاختلاط؛ ثم يطمع بأن يرى ويدرك ملامح الصبية... لعلها رأته ولم تعرفه... طبعاً لم تعرفه ولن تعرفه في حال لهفته وسرعته، وهو لن يدرك ويعرف... حتى سؤاله الذي لم يكن أحد يسمعه جيداً في الضجة والاختلاط، كان يحس به محبوساً، راجعاً إلى داخله، أكثر مما هو مندفع لفظاً إلى الخارج...

يسير التبعي ممتلئ الشعور بأنه أخيراً اقترب أو أوشك، وأنه وجد أخيراً أن يلتفت ويفحص ما به وحوله بروية، لا تشبه بها زحمة، يسمع كل نداء فصيح لا تخالطه ضجة أو غصة وخفوت... هي فرصة العزيز الحكيم لمَجْلى صبيته... وهي فرصته لانتباه مركز إلى طريق الناس، بعد أن أخلوا له الطريق. من حقهم أن يخلطوا في النّظيف الهادئ أيضاً، لهم أن ينعموا بسكينة افتقدوها وهدوء، لهم أحلى من ذلك ما داموا قد تركوا لمثله الفرصة لينظر أوساخ البشر في طريقهم... أوساخ... فعلا يتبين أوساخ الطريق بوضوح، وهي علامة على ما بعده من نقاء، وصفو أديم سماء وفضاء، يجلو عن قريب ملامح المنشود.

هكذا وجد الفرصة فعلا ليسير مطمئناً محدقاً بقوة فيما حوله، فينحني بعد حين على ألوان وقطع وأشكال وبقع مما يؤذي العين والخطو في الطريق...

سلة قمامة منكفئة، صفائح مرمية، علب كرتونية، مسامير، أعقاب سجاير، خشبيات الكبريت المنطفئ على دقتها وكثرتها في طريقه، وجد الفرصة أخيراً ليراها ويلتقطها واحدة بعد الأخرى... ليجمع منها ومن غيرها مما تصل إليه عينه ويده، ينظف منها الطريق للسالكين، والفضاء للرائين... لابد من صفاء ونقاء... معجزة كريم رحيم... يوم أحد عظيم... يوم إلهي عظيم، ووقت عصر كريم نعيم أسعد... كأنه يوم بلا منكر ولا خطيئة في حياة البشر، كل شيء ساكن هادئ... كل شيء متحفز مهيأ بهدوء وصفاء، وهو التبعي الذي كان يسعى بضمير الحي اليقظان، يتخيل عديد الرذائل والمشاكل التي تحصل كل طرفة عين في أصغر بقعة من عالم الإنسان، وفي أدق جارحه من جوارحه، هو الذي يجد مشقة الرؤية في الزحام، وتعذر السمع في الضجيج... قربت بحكمة حكيم عليم... يسير في طريقه الواضح، حتى الخلائق الصغيرة، وجدت فرصتها لإثارة انتباهه والاستئثار بجهده: سرب النمل الدقيق الرقيق، كأنه جيل تفرخ للحظته يسعى بأمر ربه... دقيقاً رفيقاً في حمرة خفيفة تكاد تشفُّ عما تحتها، دؤوباً يسعى في مسراه ما بين شقين على جدار أبيض...

توقف التبعي لحظة يتأمل معتبراً متعظاً، ثم التفت وسعى حواليه باحثاً منقباً، يلتقط من هنا وهناك، وعاد بفتات طعام وحبات قوت يرتبه على حافة الشقين، مقدراً أن جزءاً من رزق هذه الخلائق الصغيرة الدؤوب أتى على يديه وبسعيه، كيف كان غافلا عن مثل هذا، وكأن تحقيق مراده في صبية يلتقيها، يروي كل ظامئ ويطعم كل جائع ويكسو كل عارٍ؟ كأن هذه المخلوقات الدقيقة لا تستحق أن تكون طلباً منشوداً، يساعد ويعان على بلوغ مطلبه ومنشوده في الطعام على الأقل... ألا تكون بعض هذه الخلائق الدقيقة باحثة بدورها عن قريب أو قريبة، أخ أو أخت أو ولد أو والد؟ فلنساعدها على الطعام، ما دمنا لا ندرك من لغتها معنى...

وتمنى التبعي في لحظة ارتقاء وابتهاج، لو علم لغة النمل والنحل والطير... وما ذلك على الله بعزيز... تمنى لو عرف ذلك، لخدم هذه الخلائق كما لم يخدم أحد أحداً، وكما لم يخدم أحد نفسه! وكرر التبعي في سره وجهره أن الخير بالخير، وعسى أن يأتي على يد الغير من ينتظره هو أيضاً من فرح الرؤية وغبطة القلب باللقاء، وردد الحمد والشكر لخالقه الكريم، على المنة الكبرى التي يسرت له ما فعل، ممتناً للقدرة الإلهية العظمى، ولبني جنسه أيضاً من الناس الخاطئين والساعين مثله في الخطإ، أن تركوا له هذه السانحة من الزمان، للاهتمام بما لم يجد من قبل وقتاً ولا قلباً للالتفات إليه والاهتمام به، من أمور صغيرة، مفيدة تهم الإنسان، وتهم أخوات الإنسان وجيرته وشركائه في أرض الخالق وكونه... الكل من تراب، وإلى التراب يعود... إلى أصله... والكل إخوة في التراب وبه!

وجرب الرجل في لحظة اغتباطه وبهجته هذه، أن يجد شيئاً يهتم به حوله، أو يرى فيما يرى، ما يكون له إشارة أو علامة على قرب مطلوب: نملة ضالة، أو كسرة خبز مهدورة الكرامة، أو بشراً مستضعفاً في الأرض... جرب أن يغتنم فرصة الهدوء الشامل، فرصة تقربه من مراده ومطلبه المنشود...

14

دكان المعلم حمو خلية مزدحمة في الداخل والخارج، ولكن هامدة، في وضع المتوحش المنتظر، لو رآه بمرآة رجل كالهبطي، وهو مشدوه في يومه ولحظته مفجوع متراخ، لفكر إن كانت فيه بقية لفكر، أنه فعلا أمام مدينة النحاس المسحورة، حركة الدكان في داخله مجمدة لبضعة أفراد من صفوة المعلم حمو، قعد بهم شيء لا يقاوم، جلبهم من ضجة الجيارة وصخبها إلى داخل الدكان، وأقعدهم وقعد بهم مجمداً منهم حركة الأطراف واللسان. المعلم حمو وحده يطلق بين الحين والآخر كلمة في داخله لا يسمعها أحد، أو يسمعها من يسمع ولا يجيب أو يبدي حركة، كأنه يخشى الخروج عن ميثاق الصمْت والهدوء، أو يؤدي ثمنه غالياً يكون انتهاراً غير رفيق من المعلم حمو ولسانه، أو طرداً نهائياً له من امتياز الدخول...

ولو أن رجلا كالتبعي في يوم كهذا شمله بغبطة الخاطر وابتهاج الناظر، رأى ما عليه حال الدكان وأشاعه، لما زاد عن إكبار الإشارة، وتأويل الأمارة، بما يعلي من قدر المناسبة، إلى أن تكون له نوراً هادياً على ما هو فيه، وما هو سائر إليه...

أمام دكان المعلم حمو على عتبته، تماست رؤوس وجنب، محتمل بعضهم لبعض في غير تأفف ولا تأنف، كأن الرحمة نسيج لحمة بينهم، والتوادد والمؤاخاة... داخل الدكان كخارج الدكان، لا أحد ينصرف عن شيء وحيد يلم الجميع، يأخذ بهم، آخذاً كل شيء منهم وإليهم...

على مقربة من دكان المعلم حمو، وفي غفلة منه ومن كل الشلة المشدودة الانتباه والأسماع والرؤوس إلى المذياع، تتابع ركض المتبارين في المعترك البعيد في يوم أحد ثمين سمين، شبت معركة حامية لم تثر منهم التفاتاً... هرٌّ متجول، وجد ضالته في عظم فخد طري حازه، وسار به إلى ركن غير قصي، مطمئناً إلى هدوء غير مفهوم ولا معلوم في الزمان والمكان... وراح يعرق عظمه ذاك في أمن وأمان... هدوء وأمان لم يكونا تامين كاملين فيما يبدو، فسرعان ما ارتسم أمامه بعنف هيكل كلب ضخم شارد أجوف، كأنما انشقت عنه الأرض، يحاصره ويصادر متعته ووحدته وأمنه... معركة غير ظالمة، مبررة بإرث عريق من عداء بني كلب وبني هرّ... مبررة غير ظالمة ولا متكافئة من شأنها ألا تنتهي إلا بمنتصر، يكشر هذا ويهر مبيناً عن مخالب نظيفة جارحة حادة، يكش ذاك، ويهرنن كاشفاً بكامل القوة عن أنياب مهندة لامعة قاطعة... حقد لحقد، وعداء لعداء، من الإرث الدفين لبني قطط وبني كلاب، في مواجهة أزلية... وفي سانحة من هدوء قوم وسكون، تتيح المكاشفة، ولا تبيح مناورة أو مداورة.

يستبين الهر بثاقب رأيه أبعاد المعركة كما تعلمها من سلفه الصالح... ويتبين بنظر أثقب، ثغرة في الحصار الذي يشمله به عدوه العتيد، فينفلت منها لا يلوي على شيء... غير مصدق بأنه نجا بجلده الناعم سليماً... حكمة في الهرّ والفرّ، كحكمة بني آدم في النزال والاعتزال... وقالوا: »الهروب رجْله«.

ينفرد الكلب الشارد بالغنيمة، يعرقها على مهل منبطحاً على بطنه مستعملا قائمتيه الأماميتين، يساعد بهما فكيه على القبض الفعال بالعظم

الفخم المتلاعب، يعرقه الفكان جزءاً بقوة تواجهها مقاومة، يتحرك لها رأس الكلب يميناً وشمالا، صعوداً وهبوطاً، جذباً لمزيد من ضغط وقوة، يبدو الكلب بها جد مستلذ بما يمتصّ ويزدرد... طرِباً بصوت أنيابه تقارع فخامة العظم وتنال منه الشيء بعض الشيء... غنيمة هنيئة تستحق معركتها تلك، ويستحق أكثر: أن يستمتع بها المنتصر في أمن وأمان في يوم ساكن هانئ هادئ... لا أحلى ولا أجمل وأسعد من غنيمة فخمة طرية بعد معركة انتصار، وفي يوم تغار من هدوئه وسكونه الأيام... كأنه لم يخلق إلا لمتعة ومزيد...

15

تنتصب قامة الهبطي بغطائه الكاشف وعريه الكاسي، ينتصب بردائه البلاستيكي الشفاف يتأمل ما حوله باستغراب وما أمامه بحضوره الثقيل، وهمته المتهالكة في يوم يبدو بدوره متعباً متهالكاً على نحو غير مألوف... ينتصب كالمهمل لخطوه المعهود، في يوم لا متسمع فيه لخطو ولا متتبع لصوت أو محدق في مشهد... ينتصب هكذا أمام الكلب المنشغل بمهام لحظته المستعجلة المستغرقة لكل جهد، وهي الأهل لكل جهد وجد واهتمام وانشغال بال...

فعلا يستوقف المشهد همة الرجل... يقترب أكثر ما يمكن، دون أن يأبه به الكلب... يلمحه فعلا، لكنه منصرف منشغل يعرق ويقرض... ثم هو فيما يبدو، لا يريد أن يأبه بأحد أو شيء في هذه اللحظة الهانئة؛ فكيف لشخص كالهبطي؟ شخص منتصب على اثنين لا يربطه به إرث عداء، وفي يوم هانئ سعيد حقاً...

يظل الهبطي يتابع حركات الكلب في نشاطه المتزن، يتركز بصره في تذبذب طرفي العظم بين فكي الكلب على إيقاع الضغط المسلط عليه... يتأمل

دقائق الحركة والإيقاع وصوت اختراق الأنياب لمناعة ما تعمل فيه... وما يلبث أن يقعي مقترباً من الكلب وبمواجهته، مقلداً كافة حركاته بيديه وشدقيه... يستمر الكلب في نشاطه بنفس الهمة والوتيرة، يرنو بين الحين والآخر إلى الهبطي، كأنه يزيد متعته بالفرجة على مخلوق من غير بني كلب، يقعي مثله ويعرق الفراغ...

يزداد قرب الهبطي وحركاته، فيتحفز الكلب ويصدر هنيناً خشناً منذراً... يصدر الهبطي مثل ذلك؛ يتبادلان الهنين الخشن والتحفز كأي أخوين لدودين من جلدة واحدة، في هيئة عداء يتصاعد ويستحكم، وتشتد معه حمية الكلب في عرق ما تبقى من عظمه الفخم... تنتقص المسافة بينهما... يتحرك الهبطي نحو الكلب على أربع... محدقاً مكشراً، وفي حركة خاطفة تومئ بهجوم حاسم من الهبطي، يرتبك لها الكلب؛ فتنفلت منه بقية العظم؛ بينما يقفز فوق عدوه المقعي، يتخطاه بعيداً، ينجو بجلده من خطر كاسح مجهول ضاعفت من هوله سرعة المفاجأة على غير عدة... يتوقف ملتفتاً يرمق المشهد بحسرة... ويظفر الهبطي بقطعة العظم، يضعها بين قواطعه، ويتجه بها وهو على أربع، نحو الكلب في شبه تكشيرة متوعدة متحدية... يستجيب الكلب للتهديد بتهديد مماثل بقدر ما يقترب منه الهبطي... ويتحرك في مكانه متوتر الذيل والأذنين... حتى تصبح حركته إدباراً متدرجاً... ثم اندحاراً واضحاً، وإن كان غير سريع... يظل الهبطي يتابعه ويصدر ما يصدر من أصوات كلبية متوعدة، يزيد من خشونتها وغموضها، موقع العظم بين فكيه... يستمر الكلب في استجابته المتقهقرة... يمر موكبهما بمواجهة دكان المعلم حمو، دون أن يأبه لذلك أحد... يظل الموكب في طريقه... الكلب منسحب يتلفت نحو غريمه بين الحين والآخر، حذراً مراقباً ما بينهما من مسافة، متلمظاً في حركة يحاول بها فيما يبدو، أن يستعيد متعته، تلك التي كانت ولم تعد... غُنماً كانت له

بعد عراك وانتصار، وغنيمة صارت لغيره، صادرها منه بقوة غير معروفة عدو مطارد غريب، في يوم أغرب، لا معروف ولا مفهوم...

مطاردة بدت هادئة بعيدة عن المألوف في المطاردات ذات العداوة والغنيمة... بل ربما كانت تبدو خالية لدى الطرفين المتعاديين المتطاردين من مشاعر الخطر، أو أنها تبدو طافحة بغيظ مكتوم، أو عدم ارتياح عميق مبرح، لا يباح بسره... كل ما هناك عدو يتحرك بغنيمة، وعدو ثان يتحرك خلفه بشغف وطمع في أن يسترد ما غُنم منه... هذا يتحرك بهدوء، والآخر بهدوء مماثل... كل منهما في انتظار ما يتمنى أن يحدث لصالحه من ثمار اللحظة الغريبة، غير المفهومة غير المعهودة...

بمواجهة سمسرة العسلي، الآوي في الداخل إلى حبك تفاصيل يومه، يرسم ما ينتظر لحظته الهادئة بعد فترة الخمود والركود من حركة وإقبال، غير محتار كثيراً فيما يمنع توافدهم في الوقت الموعود المعدود، من يوم الأحد هذا... ينحاز الكلب مقترباً من الجدار، حامياً به ظهره وقرب المصراع المنفتح... يبدو الكلب كمن وجد راحة يستكين إليها، غير عابئ بنظرة العسلي في الداخل، والتي تبدو غير منشغلة بما ترى على القرب منها، كما زاد الكلب اطمئناناً إلى وضعه فيما يبدو، أو كأنه استشعر الحماية بقرب بني آدم، يقبع ساكناً ينظر ولا يرى... حماية لن تكون إلا لصالحه، ضد مخلوق غريب لا يعرفه بنو آدم، كما عرفوا الكلب وعاشروه...

يمعن الكلب في حالة اطمئنانه، ويرفع إحدى قائمتيه الخلفيتين ويرسل على الحائط خيطاً متقطعاً منه بكامل الراحة والهدوء... يرفع الهبطي إحدى ركبتيه المقعيتين مقتدياً بحركة صاحبه وفعله، في مثل راحته وهدوئه... في يوم هادئ هنيئ...

16

تستمر رحلة التبعي، وضميره اليقظ في يومه السعيد، عيناه ويداه متضافرات على ما يعيب الطريق أو يشينه للسالكين... لا شيء كيوم هانئ سعيد، تتضح فيه الرؤية، لكون جميل وأناس آمنين في أنفسهم وعلى أنفس بعضهم، وخلائق الكون كلها تهيم وتدب في راحة وهدوء، لا من يطأ على مستضعف، ولا من يختطف رزق أحد مهما كان، ومن أي مصدر جاء...

انصرفت همة التبعي إلى دقائق الخالق ومستضعفيه من كائنات الطريق... لا يد له ولا سبيل على خلائق الفضاء والسماء، تلك الطيور الظريفة النحيفة التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً... كل ما له عليه سبيل هو ما يعترض طريق السالكين غيره، فلينظفه من كل ما يغشاه، وليخدم خلائقه، ولو أن كل فرد مثله، روّض النفس على ما يروضها عليه هو الآن ومنذ هذا اليوم السعيد، لما باتت نملة على ضيم، ولا جف لنحلة رحيق، ولا نط أبو هرّ فوق سطح بمتاع غيره، ولا تعرض أبو كلب لسعار...

يشعر التبعي أنه لأول مرة يفحص الأرض في طريقه وإلى جانبيه، كان قبل اليوم مشغولا عن ذاك كله، بتفرس الملامح والوجوه البشرية، بحثاً وتقصياً عن مطلوبه، محياه المشدود... الطريق إلى كل مطلوب يبدأ من الأرض والتراب، الأصل والمصير...

يفتح التبعي بصره وبصيرته لدقائق الخلق وهوامه، عله يجد فرصة المساعدة بشيء أو على شيء... الوضوح والصحو يغري، والرؤية قائمة بأقل جهد، بمجرد الانتباه والالتفاف...

فجأة يجد التبعي نفسه أمام المشهد... ينبت أمامه المشهد كأنما زرع بليل واستنبت من أجله، ابن آدم في هيئة ذي أربع على شاكلة كلب، وابن كلب على هيئة ابن آدم! مسخ غريب عجيب! مسخ حي يتحرك... وآية كبرى!

يستفيق وعي التابعي وضميره من صدمة ما يرى... يتوجه قرب المشهد في عمقه. أية علامة يرى في يوم كهذا... رؤية واضحة صافية؟ يتقدم نحو الكلبين... الآدميين، يتْفل ويلعن ويتوعد... ثم يستغفر ويحوقل... كل شيء واضح كل شيء يشير لمن يفهم ويدرك... ثم تنفر منه هجمة غير متوقعة تنقطع لها حبال المشهد من الاثنين معاً... ويسرعان معاً في اتجاه واحد وعلى أربع... مخلوقان متنافران متقاربان، ينظر كل منهما لغريمه في إيناس، ويبعثان نظرة استغراب باتجاه الرجل! يتابعهما الرجل لحظة بخطوه ووعيده ثم يثوب إلى نفسه.. وقد بدأت الساحة والأزقة تستقبل وافديها، تلفظهم أبواب الدور، وأفواه الدكاكين أسراباً أسراباً... تباعاً تباعاً... هكذا... فجأة يبدو العالم من جديد كما كان، كأنما مرت به لحظة سحر، جذبت عنه حركة البشر، لتنجاب فجأة تلفظ شيء... كل شيء يعود إلى أصله ومشهده المألوف..؟

لا يملك التبعي في دهشته لما يلمس ويرى، إلا أن يستغفر ويتعوذ، ويحث الخطى قبل أن تستغرقه حركة الزحمة... لا، لم يحث خطاه؟ مازال في اليوم

متسع، كان الزمان يولد من جديد، كأنه يبدأ يوماً جديداً من أيامه المعهودة... الفرق أنه يبدأه اليوم من ما بعد منتصفه، من ثلثه الأخير... الثلث الأخير من النهار... ثلث الزحمة والضجة، تعود كل الأشياء إلى تداخلها المعهود، يحس التبعي بأكتاف تدفع كتفيه، وأقدام تسابق خطوه، وأصوات تحول بينه وبين ما ينشد أن يسمع ويرى... يرفع نظرته نحو الأفق للفضاء والسماء، لابد من ملامح تؤنسه... ينظر في زحمة الخلق ومعالم سعيهم على وجوههم... لابد أن يرى محيا صبيته من بين هؤلاء أو أولئك... ووجاهة امرأة لها قوة... عليها حضور يحفها شيء من جلال... يحث خطاه وينحرف به عند أول مسجد يصادف..

17

خطت الرحمونية، تتبعها الصبية بشرى... كانت تتوقف حيناً بعد حين لمحادثة هذه أو ذاك... كلمات عابرة... قبل أن يستقيم بها الطريق نحو سوق الجمعة، الصبية تعرف المقصود من هذه الجولة الصباحية المألوف مع (أمها)... لذلك كانت تتوقف عند هذا الخضّار أو ذاك... تنتقي بنفسها ما تعرف أنه صالح... تُعلق بصوت مسموع على ما لا يعجبها، لكنها في الغالب مرتاحة لما تنجزه الصبية...

الباعة بدورهم يعرفون المقصود بمجرد ما تقف الرحمونية أو صبيتها، فيتحركون لخدمتها، واختيار ما يرونه مناسباً بين الحين والآخر، تصدر عن الخضار جملة استفسار مع ابتسامة عريضة للرحمونية... كيف الحال؟ وقد تكون الجملة تعليقاً على البضاعة الجيدة... بنت اليوم... طرية ممتازة... أحسن باذنجان... وطماطم الجنوب... ملوخيا الموسم، بداية الموسم...

الرحمونية في غير مزاجها المألوف... متجاهلة في الغالب مثيرات الحديث... أو مكتفية بإيماءة... الصبية بشرى، لعلمها بمزاج أمها الرحمونية،

تنوب عنها في الرد... رد تريد أن تصدّ به هجمات المحدث عن أمها... عليه أن ينتبه لما ينتقي... ولما تنتقي هي بالذات... يكثر الكلام، وأثناء ذلك، يضع ما يشاء من بضاعة كاسدة... لا... لا... الخضار الآخر أحسن...

كانت القفتان تمتلئان شيئاً فشيئاً، وهمة الصبية في ازدياد، ممتنعة حتى عن مساعدة الرحمونية لها في الحمل، نزلتا الدرجات نحو الحوانيت السفلية... مرّت الرحمونية بالسماك... وبالجزار... والفاكهاني... بالمزاج نفْسه على خلاف العادة، ثم نادت صبياً من الحمالين، يساعد بشرى، وَرتَبتْ على كتف الصبية، ووجهتُها نحو المنزل بمرافقة الحمال... بينما انصرفت هي باتجاه قيسارية الحفاري لإتمام جولتها.

أنعشتْها قليلا حركة الباعة المتراصين على الأرصفة، وعند مداخل القيسارية... روائح القماش الكبريتية تنبعث فواحة... وتراقص ألوانها الجذابة المنشورة بإغراء، وبجانب الشرابيل والمضمات... كون يفتح الشهية للحياة...

لا تملك الرحمونية نفسها، من أن تسأل عن القماش الجديد... اسمه وثمنه... مقارنة جودته بما تعرف... تفاوض في الثمن، والغالي يرخص لها... عليها فقط أن تختار وتقرر ما تشاء... تختار لنفْسها ولغيرها، فهي تعرف ما يصلح لبناتها... ما يرغبن فيه، وما يجب أن يعرفن حلاوة مشهده على أجسامهن... لكل ما يناسبها من بشرة سمراء أو شقراء... من نحيفة أو مكتنزة، والألوان في انسدالها على إحداهن وهي تخطر بين الأنظار تعرض ما لها وما عليها... ما لها أكثر... ثم ما عليها... معرضها القادم حدثاً يكون أكثر من سابقه، ما يزال بعيداً... على ألا تخسر فيه أكثر من واحدة على الأقل... بطلب زواج... لابأس...

معرض ما يزال بعيداً، ليكون جديداً في كل شيء... جدة تبدأ من الآن والأثواب تتجدد، وبعضها يفتقد بعد حين من ظهوره... فهي تختار للآن، ولما

بعده... جديدها يبدأ من الآن قبل أن يفتقد من الأسواق...

جمعت لفافات ما اختارت... دفعت ما أمكن من ثمن، وتركت الباقي على الحساب... لا بائع هنا يعترض أو يستفسر... تؤدي حالا أو مستقبلا... المهم أن تكون راضية، البائع لا يبحث عن أكثر من هذا، هي بمجرد أن تقف أمام دكان، يكون كل شيء لها، بمجرد إشارة... الغالي يرخص، والغائب يحضر.

تجولت عبر الأزقة الضيقة للقيسارية، توقفت عند عدة حوانيت للألبسة المخيطة والمطرزة، ولدى باعة الحرير، والعقدة والسفيفة... تحاسبهم على ما بذمتهم من بضاعتها... مما تنجزه البنات من شغل أيديهن في العادة وتتكلف الرحمونية بتصريفه، إن لم يصرفنه بأنفسهن أو مما لا ينفق في معرض أو عن طريق معارف...

اقتنت المرأة عدة قطع وأوصت بإحضار غيرها من أجلها، ساومت ما شاءت، واقتنت ما أمكن من لوازم أخرى للاشتغال اليومي لها ولبناتها، وأيضاً للاحتياط، دلفت إلى دكاكين الصاغة... هنا بريق الذهب والأحجار الكريمة، تشهق له الروح... تطير العقول من مكامنها... لا شيء يفوق فتنة القماش المنسدل إلا سحر المعدن النفيس، وهؤلاء السحرة المهرة الصاغة النقاشون ألسنتهم أمهر، وابتساماتهم ألطف... يقبع الواحد منهم في دكانة أضيق من أن يتحرك فيها، وتسع ثروة قارون... الغالي يرخص لها... والموضة الآن في الزواق وتسع ثروة قارون... الغالي يرخص لها... والموضة الآن في الزواق الرومي، وتبقى للنقش البلدي قيمته... طبعاً... الجديد... والبالي لا تفرط فيه...

تظهر للبائع أنها مجرد زائرة مستطلعة هذا اليوم، همها أن تعرف الجديد، تقارن لمجرد المعرفة، لا يبدو أنها مشترية... لا بأس، كل شيء تحت تصرفها، وهي أهل لكل شيء... كل تحت أمرها ورهن إشارتها، لا بأس... أقراط وخواتم

وغيرها... غيرها كثير... إذا ما كان الثمن مناسباً؟ طبعاً... طبعاً... كل شيء مناسب، ويجب أن يصبح كذلك... الرحمونية لا يعلو أمامها شيء ولا يغلى.

كانت المرأة ببدايتها الفاترة تفحص أشكال الحلي التي يقدمها البائع، وكأنها قد استفزته بما يكفي ليجعله يسابق نفسه في البحث عما يثير اهتمامها، وللكشف عن المثير في كل ما قد يبدو لها معهوداً أو عادياً.

ـ الرومي يا للا... الرومي والدق الجديد...

كان يغريها بطواقم، كأنّما كان يخفيها عن أنظار العموم، يسحبها من عمق خزانته الفولاذية الصغيرة المغروزة في الجدار خلفه...

ـ الرومي... والدق الرفيع...

فعلا، بدأت المرأة تفحص بمعالم استثارة، صحيح أنها لا تميل أصلا إلى الرومي، لكن إغراءه لا يقاوم... تنكر على الرجل كيف أنه لم يظهر لها مثل هذا من قبل... البارحة مثلا...

يستبق الرجل استفهامها... يا للا هذا ابن ساعته... وأصل من لحظته... لم تره عين بعد... ثم، ليس من حق كل أن يرى كل شيء، ويعرض عليه كل شيء...

مأخذها الوحيد على الدق الرومي أنه يغلى بشكله لا بوزنه... وقيمته تابعة للسوق والجدة... عكس الأصيل القديم... لكن مع ذلك، ما تراه جد مُغْرٍ وأكثر من جذاب... أقراط وخواتم دقيقة الصنع حقاً، نفيسة بأحجارها الكريمة... أحجار من شأنها أن تظهر واضحة جذابة في الأصابع بألوان زرقاء صلبة وصافية بيضاء مشعة، وملتهبة بلون حبات رمان... لابأس... لابأس...

يضع البائع جملة الحلي في علبها الفاخرة الدقيقة، ويناولها للمرأة في حركة تقرب، وبابتسامة وترحيب، يمكنها أن تأخذ ما تشاء، لتقرر ما تشاء على

روية من أمرها... تحاسبه على المتيسر حالاً وعلى المتبقي... والله يخلف... وييسر ويكمل بالخير.

تأخذ المرأة ما تأخذ... تأخذ طريقها، تغادر القيسارية بنفس مغتبطة هانئة.

18

استسلمت حورية ليد الصبي الناعمة وهي تمر على جبهتها في اتكاءتها المائلة نحوه على الكنبة، بالفعْل شعرت وكأنها تشكو من حرارة خفيفة لطفتْها حركة يد الصبي النّاعمة الباردة بعض الشيء... على الأقل بالقدر الذي يجعلها تحس بانتعاش على جبهتها... مراراً أغمضت حورية عينيها مستمرئة لحظتها، ومراراً فتحتهما على رضى، تتملى محياه بِابْتسامة منها ومنه... وهو ما يفتأ يمرر يده على جبهتها... كأن الآية عكستْ بينهما... عكست فعلا... هي التي كانت تتهيأ لملاطفته، تعده بها ليذهب إلى غرفة نومه... لم يغب عنها أن رقيبة يرمقهما بحياد ما، تكاد تحس حركة عينيه تدرج على محياهما... تقول له، أو ليفهم هو من الموقف أنها مثله... ألا يعترف بأنه طفل مهما يكبر؟! هي أيضاً كذلك على الأقل مع رضى...

استسلمت لليد الناعمة على جبهتها تثير فيها شعوراً خفيفاً بإحساس الحرارة وبالانتعاش. مرة بعض أخرى، تفتح عينيها وتغمضهما على محياه الصبي العطوف المبتسم، يحِسها بنعومة شاملة تزيدها ارتخاء وتبعث تنملا

خفيفاً في كيانها... بسمته... بسمته... طيف دافئ حنون منعش، يشعر برغبة متنامية في الخلود إلى تأملها بعينين يداعبهما ارتخاء كلحظة الإقبال على نوم هانئ يغالب، أو لحظة الخروج منه... بسمتُه متعة حلم يعاند الخاطر في أن يخرج عنها، يجاهد الخاطر لإطالتها، يستحيل بها الوجود حنواً دافقاً يسبح فيه الكيان مرتخياً يطفو بخفته... بسْمته... بسمته...

بسمتُه تضيء محيّاه بفيض إشراق... تتسع ابتسامته... من هو؟ تحسُّ إحساساً بعيداً متنائياً بصفحة كفه على جبهتها... يبتسم... من هي؟ وأين هي؟... أنامله تمر بلطف وابتسام على خديها... تخدش خدشاً خفيفاً لطيفاً على بشرة خدها... وابتسام... ثقل في أجفانها يمنع أن تعرف أو تتذكر... ثقل في الرأس والشفتين واللسان... وليس أشهى من إغماض وارتخاء ونوم... يضغط على جبهتها... ويمسك خديها بصفحتي كفيه يحرك ذات اليمين وذات الشمال... تسمع صوته كالناهر... هيا... هيا... كفى كسلا... يا كسولة... هيا... تعمل على أن تنظر فيه بقوة... إحساس منها يتقوى برغبة قوية في الإغماض والاستمرار في ارتخائها... هيا يا كسولة... هيّا... تفتح عينيها وتغلبها الرغبة في النعاس... يغلب عليها الارتخاء... والنعاس... تسمع صوته ناهراً مصفقاً بكفيه على صفحتي خديها... هيا... هيا... أفيقي... كفى يا كسولة... يبتسم ويحفزها لتستيقظ... يشجعها لتفتح عينيها وتدفع الكسل... هيا... هيا... تفتح عينيها بالسبابة والإبهام واحدة تلو الأخرى... تستجمع إرادتها، تغالب... يداه ما تزالان تصفقان بلطف على صفحتي خديها، ولسانه يشجعها على الاستيقاظ وابتسامة تنير وجهه... من هو؟ أين هي؟ هيا... هيا... نمت كثيراً... أفيقي... يبتسم لها ويحفز... قوة آمرة، ناعمة، وصفْق كفه على خدها رفيق تحس به بعيداً... آه، يراجعها الإدراك... بعض الإدراك والوعي... سقف المستشفى... جدرانه والطبيب الشاب الذي استقبلها ببشاشته في غرفة

العمليات... كان يشجعها... آه، وهو الآن أيضاً يشجعها... شاب رائق ريان، ولطف يفوق الوصف والشعور، محياه المشرق الذي استقبلها به هو الإشراق نفسه الآن... آه، تذكر ما سمعتْ منه، وما رأت من بشاشته، ومن أنها ستنام قليلا... قليلا... قليلا... وها هي ذي تفتح عينيها على محياه الباسم، تستفيق... هل انتهى أم سيبدأ؟ كل شيء على ما يرام... عملية بسيطة... طفل جميل كالملاك... ولد ذكر... أجمل ولد رآه في حياته... ابتسمت لابتسامة الطبيب الشاب المبشرة.... ولد ذكر أجمل... هيا... هيا... لتفق الآن... حفاوة الطبيب الشاب بها كأنه هو الوالد، أو كأنه لأول مرة ينجح في إشرافه على عملية... لا، هذا أقوى من ذلك... طبع فيه ولطف وجمال، عاد من جديد يدور حولها، محدقاً فيها، يلمس جنبها برفق ويحرك وجهها يميناً وشمالاً... ثم يوصي المساعدة بالعناية بها... يحييها وينصرف بلطفه وإشراقه...

ما كادت الممرضة تدفع بها العربة نحو الممر، حتى استقبلتها جميلة مبتسمة، مرحبة، منشرحة، تقبلها على الخدين... يا أختي عليه... زوين... زوين حتى تم الزين... تبارك الله عليه... وعلى سلامتكْ ومبروك عليك... زوين زوين، الصلاة على النبي عليه، ويخزي عين الشيطان... على سلامتك... ومبروك عليك... وعلينا كلنا...

استلمتْ جميلة العربة، تدفعها من يدي الممرضة... جميلا كان... فعلا جميل، وأكثر من جميل... أكثر من فرحة وبهجة... قبلته مرّرت أصابعها بلطف على بشرة خده الرقيقة الشفافة... وعينَيْه المتحركتين المغمضتين... ثم وضعته إلى جانبها على الفراش، وأحاطته بذراعيها... كانت تحتضنه من لفائفه التي لا تترك منه بارزاً غير الوجه الوديع الصغير، تنسدل بتردد على جبهته خصلات شعر حريري فاحم خفيف...

اقتربت منها جميلة، تربت على كتفها بحنان، وترنو إلى الوليد المطل على الكون بإشفاق، تسألها عن تسميته... ماذا تختار له من أسماء... قالت ذلك وطفقت تفك لفائق سرته في بهجة واستبشار، وتُري حورية مؤكدة لها أنه طفل ذكر..! ماذا تختار له من الأسماء؟

كانت حورية قد استرجعت كامل وعيها بما حولها... مرتاحة... سعيدة، تؤنسها ابتسامة الطبيب الشاب الذي لم يغب عنها إلا منذ لحظة... حضوره ولطفُه مقيم فيها ومعها، كأن الشخص ما يزال إلى جانبها... بسمته واللطف وميعة الشباب تحوطها، وتدفئ قلبها فرحة الوليد... ماذا تسميه؟

وأطلقتها حورية... هكذا ما بين بسمة وفرحة، أطلقتها في صخب صوت منها وإشراق: رضى... رضى! اسم على مسمى... على اسم طبيبها الشاب الودود... قالها لدى استقباله لها لأول مرة، وكأنّه يرى فيها تردداً أو تخوفاً... ألا تثق في الدكتور رضى؟! قالها في ابتسام وانشراح يتحدى مخاوفها أو ما يبدو له منها تردداً، وارتاحت له من أول لقاء... ارتاحت لبساطة حديثه وقربه، وهو يفيدها بأنها ستنام قليلاً... قليلاً... لم تدرك إن كان ذلك سؤالا أو أمراً أو رغبة أو وصفاً لأمر واقع... لطفه وابتسامته لم تكن لتترك لها فرصة اختيار أو تفكير... ثم تلوح لها ابتسامته ولطفه من جديد، يحفزها على طريقته المشرقة أن تستجمع قواها وتترك التكاسل....رضى اسم على مسمى، اسم يجمع كل ما تبتغي وتريد... وارتاحت.

تحيات وتهانئ التوكاني، تحملها جميلة بالورود والرياحين... وتهانئ العيسي وفرقته كاملة... وتحيات... قبلات من تعرف ومن لا تعرف من عالم السطيحة وحولها... فرحتها، وغمرة ما هي فيه من هناء، وفرحة الكل بها، أثار من عطفها على راعيتها جميلة... تحيات... تهاني... تحيات...

تعود إلى نفسها... تعود من خواطرها، تعود إلى رضى يحنو عليها ممرّراً يده على جبهتها... وأحمد رقيبة يراقب المشهد بقربهما، تعتذر عن حق لأنها أو شكت أن تغفو، نهضت مبتسمة وأنهضت رضى معها.

رنا إليها رقيبة وهي تساير رضى بإعجاب، وشبه اختيال، ثم وهي تضع يدها اليمنى على كتفه تحنو عليه بانحناءة خفيفة لم تعد بحاجة إليها، فالفتى يستقيم ويستطيل كأنما يسقى سرّاً خميرة نمو سحرية... بدا له شبحهما وهما يوليانه الظهر متجهين نحو الدرج، عاشقين متيمين كل منهما بالآخر...! وبدا الفتى مثل أمه جد مختال، وجد معجب بنفسه، وبرفيقته، يهمس إليها، وكأنه يبثها لوعته أو يطارحها تباريح الهوى عند أسفل الدرج... وبدا له الفتى كأنه غير مطيق فراقها، وهي تضع يدها على كتفه برفق وحنو زائد، كأنها تدفعه ليصعد وتشجعه ليفترق عنها... لم يكد يفْعل، وظل يمد يده خلفه، يجر معه أطراف يدها وهي تميل باتجاهه في شبه حركة استسلام لجذبه الخفيف... كالمخدرة ترقي وراءه، متخلفة عنه بدرجة، ممدودة الذراع نحو ذراعه، أطراف أصابعه بأطرافه...

رنا أحمد رقيبة يتابع المشهد بما يتأذى منه في داخله... بدتْ وهو يتابعها في متوسط الدرجات، فارغة يانعة بارعة، ينسدل في جلال وانسياب، شلال الحرير على قائم القوام... وفي نهاية الدرجات تقاربا، وهما منحرفان إلى الشمال نحو غرفة رضى، ويظل الفتى يتمسك بها حتى تؤويه الفراش تماماً... كما يزف عروسان... تماماً... قال لها ذلك أحمد رقيبة أكثر من مرة... قاله هازئاً... قاله لامزاً... قاله غاضباً، دون جدوى، وقاله بطريقة ما لا يتذكر طعمها ليلة زفافهما وهما يخلوان بنفسيهما في غرفتهما، بعد أن استعصى النوم أو مجرد الارتياح على رضى في غرفته... تلك الليلة، رغم أنه وحورية لم يكونا

مبتدئين ولا مراهقين، إلا أنها كانت ليلة زفاف حقيقي، بطعمه الممتع الذي لا يتكرر... كانت حورية كالعهد بها، بل أكثر من كل عَهْدٍ بها، ساحرة ماهرة فوق كل سحر ومهارة... كمْ تمنى أن تطول طقوس تلك الليلة الجميلة... زفته الأولى كانت... والأخيرة طبعاً... نظرت إليه ملياً شبه معبِّسة أحلى عبوس، تتقن ساعته، ثم افترَّتْ عن بسمة الضحى وإشراق شمس ربيعية في فضاء الغرفة... عاتبته في لطف وتودُّد عن بداية غيرته من نفسه، إذ لا أحد له مكانه رقيبتها في نفسها... لا أحد... لا أحد... أيكون غير متعجل بعد على احتضانها؟!

يقدِّر الآن، أنها أوتْ بِرضَى إلى فراشه... زفَّتْه إلى الفراش تاركة باب الغرفة مفتوحاً وراءها... تجلس جنبه على حافة السرير، تمسح على جبهته، ويمسح على يدها... تنحني عليه، ثم تقوم خارجة ترسم صورتها على المرآة، فتقف بمواجهته تتفقد زينتها... عينا الفتى نصف المغمضتين ترمقانها، لا تفارقان قوامها وانسدال الحرير... قبل أن تغادر، تلتفت إليه مبتسمة مرسلة باتجاهه قبلة في الهواء وابتسامة... تعرف دائماً أنه يرمق حركاتها... ومن أجل إتمام فرْحته لابد أن تتحرك أمامه، قبل أن تتلطف منصرفة... بشبه التفاتة وأكثر من شبه ابتسامة نحو السرير... وترتسم في ذهن رقيبة صورة السرير... آه ترتَسِم صورة أقدام مرسلة على حافة سرير خشبي بدون جنابيات ولا حواجز، يئن تحت زحام صبية تراصوا عليه بالعرض... تتدلى سيقانهم عليه... يستفيق أحدهم على إثر سقطته من علوِّ السرير... يتحرك تحت مسقط كيانه، هيكل ما يلبث أن يستكين... يفتح عينيه في الظلام، يغمضهما بصمت كامل مطبق وارتجاف، من كائنات الظلام التي لا يخشى غيرها، وأسعد أُمنياته ألا يفيق من نومه أبداً إلا على نور... يمد يديه يتلمس طريقه إلى مكانه... لا يعثر على وضع... تتحرك قدم ما، حركتها العشوائية، تصيب وجهه على أرنبة الأنف، يلمع لها برق خاطف يضيء رؤيته دون أن يرى شيئاً... يكاد يدوخ... يهوي،

يشم رائحة الألم في أنفه... يتذكرها جيداً رائحة الألم من ركلة على الأنف... صامتاً مطبق الصمت يتحرك في ظلامه، يضع إحدى كفيه أمام وجهه اتقاء غارة أخرى غير منظورة ولا معلومة الاتجاه... وباليد الثانية يتلمس مكانه... لا يجد وضعاً ولا مكاناً... فيرتمي على السرير ارتماء كيفما وعلى من وما اتفق...!

ـ سبحان الله!

تنبهه حورية من شروده ضاحكة مستلطفة... تسأل ساخرة بتحبب وتقرُّب: أين كانت رحلتُه... كيف وأين كانت؟ صحيح... غاب عن لحظته... لحظة شرود تعرفه فيه، قال إنه كان جد قريب... هنا... يتأمل مشهد حنوها على منْ تَحْنو عليه...

ـ مغيار!؟

وهل ينكر؟ لكنها غيرة لا تؤذي... غيرة تستفزها على الأقل، لتُفيض عليه باقي حنانها... ترنحت تضحك لاعترافه... طبعت على خده قبلة خفيفة ممازحة قائلة إنه الولد الكبير، وعليه أن يكون عاقلا..! وآية التعقل، أن يتصبَّر قليلا حتى تعود إليه بما يجب وكما يحب... قالت ذلك وانصرفت عنه باتّجاه المرافق الداخلية مؤقتاً...

يتنفس فضاء الدار، عبق الورد والزهر والعود القماري... يتناهى نفاذاً رفيقاً منعشاً في مزيجه كما تحكمه حورية... يتنفسه أحمد رقيبة بنهم... بنهم أكبر... بفضول، ينتظر مفاجأة من حورية... ساحرة... هي... حارسة ليله ونهاره... بنهم يتنفس، حتى ليكاد يسعل... يتيح لنفسه أن يسعل... يسعل... يسعل حتى ليصبح سعالا بمذاق اختناق... يسعل... ويسعل، يضيقه تكاثف الأنفاس، وضيق الصدر يضاعفهما وهن تام كامل شامل للأطراف والرأس والجذع... العينان المفتحتان بعشر مقدارهما ولا تكادان، تنبئان عن عودة

الحياة لجسد الصبي، الذي كان في عرف الميت المنتهي... صوت متنائي بعيد، وصورة هلامية لوجه وشفتين تتحركان بمشقة، أو بطء، وبنبرة تفاؤل وأمل، تنبئ أن الصبي حي... بدأ ينتعش المسكين... شعور ثقيل بكل شيء... يضغط الصدر يبعث أزيزاً في الأذنين والصدغين ومطارق حادة في الرأس ويقوى السعال... يسعل... يسعل الصبي، وملامح هلامية تتحرك من حوله منحنية حوله متداخلة في رؤيته...

ـ مسكين حفظه الله... كان مات... مات وانتهى...

كأن كل الكون بما له وما حوله يضغط على كيان الصبي الممدد، كأن كل الكون أصبح ملتفاً حوله في اهتمام واعتبار... كأن كل الثقل والضيق والسعال يعتمل في صدره يسعل ويظل يسعل... شعور بالعبء، وبنصب رحلة لا علم له بها ولا وصف، بلا متعة ولا ألم سوى الإحساس بالثقل من كل شيء وفي كل شيء... المسكين عادت به الروح، كان مات... مات... سبحان الله... مسكين رقيبته تلوت... سبحان الله..!

كأنه يولد من جديد أحمد رقيبة الصغير ينجو من الموت، كأنه يولد من جديد، بعمر جديد... باسم جديد، رقيبة اسم يحمله ويرافقه... ينجو أو يعود من موت بصدفة مقدرة... رحلة غيبوبة لا علم له بها، بلا مشقة ولا ألم... لا يذكر من بدايتها إلا الجمر الملتهب في الغرفة الضيقة يدفئ قاطنيها، لا يذكر إلا فرحته المعتادة، كفرحة إخوته بجمر النار الملتهب في الجمر الفاخر، يلتفون حولها وتدفئهم من قارس برد ومطر... جمر ملتهب أدفأه لون التهابه، كما أدفأته حرارته ومن معه في الغرفة الضيقة... غرف أشد ضيقاً في الصيف ولكنها تبدو فسيحة في القر، إذ يتجمعون متداخلين متدافئين، ويفيق وحده يسعل عائداً من رحلة موت صباحية، أودت بكافة أسرته إخوته ووالدته... بينما يفيق هو من حافة الموت، وحده تحيط به ملامح هلامية معتبرة بما حدث... رحلة

يعرف هولها ووصفها ممن افتقدوا أسرة بكاملها، قضت ليلتها حول موقد فحم ملتهب... مسكين... باقي حقه في الدنيا... مسكين... كأنهم يكررون على مسمعه حكاية ميلاده الغريب... خروجه إلى الدنيا بمشقة بالغة... مسكين... مسكين... هكذا يولد أكثر من مرة... هكذا تخطئه الحياة أكثر من مرة... هكذا يولد ويحيا باسم رقيبة المسكين... مسكين...

ـ يا حبيبي أفق!

تعيده حورية من رحلته البعيدة إلى حيث هو معها، ينشق عطر البخور... انْس نفسك... قم لتحيا وتعيش...

19

تعلقت أُنظار بامقال بالتبعي وهو يتجول بنظرته الغامضة على المنتشرين حول طاولات الجيارة... حول رقعات الدومينو والكارطا والضامة... علقت عيناه بالرجل، وشردت به خواطره... الرجل خارق في غموضه في بسطته وانشراحه وإشراقه، في استماتته وإصراره على جولته التليدة الأزلية، لا يمل ولا يكل... وتناءت أصوات الضجة المرتفعة حول المتنافسين المتعاركين في الساحة المحدودة... لتترك مكانها الضجة ما، لا يكاد يسمع من وقع خطوات التبعي الذي لا وقع له ولا حس... الرجل خارق... خارق... خارق في استماتته وجده، مهما كان منه، وأينما كنتَ منه... خارق في صمته وفحصه الدائم، غامض فيما يجري وراءه ويسعى إليه، إن كان لشيء يسعى حقاً... أم مجرد مخبول من نوعه؟

مشاعر بامقال حول التّبعي خليط متنافر كمشاعره من أي شيء لا يعرفه رغم قدم العهد به، أو يزداد به جهلا بقدر ما يتقادم العهد مشاعره نحو الرجل يطفو عليها منذ مدة... شبه اهتمام غير معهود... أيكون فعلا لاستماتة الرجل

في سعي مجهول أم لسمت تواضعه ومظهره؟ رجل كالهبطي يثير نفوراً وإشفاقاً واضحاً، أما هذا، فلا أكثر من أشباه أحاسيس تسير... شبه اهتمام... شبه... لذلك تشبثت نظرته بالرجل، وإن حاول ألا تلتقي بنظرة التبعي المتجولة الباحثة الفاحصة... وما كاد هذا يقتلع نفسه من المشهد مطلقاً همهماته وهمسه الذاتي الغامض، همسه الذي ينقله مسترسلا حاملا نظرات متطلعة إلى كل شيء، هامسة بدورها لمن يسمع ولمن لا يسمع على حد سواء، حتى انفلت بامقال وراءه دون وعي منه، ودون أن يلتفت أو يكلم أحداً، متابعاً خطو الرجل كالمشدود إليه برابط خفي... نفسها الخطوات... والاتجاه بتوقفاته وتعرجاته التي درجت عليها قدما التبعي في جولته الطويلة، في أرجاء المدينة الفسيحة، وفي التواءات الدرب وأزقته... الخطرات نفسها والخطوات... والاتجاه... والتزام وسط الطريق في الزحمة، كأنه ينشد أن يحتك بالأكتاف والملامح احتكاك مواجهة، تنبهه وتتنبه إليه...

سار المقال وراء التبعي عن بعد، يتابعه وهو يخطو كالمتفقد لرعية أو ممتلكات... يمر بكل دكان أو باب هامساً بسلامه ودعائه وبركاته كما يبدو من ملامحه، أو لعله مجرد فضول عقل غريب لا يفقد الدهشة من أي معهود مألوف... يلتقي في سيره بالمارة منبهاً لشيء أو مساعداً على شيء، ماسحاً على رأس أو مربتاً على كتف... لا يكل ولا يمل مما يلقى أو يسمع، مما له أو عليه... بعضهم ينخلع منه، وبعضهم يكتفي بنظرة محايدة تشيع مسيرة الرجل...

.بمواجهة سمسرة العسلي، يتوقف التبعي كعادته... يسرع العسلي ببعض ارتباك، ينهي موقفاً مع إحدى عميلاته، يدفع بها باتجاه الزنقة، وينفلت بفارغ قامته إلى داخل الدكان ملازماً ركناً خفياً، كفأر مرتعب يحتمي من غارة عدو مزعج... أي قدر يسوق إليه هذه المنغصات في أوج الشغل المجدي؟ يتعوذ العسلي في سره، وينكمش في ركنه، حاصراً بصره فيما أمامه...

يمسح التبعي بنظرته كل شيء حول دكان السمسرة، متمتعاً بما لا يعلمه غيره... مرة بعد أخرى... يحدق في الأرض حول موقع قدميه، ثم يعود يمسح بنظرته كل شيء مما يفصله عنها وحولها... يبدو الرجل كما لو استغرقته حال... يطيل وقوفه... أو يبدو كأن قطباً جاذباً في البقعة جمد حركته إلى حين... يطيل فحص المسافة باتجاه السمسرة، محدقاً إلى داخل الدكان كأنه يتصيد العسلي بالذات... يدور حول نفسه عدة مرات، قبل أن يأخذ طريقه مسترسلاً في همهماته وهمسه... يظل يلتفت نحو السمسرة مرة بعد أخرى، قبل أن يأخذ إيقاعه المعتاد، باعثاً نظره حوله في الفضاء... متفقداً كل ما يمر به...

يقتلع المقال نفسه، يخطو وراء الرجل.. يدفعه جذب لا يقاوم، في أن يقف بالضبط أو على وجه التقريب، حيث وقف التبعي، ويرصد ما يرصد... مثله تماماً... يحدق عند قدميه تحديقاً مثله تماماً، وفي مواقع نفسه والمواضع تماماً، حيث كان التبعي يبدو مجمداً جامداً...

يجوب بامقال بنظرته ما حول وداخل السمسرة، وما يفصله عنها من مسافة... تماماً كما رأى التبعي يفعل، يجب أن يرى ما كان التبعي يرى، ويرصد ما كان يرصد من هذه النقطة... لا يتبين شيئاً غير ما يتبينه النّاس... يرمي بنظرة إلى عمق الدكان... لا شيء... والعسلي نفسه غائب كأنّما ابتلعه الجدار، لا يكاد يظهر منه شيء في ركنه الخفي... يوشك المقال أن يدور حول نفسه، كما فعل التبعي، إلا أنه يتردد، الناس لن يقبلوا منه ذلك، ماذا يقولون عنه؟ ليس هو التبعي... يود أن يدور حور نفسه... يعي أنه لن يفعل، ويعود بنظرته عن عمق الدكان خائباً، ثم يخطو في أثر الرجل، تعمه الحيرة، وتحرقه حدة السؤال... ليعرف ما بذهن الرجل... يدفع أغلى ما عنده ليعرف... لو يعرف... عزيز في صبره الرجل، جبار في ضعفه واحتماله! ترى ماذا يجول بخاطره؟ لو يعرف ما يجول بذهن الرجل وسر خطواته ومبعث سعيه، لو يكون على مرمى السمع

لهمسه وهمهاته، إن كان لها حس وصوت، أو منبع صبره الذي لا ينضب... ألا يستحق تحرير مقال بل مقالات بشأنه... بخصوص ظاهرته...؟! مقال من قبيل تلك المقالات العتيدة المعتقة التي يجب أن تقرأها كل عين فاحصة، وتسمعها كل أذن واعية، وتستقر في كل قلب وضمير... ولكنها لا تنشر! ستنشر يوماً ما... حتماً حتماً.. ودائماً، مهما يكن، تظل تؤنس الخاطر وتغذي القلب... تؤرق... شمعة إن لم تدفئ الأطراف، إن لم تنر خبايا الزوايا والأركان، فهي على الأقل ترشد... تظل كمرشد وتدل على المعالم والملامح... أتكون المعالم ما يسعى وراءه التبعي؟.. ترى ماذا يجول بخاطر أبي الصبر، والاحتمال والاستماتة، جبّار السعي والصبر، ضعيف الكيان هذا..؟

مرة أخرى، يخطو وراء التبعي، والمسافة بينهما أضحت متباعدة، يحث الخطى في أثره، حتى يكاد يدركهُ... لم لا يستوقفه، يحدثه ويتحدث إليه... المسافة بينهما تقل... تقل وإن كان أحدهما على الأقل لا يشعر بها ولا بالآخر، فيما يبدو. هو نفسه لم يكن يشعر بوجود التبعي، أو كان يجهل ذلك في وقت ما... شعوره به إن كان، فقد كان هامساً جدّاً، شبيهاً بإدراك الغفلة أو التجاهل... أينقلب الدور الآن... ويجهل التبعي وجوده ومسافته، ولا يعبأ بخواطره... حول بامقال سي مولاي المقال..؟! لم لا يدركه حقاً، يستوقفه يحدثه، إن لم يفعل ذلك، فلن يعرف كيف يفعله... ولن يعرف شيئاً مما يريد أن يعرف... لو يقف موقف السمع لهمْس الرجل، لو يكون بموضع الفهم لما يسعى إليه، والرؤية لما يرصد حوله... يدفع أغلى ما عنده في سبيل ذلك... لن يعرف شيئاً عن الرجل... مهما أخبروه عنه أو نقلوا إليه... هو بامقال الخبر، بالخبر والنقل والتعليق، لابد أن يعرف مباشرة من المصدر نفسه، ويسمع بحسه الدقيق استجابة الرجل لما يراوده من أفكار... هو الذي لم يجد لحد الآن، وطيلة عقود طويلة، حساً دقيقاً صادقاً يلتقط فيض مشاعره وخواطره... ولا ظفر

بفاهم متفهم، نافذ للب فكرة وديباجة قوله ومقاله، يجب أن يعرف ويفهم بذاته بنفسه من منبع الخبر...

وخطا المقال بأسرع مما كان عليه، حتى أوشك أن يدرك صاحبه فعلا... ومد يده فعلا نحو كتف التبعي، أو كاد... حين اختفى الرجل فجأة بخطوة واحدة حاسمة... ابتلعته بوابة مسجد، كأنه نبت من جوف الأرض أو هبط من السماء... غاب فيه الرجل وكأنه ذاب في بوابة بحر هادر محيط..!

تسمَّر المقال مشدوهاً أمام البوابة التي فاجأته بوجودها... كأنما نبتت للحظة التبعي ومن أجله في الزمان والمكان، واستفَّتْ صاحبه... حدق حوله وفي كل شيء حول البوابة، وفيما يفصله عنها، حدق في حركة الناس المندفعة بعيداً وتلك المسحوبة نحو داخل المسجد... حدق في كل اتجاه حول قدميه، وفي المسافة الفاصلة كأنه يستحث الظرف أن يثمر فيه خواطر جديدة، يفهم بها التبعي، يحدس بها سعيه وسره، ينشد سبيلا لخواطر الرجل وضميره... ماذا يجول بذهن الرجل أمام كل بوابة وباب، ماذا يجول في سره أمام أي شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً... بأية من خواطره المرسلة وغير المرسلة، أرعب عملاقية العسلي الذي ما لبث أن تفاءر؟! آه، آه، من مشهد بوابة وكالة إخبارية كما يراها المقال ويتمناها... وكالة الإدريسية، وكالة إدريسية بالخط المضيء العريض الطويل... وكالة هائلة... وكالة درب السلطان الكبرى... هكذا مكتوب اسمها باللون العريض على اللوح الفسيح، أو بأضواء النيون الراقصة المتعددة أو الهادئة الثابتة وهو الأحسن؛ أضواء هادئة ثابتة تشع إشارة... الوطنية الكبرى... وكالة إخبارية مستقلة! هكذا أضواء هادية هادئة ثابتة ومتراقصة أو أحسن... وكالة درب السلطان الكبير، حقّاً يعشق كل شيء هادئ ثابت وهو الأحسن... وأمامه كل الوقت للخيار.

آه من المشهد كما يراه ويتمناه... ترى كيف يمكن أن يراه التبعي؟ ما تكون حركته أمام بوابته؟ كيف يراه الآخرون... الجيارة وغيرها... المهم كيف يراه هو رب القلم وأبو المقال؟

بوده لو يعرف همس التبعي إذ ذاك وهو يقف أمام هالة وكالته، وبوابتها؟ ويعتريه التجمد في موقع ثابت والدوران حول قدميه، كما فعل أمام دكان العسلي؟ يود أن يعرف حقاً ويدفع أغلى ما عنده ثمناً لذلك..! بماذا همس الرجل أمام سمسرة العسلي أو وكالة إعلامية كما يتمناها المقال... وكالة درب السلطان، أم خراب على أهل دارها الدار؟

الجيارة كيف تصبح وتمسي على مقربة من وكالة بّاها إدريس المقالات؟! كثير هم يستكثرون، يتعجبون ثم في النهاية يحجون لمباركته... كثيرٌ هُم... يمكن أن يساعدوا ويقبل منهم ذلك... المهام الكبرى، أحلام الرجال، تحتاج إلى رجال تحملها، وحمله يتسع للكثير... من يدري... من يعتمد عليه منهم؟

في موقفه وتشتت نظره وفكره، كان جامداً ما يزال في موضعه حيث غاب عنه التبعي... وعى أنه يوشك أن يدور حوله قدميه! أيشبه صاحبه إلى هذا الحد؟ رنا إلى ما حوله عله يستشف شيئاً أو يرصد غير معهود... الناس في تزاحمها وتسارعها إلى كل اتجاه، خطواتهم تتجاوزه دون اهتمام به أو انتباه له... أيشبه صاحبه حقّاً؟ لكنه على كل حال لا يرى إلا ما يراه الناس، أو على الأصح الدقيق... لا يرى غير ما كان يرى من زمان، ملء قلبه مقالاته... نصب عينيه الخبر والإخبار... مسعاه، حلمه وواقعه... حركة حيوية لقلم تحرير، قصاصات تتناسل من شقوق دقيقة كألسنة لا نهائية الخلق والطول... ضجيج محبب منظم... ورنات من كل جانب وصوب... دوخة جميلة... فتنة ممتعة لخلايا آدمية لا تعرف تعب الأجساد... وإشارة مضيئة بألوان راقصة بخط عريض مستعرض، على معنى ثابت لا يتجاوزه الخطو... لا يفوته القلب، لا يكتفي من تمليه الخاطر...

20

كان المعلم حمو أول من هتف محيِّيا حدسه الذي لا يخيب وخبرته... ترك كفه الميزان معلقة بما عليها من لحم، ويد الزبون مرتفعة إليه بالثمن، ونفذ من البويبة التحتية للمصطبة مهرولا نحو الجيارة، يشهد على صحة توقعه: ألم يقل لهم إن المخلوفي لابد عائد؟ كان يسعى محاولا أن يجري تثقله كتلة مترهلة تتأرجح زوائدها على إيقاع خطواته... لم يكن ليخطئ أبداً... قال لهم ذلك... قال لهم مراراً... وصل الجيارة وقال لهم ذلك... لبعضهم في الأذن مباشرة... ثم عاد أدراجه يهرول مرة أخرى، أقل خفة مما كان، كأن خاطراً ينازعه بأن ينازل في الجيارة قليلا متمتعاً بما أشاع من خبر، لكنه عاد ينفذ داخلاً من بويبته، يتدارك كفة الميزان ويد الزبون المعلقتين... وما كاد يفعل، حتى كانت غالبية رواد الجيارة قد لحقت به، وتحلقت حول مسطبة المعلم حمو، تستفْسر وتزيد... المخلوفي عائد... واحد قريبٌ من أهل الصالحة خضرة، هو الذي أكد ذلك... الصالحة زوجة المخلوفي بذاتها أُخبرت يقيناً قريبها ذاك، وهو لا يخفي شيئاً عن المعلم حمو... الخبر مؤكد، يؤكده المعلم حمو بالذات... ومن غير المعلم

حمو، يكون موضع سر... أو على الأقل، أهلا لمعرفة ما يتعلق بالمخلوفي؟!
المخلوفي الآن في طريقه إلى الدار... سيحل بها قريباً... قريباً جدّاً... الدار الآن، دار المخلوفي المعهودة، تدب فيها الحركة تهيئاً لاستقبال العائد وتاريخه العتيد العنيد... ابن الدرب الوفي... ويجب أن يكون الاستقبال في مقام الرجل وحسن وفائه... آه، المخلوفي، واقع وتاريخ، رجل من معدن لا نظير له... غناه في سرِّ حال، لكنه رجل مارس كل شيء وسياسي كبير، ومهاجر قديم...

وتتضافر الهمم في تقديم الخدمة، لإعادة الدار إلى مستوى يليق بالعائد الوفي... وفاء بوفاء... رجل مثله وفي قدره تفرش له الأجساد، لابد من إعادة الدار إلى ما تستحق أن تكون عليه...

وتظل العيون والقلوب تشرئب إلى مقدم المخلوفي... منتظرة موكباً طويلا فخماً... عودة مثله حدث، وهو بذاته حدث حيثما حل وارتحل... سيطل موكبه الفخم طويلا، يحيط ويتبع السيارة الفارهة التي تقله؛ وتوقعت الأذهان الدقائق والتفاصيل... فهذا الموكب لن يسهل عليه أن يجد طريقه إلى الانتظام حول الدار، بما يحيط بها من أزقة ضيقة، لذلك تفتقت الفكرة عن منع أية سيارة أو عربة من الوقوف في هذه الأزقة حتى العائدة منها للسكان والجيران، وتكلف البعض بمراقبة مداخل الدرب البعيدة، لإعلان العودة للمستقبلين، مادام الوقت بالضبط غير معروف من أحد لسبب غير معقول، إلا أن تكون عتادة تفكير وسلوك المخلوفي كما يعهدونه: حر... جريء... مفاجئ... حاسم... هكذا عرفوه، يفعل عندما يريد... تواضعه لم يكن يمنعه من أن يترفع عنهم، أو يشعرون دائماً بأنه فوقهم مقاماً واعتزازاً... غناه لم يكن يشعرهم بفقرهم، جواره حرمة وفخار للجميع، عرفوه يداً ممدودة ومساعداً في كل ملمة... عرفوه... فقدوه... ويعود الآن...

وزينت المنازل والواجهات بالأعلام والمصابيح الملونة، زين كل منحنى في الحي... عرس وعيد ومناسبة كل المناسبات، عودة حاج هي ومغترب ومفقود... المخلوفي يستحق أكثر من ذلك، ولا أحد يتحفظ في إظهار عواطفه نحوه... إنه عائد بمكانته ولمكانته في القلوب والنفوس، مضافاً إليها مكانته في المجتمع من موقع ما أسند إليه من مسؤولية بعيدة غامضة غموض الرجل، في مكانته الرفيعة في درب السلطان نفسه... بل في كل ما يحيط به، حيثما حل وكان... أغرب ما فيه الحاجة إليه، إلى ظله وخطوه... مثله يحمل على الأكتاف... وهو ما سيحدث ويتهيأ له الكثير من رواد الجيارة، ومن جيران المخلوفي...

الجيارة نفسها أهل لأن تفرغ ذاتها لعودة الرجل... إذا أمكن، فعمال في مصانعهم، ومسافرون مهيؤون للتعطيل، وتأجيل كل شيء من أجل يومه...

الجيران القدماء وكذا المعروفون في الدرب... اللاعبون المتبارون على الرقع في الجيارة، وجدوها رقعاً لا يكتمل حولها نصاب... مقاعد وطاولات شبه خالية... ما يكاد يجلس أحدهم، حتى يشده الفضول إلى متابعة ما يجري في الدرب... أو ينهضه غيره من مقعده للمساعدة في شيء أو على شيء... هكذا بهتت الرقع، وانخرست أصوات الهزائم والانتصارات... كل شيء جاهز في انتظار الرجل الكبير، العائد إليهم بعد افتقاد المحبوب الوفي لدربه وجيرته... كل شيء جاهز... وعدم تحديد وقت العودة محيِّر... إلا أن الأمر الآن حقيقة مؤكدة... ولا أحد يبالغ في التساؤل، والمهم أن الرجل عائد ليدفئ الحي كما كان يدفئه منذ عديد من سنوات... قبل رحيله... ولاشك أن الذهن لن يتعب كثيراً ليفهم أن رجلا في مكانة المخلوفي، لا يجوز أن تعرف حركته، سفره وعودته وطريقه من قبل الجميع... مسألة مفهومة بالنسبة لمن هو في مكانته... أو مسؤوليته... لا أحد في السابق، ولا أحد اليوم أو بعد اليوم، ينظر

إلى المخلوفي على أنه بعيد عن مهام كبرى غير معروفة ولا محدودة، مسؤوليات من نوع لا قدرة لهم ليطلعوا عليها أو يستطلعوا بشأنها، حتى وإن بدا الرجل عازفاً عنها بعيداً أو بريئاً منها...

ولمدة ثلاثة أيام من الانتظار، كان الحاج وهو أقرب جار لدار المخلوفي، يحرص كل الحرص على متابعة تحضيرات العودة، ويمسك يومياً بيده خرطوم الماء يغسل أرضية الزنقة... يفعل ذلك ويطيله منشرحاً، كأنّه يريد أن يراه أكبر عدد من خلق الله... أخوة وجوار... جارك أكثر من الأخ... أخ بلا أي شيء من تعب الأخوة وشينها... وحلت اللحظة مفاجئة، لم يستطع سكان الدرب أن يشاركوا فيها كما قدروا ودبروا، رغْم كل التحضيرات... لم يستطيعوا الهتاف والتّصفيق وحمل البطل العائد على الأكتاف... ولا نعموا بما توقّعوا من موكب... حتى رواد الدرب، تلك الطليعة المكلفة بالإعلام والإعلان، تلك التي كانت أول تطبيق لفكرة مما يضج به رأس بامقال من أفكار، فبتدبير منه جعل مجموعة إعلام وإعلان قابعة طول يومها بأعين ترمق وتنتظر، تنقل طلائع العودة إلى أهلها... هم أيضاً رغم الخطة الدقيقة التي رسمها بامقال، لم تتح لهم فرصة إنجاز مأموريتهم بالإخبار في الوقت المناسب... كل شيء حل في غفلة من الجميع... من منهم كان يتصور، بعد كل ما أعدوا وحضّروا، أن تكون عودة المخلوفي في الصباح الباكر... الباكر جدّاً... جوار الفجر أو يكاد... وبهدوء كامل... كأنه يتسلل إلى داره تسللاً... بلا ضجة ولا محفل أو احتفاء... بتاكسي صغير... كأي من النّاس... كأقل الناس... لا يمكن أن يثير ساكناً في رائعة النهار، فكيف بباكر الصباح... جوار الفجر!؟

الطليعة نفسها تلك التي كانت مكلفة بالإعلام، لم تعرف الخبر، بل بكرت كالحال في الأيام السابقة، بكور ما بعد إفطار وتثاؤب وتمطط، إلى مواقعها فخورة بدأبها، وبفكرة المقال الذي كان لا يفتر بين حين وآخر، عن مراقبة

ميدانية لعناصر عمليته، وإذا الخبر يزف إليهم من خلفهم... من قعر الدرب لا من مطالعه..!

مفاجأة العودة كانت صمتاً مطبقاً من قبل المخلوفي، تحيطه خضرة بجلال من وجوم واستسلام... ينظر في زواره، يحتضنونه فيرد عليهم بمثل ذلك، ويسمع منهم كلمات الاعتزاز والترحاب والبهجة فيظل يحدق فيهم، لا تصدر عنه نأمة، وتتولى خضرة الجواب مكانه، ترد التحية بمثلها، لا يفارقها الوجوم والاستسلام، ولا تفيد المتطلع شيئاً غير عبارة عامة مقتضبة:

ـ «هكذا بغى الله... هكذا قدر الله!».

لا تفيد المرأة إن كان ذلك مرضاً مخرساً أم رفضاً إرادياً للكلام... ولا تعطي تاريخاً ولا علة للظاهرة... الأمر أمر الله... مشيئة الله وتؤكد:

ـ هكذا بغى مولانا... أمر سيدي ربي يتصرف...

ولا يملك الزوار من أقارب وأباعد، إلا أن ينصرفوا في دهشة، مما وردوا به من تطلع... وتختلف الآراء، وتختلف الأفكار حول الصمت العارض الغامض للمخلوفي... خيره وشره... ظاهره وباطنه...

كان المعلم حمو والحاج وعيادي من أول من فكروا في الطبيب... وآخرون فكروا في علاجات مختلفة... لكن الصالحة خضرة تستجيب بالرفض... رفْض يفهم منه اليأس والإصرار، أكثر مما يفهم تسليم الرضى والاقتناع... أمراً محيراً كان... والمحبون أصدقاء وجيران، بعد صدمتهم بما حصل يودون فعل شيء محسوس، لا... لن يترك رجل كالمخلوفي لقدر مزعوم... لا يمكن... حق الجوار... والطعام... والأخوة لا يقبل ذلك. يؤكد الحاج هذا راجياً من الصالحة خضرة أن تُحسن الاستماع إليه، وتدير المرأة رأسها يميناً وشمالاً... ويرفع الحاج عينيه إلى المخلوفي المتكئ في هدوء على وسادة ممدداً قدميه، تاركاً

طرف بنطاله ينثني على فراغ ما تحت الركبة من قدمه المفقود، مجردة من جزئها الاصطناعي... ينظر في كل من ينظر إليه... لا شيء يفهم من نظرته، ولا يصدر إشارة مما يسمع مع أنه يفهم... يفهم فيما يقدر الجميع...

يقترب الحاج، ويضع يده على المخلوفي... لا يا أخي، لا يجوز للمؤمن أن ييأس من رحمة ربه... لا يجوز أن تبقى هكذا... لا نرضى... لا نرضى بذلك... لا لك... ولا لنا...

بيْد أن نظرة المخلوفي فارغة لا تقول شيئاً، وكف الصالحة خضرة على كتف الحاج تترجّاه ألا يحاول... ألا يلح... فلا فائدة.

ماذا تخفي المرأة؟ ماذا تعرف؟ كيف تفرغ نظرة إنسان بانخراس لسان؟ كيف ينهد كيان ما يزال بكافة مظاهر قواه؟ جبلاً كان... ظلّ جبار كان، ورجحان عقلٍ وظلاً فسيحاً... يداً وساعداً كان... كيف؟... كيف؟

يتوقف الثلاثة خارج دار المخلوفي بعد مغادرته، الحاج بعينين حائرتين، والمعلم حمو في ذهول مطبق، وعيادي يترنح... أهذه عودة حقّاً؟! يتبادلون كلمات غامضة، ولا يستطيعون الإفادة بشيء من أي شيء... فيتفرقون كل إلى داره، مثقل الرأس بأسئلة حائرة عن معنى ما يجري وأسبابه...

أهذه عودة حقّاً... مظاهر الحفاوة والاحتفال نسي البعض أن يزيلها، فظلت نشازاً مشتتاً مفتتاً هنا وهناك، كأنها منكسة من ذاتها...

ينظر الحاج إلى ساعته... الوقت ليس متأخراً تماماً... لم تجاوز العاشرة مساء، لكنه متعب، وجولاته في الرقعة غير موفقة... تعب من كرع العصير والقهوة المكسورة ومن اللبن المزيج... وتعب أكثر من صولة القشاش وارتفاع صوته المجلجل في حالتي النصر والهزيمة... تعب، وكرر النظر إلى ساعته ثم أدار النظر في الشلة حوله منادياً ومنبهاً من يريد أن يمر على المخلوفي، فهذا

أوان ذلك... تلك الزيارة التي أصبحت واجباً، يؤديه كل منهم مرات في الأسبوع،.. كلما عنّ له ذلك أو تذكر... أحياناً لا تتجاوز الزيارة أكثر من طرق باب، وسؤال عابر عن الحال، ترد عليه الصالحة خضرة بما يفيد استمرار الحال بغير جديد... حال يأس وحصار وانحصار غير مألوفة ولا معهودة، ولا نأمة تنفس الحال من هنا أو هناك، حال لا مألوفة ولا معهودة بحال... قال الحاج ذلك، وهو يتهيأ للانصراف عن الرقعة مخلفاً وراءه جلجلة صوت القشاش تعلو على الكل، حجة الزيارة وحدها أخرست صوت القشاش فيما يبدو، فلم يزد على أن يرفع البصر إلى الحاج وهو يهز رأسه في هيئة المرغم على موافقة صاحبه، ويتهيأ بدوره للانصراف... مؤكداً أن عهد الكبار مضى، كبار اللعب والرقعة، ولم يبق إلا المخرفون... لا أحد ممن يواجهه يستحق ذلك بحق... لا أحد يعطي للنزال نكهته وحلاوته... لا شيء...

❑ ❑ ❑

وللمرة الثالثة في الأسبوع، يبرز وجه الصالحة خضرة من فرجة الباب، استجابة لطرق الحاج ومن معه، دون أن تفتح مصراعه على مداه أو ترحّب بالزوار... وتقول بلهجة اعتذار «إنه في الحمام»... في الأمر شيء... لابد من شيء في الأمر؟ يحدث الحاج نفسه، فليس من المعقول أن يتكرر الحمّام في كل الأوقات التي طرق فيها وغيره الباب، على مدار الليل والنهار..! يلج الحاج، وخضرة توشك أن تغلق الباب في وجهه... يسألها عما يجري وماذا حدث..؟ تنظر إليه في عمق استسلامها المعهود... ترجوه ألا يُلِحّ... والمخلوفي يرفض أن يرى أحداً... يندهش الحاج... ينظر في المرة المجمدة أمامه في رجاء ألا يلحّ، يحاول أن يفهم، يستبقي المرأة... يسألها... هل تكلّم؟ تحرك رأسها بالنفي

والاستنكار... إنها إشاراته التي تعرفها وتفهمها... إشارات رفضه لكل لقاء أو حديث... تعرفها وتفهمها حق الفهم... لا يمكن... لا يمكن... يجب أن يزور جاره، أن يطمئن عليه... ويدفع الحاج المرأة أمامه بحركة أرادها أن تكون أقل عنفاً... وعندما أطل... كان المخلوفي ممدداً على ظهره... في مظهر هيكله القوي كما يعهده... عيناه مفتحتان، خيل للحاج أنهما أكثر تفتحاً من أي وقت مضى... وأنهما... بهما بريق لم يعهده من قبل... بيد أن الرجل سرعان ما أغمضهما، بمجرد شعوره بشبح الحاج يخترق فضاء الغرفة...

اقترب الحاج من الرجل، مد يده إلى كتفه بحرقة دون جدوى، إصرار على الإغماض والتجاهل، ويد الصالحة خضرة على كتف الحاج تترجاه ألا يلح.

خرج الحاج دون كلمة أو التفاتة، في أعماقه جرح عميق يملؤه إحساس بأنه ودع إلى الأبد، ودفن جزءاً من ذاته... أعز جزء...

21

حركة المساء تتداخل فيها الدندات بعبارات الاستعجال، تصطدم فيها الأقدام والأكتاف... تتعارض الاتجاهات مختلفة بعبارات الاستهجان والقبل والاسترضاء والمديح... حركة مساء في دار الرحمونية... الفتيات يتهيأن لسهرتهن، سهرة لهن جميعاً ولأمهن الرحمونية أيضاً... المعرض الكبير حدث لا يفوت ولا يتكرر مرتين في السنة... الكل على قدم وساق في الدار وألبسة من مختلف الأنواع والألوان بفنون من خياطة وتطريز، بعضه من شغل فتيات الدار، وبعضه من غيرها... البنات يتهيأن، وخروجهن يحدث ضجة ويبعث حيوية... فيها الفوضى وفيها النظام... تنافر ووئام... تسابق وتراشق... الصغيرة بشرى رقاص لا يهدأ ولا يستقر، تلبي الرغبات، تنجز طلب هذه، وتتطوع لمساعدة تلك... وتقترب متملية حركات الأخرى، تستوعب ما يناسب إدراكها وفهمها من هذا العالم... عالم التهيؤ للخروج لقضاء سهرة... سهرة وأي سهرة، يتألق جمال الفتاة وملبوسها وحليها، يتألق قلبها تحت العيون مع المكسب ومع الأهم من ذلك، أن يتعلق قلب وعين لمن يستحق... آه... سهرة،

وأية سهرة... السحر كل السحر في هذه الألوان التي تطبع الوجوه، وفي هذا الحذق الذي تُعَدُّ به، ومهارة الأنامل التي لا تترك حرفاً ولا ثنية... أو بروزاً فيما ظهر وما بطن، إلا وتمر عليه بتلوين أو تظليل أو تدليك... البهيج كل البهجة في هذه الألبسة بزركشاتها ومذهباتها... وفي الرغبات والميول والاختيارات... هذه تلائم لون الشعر ولا تساير الحذاء، والحزام لا يماشي القميص... ولون الأظافر... أحمر الشفاه والخدين، في تناغم مع حقيبة اليد... أواه... أواه... أي عالم؟! والغموض كل الغموض والفتنة في هذا المرمر المستحم الغائب في زخات الرشاش الفاتر... والمغموس في طفاوة الرغوة... تدلك الصبية ظهر هذه... تدني المنشفة من تلك... تناول المشط أو مسرح الشعر للأخرى، تائهة فائهة سائحة شاردة... تفيق بصفعة رحيمة أو قرصة تنبيه... عليها أن تقلل من التحديق فيما لا يجوز لها... أن تنصرف في الوقت المناسب أو تصرف نظرها عما ترى... لتتعلم أن تغضّ النظر عن أشياء... إلا تستحي في هذه السن؟ تائهة مبهورة مسحورة... ينبهها نداء ينتشلها من متابعة لأخرى... أحلى لحظات العمر ملء التطلع... ملء الفضول... ملء الحلم الممتع اللذيذ والأمل العريض... المائدة... موائد وصحون مهيئة جاهزة بكل طيب متيسر، ساهمت الفتيات أنفسهن في إعداد بعض منه... ومرت عليه الرحمونية بعنايتها وبيقظة بشرى... كله في انتظار فراغهن من زينتهن... شاي... حليب... عصير... حلويات مختلفة... كله في انتظار فراغهن أو فراغ من تسبق منهن... الرحمونية تتجول ما بين الحمامات والمرايا وخزانات الملابس ترشد وتوجه، وتصدر التعليمات، فيها من الحنو والشدة، ومن العتاب والتوبيخ، بهمة عالية ونبرة من مودة... زهرات العمر حولها يذكرنها بزهرة عمرها... من كان لمثلها إذا ذاك من مثيل ما لهن الآن؟ الزمان بدّال دلاّل حوّال... زهرة عمرها شيء مختلف... آه للحسرة وعليها... لكنها زهرة لم تذهب هباء كلها... آه من

الزمان... برّاق فراق سرّاق...

شبه التئام حول المائدة والصحون، الرحمونية تخدم البنات تسهر على ما يلتقطن من قليل يتزودن به، سهرة تطول لا تسمح لهن فيها حتى بالماء القراح إلا لضرورة قصوى... وأيضاً بلا شبع أو تخمة... سهرة العرض وما بعدها خفة بلا تثاؤب... ومشاهد من العرض تعاد وتعاد... مائدة حافلة بهمة بشرى... والبنات أنفسهن يساهمن في ذلك، يرمين أيديهن إلى الأقل القليل مما يشتهين... شبه التئام، إذ كانت بعضهن ما تزلن في إعداد أنفسهن منشغلات، وأخريات في منزلة بين ذلك، يخطفن من على المائدة بطرف الأنامل حلوى أو يتجرعن من مشروب بسرعة لينصرفن إلى إتمام ما هن فيه... لو استطاعت الرحمونية أن تجعل من دارها ألف حمام... وألف صالة زينة، لولا أن الدار لا تلائم، ليست فيها فسحة... ولو أمكن أن تحضر كل معرض في دارها، أو تقيم ألف ورشة خياطة وتطريز، لما تأخرت... لو أمكنها لكانت دارها الفضاء الأرحب لعروض وعروض، لولا انعدام الفسحة والساحة... والدرب أيضاً، لو أمكنها أن تحضر كل ساعة معرضاً للملبوسات... على كل، لا تجد الفتيات عند غيرها ما يجدن عندها... فهي أمهن... أكثر من الأم، وهذا كسب حقيقي لها... ولهن... لا واحدة منهن في السابق ولا في اللاحق، تقصدها لمجرد ما يجدنه لدى غيرها... وللتناوب والتسابق على الحمامين والمرايا، ومقعد الزينة، ومسّرح الشعر حلاوته وطلاوته... لغط محبّب عند خطف مشط وانتزاع قلم زينة، أو مدافعه على مرآة أو مقعد... كلمات شبه نابية محببة، وحركات فيها من المبطن المرموز واللطيف المحبّب، أكثر مما فيها من الاحتشام... عالم حلال هنا... بدون شاهد ولا حاضر غيرهن... لا بأس، أن تنبز سعاد رفيقتها آمال بأنها تتضخم من يوم لآخر، من وسطها، ولا يمكن لمقعد الزينة أن يسعهما معاً هذا اليوم... وكأنها تقتات في حلمها، أم أنها تقوم خفية إلى المطبخ عند

نوم الجميع..؟! لا بأس أن تتحرق آمال على قوام سعاد، تعلن ذلك صراحة تغبطها، أو تظهر بعض الحسد... سيان... تضرب بيدها على ردفيها ومركز بطنها، مشيرة إلى أهم بارزين منكرين فيها، متحسرة على قوام رفيقتها... ثم مثنية بتلميح إلى سلامتها هي وعافيتها... والى علة ظاهرة أو خفية محتملة في عود سعاد الدقيق... عود سمسوم مسموم يا خيتي! الله يلطف... النّاس تاكل القوت ويظهر عليها الخير، وهي، يا خيتي، كأنها تاكل السم...! العجيب من أكولة نهمة، فأين يذهب ذلك كله منها... كأنها ترمي جانباً ما تبلعه في جوفها... مسمومة معلومة... والحمد كله على الصحة والعافية ... الصحة هي الجمال الحقيقي... وكل جمال... أما موت النحافة والسم ...

تتدخل الرحمونية مستبشرة مرحة بمزاج البنات، يا الله يا بنياتي... كل شيء زين... كل قمح له كياله ومكياله! تقفز سعاد في خفة ونشاط وغاية انشراح... حبة من ذهب خير من قنطار حديد أو... رمل! ميزان الذهب الدقيق الأنيق غير ميزان الرمل والحديد! تنظر إلى رفيقتها نصف نظرة متشفية... يا بنات، يا بنات، المهم في الزين هو الملح والسر... والزين في الدفلة حار... مرّارة! الزين في الملح والسر... يا لله يا بنياتي... والمهم زين الصغر والشباب... والأهم زين الفعل والقول... زين الحركة والإشارة، والكلمة العذبة الممتعة المؤدبة... والأهم الأهم من كل ذلك يا بنات، أن تعرف المرأة سرّ جمالها، ومصدر قوتها في الجمال لتستعمله، أيضاً نقطة ضعفها في الجمال ذاته لتتجنبها... خلْق الله كله زين... وفي كل امرأة مهما كانت، وكيفما بدتْ، مصادر قوة من نمط جمالها، بالنسبة للرجل... كل ذرة هي قوة في جمال المرأة مهما كانت وبدت، يُقابلها عديد... عديد من نقط الضّعف في الرجل... أكثر من ذلك يا بنات، المرأة مهما كانت، هيٍ التي تصنع جمالها... تخلُق مصدر قوتها، ومصدر ضعف الرجل أيضاً،... وآه آه من صور الزمان المكّار

الغدّار الدوّار، وآه من صور ترامت، صور كانت لِحَى الرجال فيها عند أقدام الرحمونية... صور الرحمونية، كانت تُشْعل السيجارة بورقة الألف فرنك... والله... ألف فرنك في ذلك الزمان تساوي ملكية نصف درب السلطان أو نصف الدار البيضاء! وكم ألف فرنك تحترق في ليلة... من ليلات، وفي سهرة وسهرات... وفي عمر؟ آه من الزمان... زمان صنّاع بيّاع ذيّاع...!

تنفض الرحونية يدها من شجار البنات ومزاحهن الثقيل الخفيف، تنزع نفسها مما يثير فيها من ذكريات الحب الجميل والعمر الأجمل... تعتني ببناتها الآن، تبدي ملاحظاتها الدقيقة على الزينة واللباس... معروضات اللباس وافية كافية... وهي كل يوم تقريباً تبيع وتشتري وتستعير من أصحاب الخياطة والصنايعية... الوفرة لديها فوق كل احتياج... وهي كل يوم تأخذ من القيساريات ما تشتهي لبناتها شريطة المحافظة الشديدة عليها...

الملبوسات نفسها، وهي معروضة على أجساد الفتيات الرشيقات في مشاهد حية، تجلب المشترين لأصحاب القيسارية ومحلات الخياطة... إشهار حقيقي بثمن لا يقل عن تكلفة استعارة الملبوس أو... يعتبر مقابلا معقولا لذلك... كل من الطرفين يقدر ذلك... لا بأس ولا عسر في التفاهم بين المتفاهمين، ما دامت الثقة لحمة العلاقة... والفتيات أيضاً يعرفن ذلك ويتقنه. هناك من يهتم باللابس ومن يهتم بالملبوس، والفتاة الذكية الحاذقة، ربيبة الرحمونية تستفيد في كل الحالات... ويستفيد بائع الملبوس... آه، الزمان الزمان... كساب نهاب نقّاب!

22

على قلة ما كان يراه خارج السجن، فقد كان يعرفه دون أن يعرفه حقّاً... كان بإمكانه لو التقى به وجهاً لوجه خارج السجن، في رحاب درب السلطان وأزقته بضيقها والتوائها، أن يعرفه بما يسمع عنه من أوصاف وسلوك... رآه مرات معدودة عن بعد دائماً أو بلمحة سريعة، ولكنه لم يحدق فيه أبداً أو يجالسه، لذلك فإن كل الصور التي رسمها عيادي للشخش قبل زيارته في السجن، كانت مخالفة لما كان يتوقع، ولما اختمر فيه من معالم الصورة، وبما يحاول في طريقه إلى الزيارة أن يستحضره، ويستعين به.

لم يكن يتوقع أن يراه بئيساً أو حزيناً، فمثله بمنأى عن كل ذلك، لكنه لم يكن أيضاً يتوقع أن يراه في مثل هذه الغولية الهائلة... لا شك أن راحة السجن قد ضاعفت من حسن حالة، يضاف إليه الرأس الضخم الحليق، والطاقية الخفيفة الضيقة، يفيض عنها حجم الجمجمة وبروز الصدغين... قامة عملاقية متكاملة، تبدو عضلاتها مفتولة نافرة تحت القميص القطني الملتصق بها... كان يبتسم مشرقاً، وقبضتاه تمسكان بقضبان الحديد الفاصل، كأنهما تتحسسان

للحْظةِ اجتزائها من مكانها... في كامل إشراقه كان... وبكل العافية التي تدهشَ وترعب... اعتبر الزيارة اعترافاً أي اعتراف، وجميلا ووفَاء، عدّد له عزيز أسماء الأُحبة، شلة عيادي التي جاء الرجل باسمها... ذكر في مقدمتهم والده... أحمد... رقيبة... ذكره متلعثماً زائغاً ببصره عن أن يلتقي بالشخش، كأنه يذكر الاسم خفية عن نفسه، أو يتجنب التلبس بالتلفظ به... تحدث عيادي محيياً... كرر أسماء الشلة واحداً واحداً... ذكر أيضاً وبالخصوص ومع التأكيد، اسم صديقهم احمد رقيبة... الكل يسلم ويحمّل الزائر المبلّغ أحر الأشواق... الشخش بابتسامته العريضة يتلقى التحايا ويرد عليها... كلهم سيحفظ قدرهم جميعاً، ويعرفه لهم عند خروجه الوشيك... لابد...

من الطاقة المفتوحة في نصف الجدار أسفل القضبان، كان أحد السجناء يتلقى ما يهدى للشخش من مؤونة زواره نيابة عنه... مثله لابد أن تكون حوله شلة لخدمته حيثما كان... مثله يخدمه السجن بكامله... بذلك كان عيادي يفكر، ويذكر لصاحبه أن المجموعة كاملة ستزوره في سجنه... في أجل قريب... فأنت حاميهم جميعاً... أخوهم جميعاً كباراً وصغاراً... تغيرت نبرة عيادي وهو يلمح إلى حاجتهم للشخش... إلى دوره... إلى وجوده بينهم... تغيرتْ نبرة صوته إلى بحّة ودفء، رغم أنه لم يتعمد ذلك أو يقصده... لكنه كان يعبر عن حاجته العميقة إلى من يحميه... يزيح عنه ضيق الصدر من ثقل الضيم... لعله لم يكن يقصد حتى ذلك التلميح، أو أنه كان يتردد في البوْح للشخش به في الزيادة الأولى على الأقل، ربما كان يفضل تأجيل ذلك إلى الزيارة الجماعية، لكنه وهو أمامه لم يملك إلا أن يفعل... لعله ما كان ليجد ما يقول غير ذلك بعد التحايا وعبارات الاشتياق... ربما كان يفكر في سره أن بامقال، أقدر منه وأولى، في محادثة الشخش في زيارة قادمة، لكن ما حصل الآن انتهى تلميحاً أو تصريحاً...

نبرة الصوت تلك، أثارت انتباه رجل مثل الشخش، يملك حاسة فطرية للتعامل بالإشارات والحركات، فعمَّتْه مسحة جد، تبدت أشبه ما تكون بظلال همّ مسحت إشراق سحنته... عقَدَ حاجبَيْه، واحتدتْ نظراته وهو يغمز عيادي بخفة متسائلا بالإيماء عما يكون هناك... كان حرياً به أن ينبري في مثل هذا الموقف لتلطيف مزاج الشخش... لكنه فعلاً فوجئ بالسؤال، وكان ذهنُه بعيداً عن أن يتصور للزيارة أي باعث غير الزيارة ذاتها... والوفاء... بل هو لم يعط قبل ذلك أهمية لتلميح عيادي في بَوْحه للشخش... لذلك أحرج فعلا، والتفت إلى عيادي يسأل عن المقصود...

أظهر عيادي تجاوزاً للموضوع... المهم أن صاحبه بسلام وبأتم عافية... المهم الاطمئنان عليه، وأن يكون إلى جانب محبيه، والأوفياء له... وسيأتي أوان الحديث عن أمور كثيرة... تهم الناس كلهم... تهم أهله وذويه، جوار وعشرة... سيأتي يوم لقائهم به وهو بألف عافية وخير... ولكل حديث أوانه... وعلى كل حال... لا بأس...

ـ لا بأس... على كل...

ارتخت تدريجياً ملامح الشخش... أدرك بفطرته أن الحاجة إليه واضحة، حتى وإن لم يعرف الباعث والموضوع بالذات... وعليه أن يكون في العون... مثلُه يحس بداعي الواجب الأقوى في مثل هذه الظروف... كل متظلم لك، فهو منْك كيفما كان وحيثما كان... أم تتركه لغيرك؟ لمن؟ هكذا كان منطقه مع شلته الصغيرة، يشملهم برعاية وعناية، يساعد ويعين... والآن الشيء نفسه مع شلة أكبر.

ونظر الشخش إلى عزيز نظرة الآمر الواثق:

ـ شف لّخوت... شف معهم القضية...

والتفتت إلى عيادي مطمئناً مؤازراً، أنه معهم في السجن وخارج السجن... لا فرق... الجار جار والحبيب حبيب في كل زمان ومكان... وجماعة لخّوت معهم أيضاً، عون لهم كما لو كان الشخش بينهم وبجانبهم، لخّوت في خدمتهم حتى يفرج الله...

وجد عزيز أخيراً ما يقوله، يطمئن عيادي إلى ما سيقوم به... ومعه لخوت كلهم... بأمر من المعلم...

لهج لسان عيادي بالشكر للرجل الذي ازداد ضغط قبضته على الفولاذ، يحكه بحركة آلية لولبية صعوداً وهبوطاً... خيل لعيادي أنها تروم تذويب المعادن بين أصابعه أو اقتلاع قضبانه... لا ليس متحرقاً على الخروج من السجن، ولا يبدو آبهاً بوجوده فيه... إنما هي حركة منه...

مرة أخرى يومئ الشخش لعزيز، بما يعني العناية بزائره وهو يتحرك مودعاً منصرفا بثقة وتؤدة كاملة، يتبعه مرافقه السجين حاملا وراءه ما تسلم من زاد... وتتابعه عيون زائريه... كأنه يزف إلى زنزانته، لا قوة تسوقه أو تأمر... يختال مغادراً...

ظل عزيز يحدث عيادي عن شلته، شلة الشخش، جماعة لخُّوت... كما يتسمون، عيادي كما لو فُوجئ بنجاح الزيارة، يحس بأنه حقق إنجازاً هائلاً ربما لم يكن المقال نفسه ليحققه... مهما يكن، فما كان لأحد غيره أن يحقق مثل ما فعل...! ومن يدري؟ ربما فشل غيره في مثل هذا، وخاصة المقال بالذات بفورة مزاجه... مهما تكن خبرته... مهما يكن أيضاً فعيادي أكثر رضى عن نفسه وأكبر... أبعد الآن عن ذلك الشعور بأنه وحيد بما يحمل، من ضيم وشدة ضيق... ومن ثم، قرر عيادي فيما بينه وبين نفسه، على نحو أكيد، تنظيم العناية بالمرأة الستاتية، والدة الشخش في غياب ولدها العزيز السجين، حتى

يفرج الله... هذا واجب... أصبح واجباً، وعيادي يحس برابطة أقوى بأسرة الشخش... رجل قليل الكلام، لكنّه فاعل، ويفعل أكثر بكثير من مزاج مولاي المقالات...

23

كان يراقبها بحياد... إعجابه بها في مواقف العمل والجد لم يتغير... لكنّه ربما بسبب نوم غير كاف ليلته السابقة، أو لسبب لا يعلمه، لم يجد في نفسه الحيوية اللازمة ليشاركها ما هي فيه... بنطال الجينز والقميص المتمسكين بكيانها الفائر المستفز، غير عابئة ولا منتبهة لشيء... تتحرك... تقيس أبعاد القبو بخطوات واثقة، يتبعها بضعة عمال يخططون على الأرض والورق على هديها... كانت ترسم لهم تفاصيل مخططها لاستقطاع جزء من مسافة القبو الفسيح، لتصبح قاعة ألعاب وتسلية لرضى... تتحرك غير عابئة بما تثيره حركاتها من فتنة واستفزاز... حدث نفسه وهو يراقبها، بأنه وحده المأخوذ المستفز بكل شيء فيها... ولا يبدو على الخلق اهتمام أو انتباه مما يدور بذهنه من صور... وحده المأخوذ عن نفسه بها، ووحده الأبله السعيد بذلك..! سيقول لها كل شيء كما قال وكرر أنه أبلهها السعيد... تضحك له كالعادة... تضحك له كالعادة... تضحك منه وتقول عنه: سكران وحاضي أطرافه؟

ظل يراقبها بحياد وهي تذرع المكان في كل اتجاه، تشير وتوجه... تبدو في عفويتها صغيرة غرة ما تزال... لمّة الشعر في ربطة واحدة تزيد من مظهر يفاعتها... يراها تلميذة بالثانوية، أو... يراها كما تحكي هي وتتذكر... رقية أمرباط تتحرك بين تربها... من زميلاتها في الصف تتهامس مع بعضهن، وتلكز أخريات تحرك هممهن لما تخطط... بين الحين والآخر تمد رقية تلك يديها، تعيد وضْع الخيط المطّاط المرتخي على ربطة شعرها الوحيدة الثقيلة... الثائرة المتمردة على كل قيد... وما تلبث أن تستأنف حركتها، توحد وتؤلب وتستفز حتى تستقيم الفكرة مشروعاً تتزعمه، هدية إلى المديرة بمناسبة السنة الجديدة، مع طلب بتغيير أستاذة الاجتماعيات والسي عمر أستاذ الأدب (يا حسرة!)...

طبعاً لن يمكن الاستجابة لكل طلبات المجدات المهذبات، ولا يمكن تغيير أستاذين هكذا... لكن، تغيب أُستاذة الاجتماعيات عن وجوههن... ويبقى أستاذ الأدب (يا حسرة على الأدب!) تقولها أمرباط، بتأود وهزء، وهي تعود بيدها تتفقد شدة الخيط المرتخي على ربطة شعرها... كأنها تتوه بتمرد خصلته على رفيقاتها... كانت تعلم يقيناً أنه كفيل بإثارة غيرة بعضهن على الأقل!

ـ أوه... أنت هنا؟!

كانت حورية قد التفتت ففاجأها حضور زوجها متكئاً على حافة الباب يرمق... أنت هنا؟ أقبلتْ نحوه كأنّه فاجأها في وضع لا ترضاه... فعلا لا ترضى أن تراقبها عين في غفلة منها، ولا أن يراها هو بالذات إلا كما تريد، وطفقت تحاول إخفاء مظاهر إهمالها وعفويتها... تمرر يديها على سمتها وتتفقد حالها... ويلي... ويلي... على حالة؟!

كان يضحك من موقفها، ومن معالم تذمرها الخفيف... ضحكته من موقفها، ورغبتها في ألا يراها إلا كما تريد، في كامل زينتها وتهيئها له...

على أحسن ما تريد... بادرت توجه انتباهه نحو ما يجري... وقد بدأ العمال يستعدون للشروع في العمل على ضوء رغبتها وتوجيهها... وانصرفتْ تشرح له، تشير وتؤشر، في قمة نشاط، تقارن بين رسم وآخر، واقتراح وآخر بتحفز وهمة...

لم يكن معنياً بما تقول، ولم يغب عنها ذلك، لكنّها وجدتْ فرصة لتنفلت منه، تهيئ نفسها كما تريد... بعد أن اطمأنت إلى مرحلة ما يبدأ العمال في تنفيذه...

على مائدة الإفطار، تحت أشعة شمس فاترة تتسلل من خلال الأغصان، سألها عن نفسه، أين يلعب هو... إذا كانت ساحة القبو بكاملها تخصص للهو رضى وألعابه؟!

نظرت إليه شزراً... ألم يعرف بعد؟! لم يعرف بعد؟ إذن لن يعرف أبداً..!

تابع امتعاضها من سؤاله، يستملح غضبها الصبياني وعتبها، ولكنه حقيقة يود أن يعرف مكانته بعد ومع رضى! لم يجرؤ على الإعلان عن سؤاله على النحو المطلوب... لكنها تفهم الكثير مما يدور بخلده... وكل الرجال يبقون أطفالاً مهما كانوا... وذاك مجدهم الوحيد الخالد في رؤيتها...

24

تضاربت الآراء والتعليقات في الفهم والتفسير:

ـ هذي دعاية جديدة!

ـ قل طريقة جديدة في الإشهار!

ـ اتقوا الله يا عباد الله... هذي توبة الله... توبة نصوح.

ـ ... أو... توبة فضوح!؟

قهقه بعض جلوس الجيارة... بعضهم فقط... وبعضهم ظل هادئاً أو ابتسم في صمت.

لم يكن يوماً عادياً في حياتهم ولا مألوفاً لأنظارهم، ولا كان الحدث مما يمكن أن يمر وينسى... أدرك الكل، ويدرك الجميع، أنه علامة بارزة، وستظل كذلك بين الأيام والأحداث... سيظل ماثلاً في الأذهان والذكريات... الخيال نفسه يقف عاجزاً عن تصوره... ودرب السلطان بكامله لن ينسى... ولم يعرف قبل ذلك حدثاً من نوعه...

ـ رجوع العبد لمولاه، من حكمة الله... وحده...

ـ إيوه... وفْرق بين رجوع ورجوع... ومِن من؟ مِن الرحمونية؟!

وتحدثوا عن فتنتها في مظهر التوبة أكثر مما كانت في زينتها وتبخترها المألوف... بعضهم فصَّل كثيراً في مشيتها التائبة، باتزان ردفيها الممتلئين تاج عمود تحت ثوب البياض... ثوب التوبة والثواب، ومشية الرجوع والاسترجاع...

ـ واتاها البياض... واتاها الحرير واتتها المشية... كل شيء واتاها... آخ...

ـ قل الله أكبر!

ـ زينة الكلبة... زينة!

ـ تبارك الله... زينة وزادت فيه!

آخرون تحدثوا عما اشتموه من موكبها التائب من رائحة زكية كأنها عبير جنة، أو طيب مكة عز الله..! يروون عن النّساء العجب مما اقتنصه شمهن وسمعهن عن موكب التوبة... النساء أحدق أنوفاً... ريح الجنة فايحة منها والله العظيم! تقول بعضهن ذلك، وتشهدن أخريات:

ـ فرحتها يا خيتي... جات معها... دنيا وآخرة... ريح الدنيا وريح الجنة!

غبطة لم تكن صافية كل الصفاء... الأولى أنّها كانت نبرة مشوبة بالكثير من الغيرة والحسد، من النساء المطلات والواقفات على طول الأزقة يرقبن موكب الرحمونية وبناتها... موكب التوبة... موكب توقف لمشهده الحياة، أو تجمدت متابعة له بالأنظار والأنفاس والدهشة.

ـ تبارك الله عليها... تقولي عليها عروس ورايحة!

لم يكن حدثاً بسيطاً ولا عابراً، هذا الذي تمثل في ثوبة الرحمونية. عجباً كان... مفاجئاً كان... لكنه أصبح متوقعاً على نحو ما، منذ أشيع أن الرحمونية اعتزلتْ نشاطها المعهود... توقفت عن جولاتها في الأسواق، وخطواتها المختالة في الأزقة... أصبحت لا تكاد ترى... ولا تفتح لأحد... رحلت عنها أغْلب الفتيات... أشيع أنها وزعتْ عليهن الكثير مما تملك... وخيّرتهن بين الانطلاق والبقاء إلى جانبها لمن تريد... وأُشيع أنها رأت... رأت في منامها حلماً تكرر... ظل يتكرر، حتى أفقدها طعم اليقظة والنوم جميعاً... دابة أو طريدة أو ما يشبه ذلك... غيْر واضحة الفصيل أو الجنس... لها أظلاف... وكل ما هو واضح منها أظلاف... يهجم عليها وحش مفترس، قد يكون أسداً، وقد يكون أي وحش آخر يسمع له زئير وزفير، وهو إلى ذلك مخيف في مظهره، بالإضافة إلى وحشيته... لا شكل له ولا لما يبعثه من فزع عارم وروْع شامل... تحاول الطريدة الخلاص من الموقف بالقفز أو الهروب، لكنها مربوطة منْ قوائمها الأربع... بل تبدو مشدودة إلى مكانها بمسامير تخترق الأظلاف، كلما تحركت تفَطَّر الدمُ من حوافي أظلافها... وقد زاغ بصرها واتسعتْ حدقتاها، والهول يكتسحها والخطر الداهم... لقد بدا بطنُها ساحة مفتوحة عزلاء عارية من أي دفاع... لقمة سائغة... رقبتها ممدودة وهي مشدودة إلى وضعها مستلقية على ظهرها... يتفطر الدم من أطراف أناملها... تبتدئ أظافرها في الاقتلاع... الرحمونية الدابة الطريدة العزلاء، المشدودة، يجْتاحها الارتعاب الأكبر، الأعظم، والخطر الداهم الجارف... وينبت من عدم بلا توقع أو انتظار، ينبت من أدغال الهول والارتعاب، صائد منقذ، تستغيث به الرحمونية في وضعها اليائس الصعب... تصيح به... أخيراً يبدو أنه يسمعها، ويتبين مشهده ومعالمه عن بدائي شبه عار، يلتف حوله ما يشبه رداء يظهر كل شيء، وكأنه الهبطي فيما يثير في النفس، إلا أنه يلف حوله حبلاً غليظاً، يبدو في

طرفه مخطاف أحمر، كأنه الجمر المتّقد... يرمي بالحبل كأنه يريد إصابة الوحش الأسد المهاجم... لكنه يصيب أشفار أو حواجب الدابة الرحمونية الطريدة المتسعة الحدقتين هلعاً وارتعاباً، ومن ثم يجذبها يرفعها إليه بالمخطاف من حاجبيها... بينما أظافرها مسمرة وأناملها قانية تدمي... أعوذ بالله. أعوذ بالله منه حلماً معذباً قاتلاً، تفيق منه المرأة صارخة متصببة عرقاً... أعوذ بالله...

يتكرر الحلم والعذاب، ويجفو النوم والراحة... كثير سمعوا حكاية الحلم، لكنهم لم يهتموا بدلالتها ولا بجديتها، لكنها تنتشر الآن وتشيع، وتفسر الرؤيا، فيما يذاع أنها السعيدة التي أرتها قدرة القادر ما ينتظرها من عذاب... رأته رأي العين في الدنيا قبل الآخرة، وتذوقت آلامه الظاهرة والباطنة... إنها السعيدة، لأنها عرفت وعاينت وعانت، وأمامها طريق التوبة والرجوع، التوبة النصوح، والرجوع النهائي التام الكامل...

ولم يكن هذا وحده وجه الحديث عن حركة الرحمونية، ولا ترجمته الوحيدة، فقد أشيع أيضاً أنها وقعتْ في ورطة، تتعلق بنشاطها، وبسرب البنات الملتف حولها، فنذرت نفسها للتوبة إن هي نجت مما كانت فيه... وفي خضم ذلك، يروي البعض أن الهبطي هو الخطر الذي نجتْ منه... ويذكر آخرون أن الورطة حصلت مع أطراف عليا أو نافذة... وأنها أجبرت على أن تكف عن كل نشاط...

وتردد اسم التبعي مرات... تردد وتكرر اسمه بلْسماً وسيل غدير منعش في جو البيداء والعذاب... يفسر الرؤيا لصاحبتها المهتاجة الملتاعة، يوضح ويؤنس في ظل المحنة، ويشاع الكثير عن بركة التبعي حلت بالرحمونية... أهدَتْ خيلها وخيلاءها للشيطان... أهدرتْ مصير الجسد ونزوته وأطماعه ومطامحه، أقبرت في نفسها وحولها كل رابط بالماضي، رمتْه للجحيم، ونذرتْ روحها للتوبة، وعلى طريقتها الخاصة، أعلنتْ وجهتها الجديدة... أشهرتْ

توبتها، وأشهدتْ عليها الدرب بكامله... أشهدَتْ عليها الصغير والكبير... وأذلّت هذا الجسد، مسكن الطمع والعبث، وأذلت النفس، سلختْ كبرياءها وخيلاءها وطمرت فيها مصدر النزوة، غابتْ عن أعين النّاس والألسنة الناهشة اللاهجة... اختلت بنفسها لنفسها، لا ترى ولا يرى، والأعناق من حولها تتطاول، والألسن تمتد وتجتر... حتى حماسة الجيارة كانت بين حين وآخر، يتوقف نشاط لاعبيها أو يخمد على إشاعة أو رواية عن حال الرحمونية، ثم إذا بالمرأة وقد برزت بدون تدبير أو إنذار... وبسرعة البرق، سرى الخبر في كامل الدّرب؛ فُتحتْ على مصراعيها الأبواب والنوافذ والعيون والآذان، واستطالت العقول والألسن والأعناق... موكب الرحمونية حدث الأحداث... فريد... وحيد بلا شبيه أو نظير، ولا عقل كان يتصور ولا خيال ولا جنون، حدث بدون مثيل...

متدثرة في بياض ناصح كالكفن، ينسدل على قامتها بدون حزام... لفة قماش رقيق أبيض تحيط بالرأس الحليق حلاقة تامة كاملة... لفة واحدة يبدو معها الرأس كرة صغيرة الحجم، نصبت على هيكل صلد وافر السعة... وضع الرأس غرابة ما بعدها غرابة... تلك الهامة الرائعة بما كان لها من فاخر الغطاء ووافر الكساء... كيف تذل هامة مثلها أو تبتذل؟ وكيف تصبح موضوعاً مشاعاً للألسن والأنظار؟ كيف كانت تنسدل منها خصلات الحرير الفاحم والذهبي المشوب بحمرة، وخُمرة، وجمرة... ها هو ذا جسد الكبرياء والخيلاء معروض في موكب الفضيحة والإذلال موكب التعريه... هذي التوبة... قربان التوبة...

يُعرض الجسد التائب للمعتبر... للفرجة والتشفي عسى أن يطّهر بالإذْلال والمهانة، ونظرات التطلع... تُعْرض النفس وتنزّل من عليائها للحضيض، حضيض الفرجة، والفضول وهو يخترق صلفَ الكيان وتعاليه، خيلاءه وأوهام انتفاخه

وارتفاعه وارتقائه... كل شيء معهود في الكيان ينهي خيلاءه واختياله...

قدمان حافيتان، كفن شامل يلف الكيان الحطام المتحرك في أناة... رأس حليقة ملفوفة في خرقة ملتصقة بها من بياض الكفن الرقيق ذاته كرأس وليد... ليتشفّ الخلْق، ليرقص الفضول، لينهش اللسان والظُّفر... فهذا فعل امرأة عرفها ولم يكن يعرفها حقّاً... هذا فعل الرحمونية وحدثها... طُريق التوبة... وليعتصر الكيان كله بما خلق وما لم يخلق من أداة... فهذا سبيل الطُّهر والتطهير... وكفاه هذا الكيان، ما طفح الكيل به وله زمان الخيلاء والكبرياء... عن زمان الطيْش والشباب، وعن مديد عمر الطمع والمخاوف ورياء التجارة... توبة الخطو والوقف والنظر والحديث... لن تقع العين بعد اليوم على غير السماء والأرض، واللسان لن يلتوي بغير الذكر والدعاء الصالح، والوقف والقعود، والحركة كلها، لن تكون لغير التسبيح والاستغفار... ومد يد بالخير والإحسان..!

تأوه القشاش بعمق فاجر داعرٍ، وهو يتابع الموكب بعينين تخترقان الكفن حتى العظام:

ـ الله... الله!

ـ زينة يا خويا... زينة!

وحدث قريبه عن دم نقي زكي يوشك أن يتفجر من بشرة القدم الشفافة عند كل خطوة... الله... الله... يا عباد الله!

العسلي مرق داخل محله، أغلق عليه كالمذعور... مذعوراً بحق، رغم ما في المشهد من إغراء... لم يكن ليصدق ما يحدث... ولعله من خلال الشق يتابع بعض المتابعة دون علم أحد... فوجئ حقّاً، يبدو كمن لا يأمن غائبة ما يجري، كأنه المسؤول، أو أن الدور يؤول إليه عليه.

كانت تسير حافية خافضة، وحيناً بعد حين، ترفع بصرها باتجاه السحاب

الأبيض لتنكس من جديد... يمناها تداعبُ حبات مسبحة... ويسراها منسدلة على جنبها في ارتخاء، كأنها ليست من كيانها، أو هي في رحلة مسبِّحة سابحة في ملكوت لا يراه غيرها أو يرعاه... سائرة كانت، سادرة غير آبهة إلا بطريقها متئدة الخطوة حافية خافضة.

ـ عروسة ورايحة؟!

ـ فرحتها؟

ـ زين الدنيا وزين الآخرة!

ـ قولي زين الدنيا وزادها زين الآخرة!

وتداخلت لغات النساء في وصف ما يشاهدن، كما تداخلت فيه أفهام الرجال... كل من جانبه يرى ما يرى، ويحدث نفسه وغيره بما يحدّث... في حين يمضي الموكب لا يلوي على شيء هادئاً هامداً، يحتمل بطواعية ما يحتمل من فرجة وتشريح، تمضي الرحمونية في مقدمة أربعة من بناتها في مؤخرتهن الصبية بشرى... كلّهن على منوال واحد... يخطرن في البياض كسرب حمائم بيضاء أو راهبات... حافيات حليقات مكفوفات الرؤوس والأعناق... يجررن أذيال المهانة... يخترقن الأزقة والدروب، في أسماعهن وقْر مما يترامى حولهن من تعليقات... لا، لا، قد يكون على السمع التائب أن يلتقط ما يلتقطه عفواً، ليتجرع كامل الجسد وكل الحواس مرارة الهوان وبلسم التوبة... يجب أن يتمرغ السمع ذاته في المهانة مثل سائر الأطراف...

على مشارف الجيارة، لمح التبعي أو قد ترامى إلى خاطره ما يجري، وهو حيث كان... نبت على حافة المشهد ينظر ويكبّر... ويشهد الخلق على آية الحق... ويسرع نحو الموكب، يصلح على كتف الرحمونية وعنقها ما أوشك أن يسقط من لفة العنق... يسايرها وهو يصلح ما يصلح داعياً مباركاً...

وهي تخطو خافضة رافعة بصرها ما بين الأرض والسماء، غير عابئة بشيء مما حولها... يتركها الرجل ويتعهد غيرها من توابعها، وسرب التائبات، بلسان لا يفتر عن الدعاء والتهليل والتكبير... يتركهن يمضين لحالهن، يتوقف قليلا يتابع المشهد، يتفرس في الوجوه، يتابع الأشباح الراكدة وراء الموكب وحوله، ويمضي يتابع جولته المعتادة... خفيف الخطو أكثر مما كان، ثابت النظر فيما أمامه، وكأن الوجوه المعهودة لم تعد تغريه بالتفرس، ولا شبح صبية أو هالة امرأة...

تحت أقواس مدخل الأحباس، يرتعد كيان الهبطي بقشعريرة ملازمة... قرٌّ يهزُّه من أخمص القدم إلى قمة الرأس. وخز ورقة رؤوس من مسامير لا يترك في جسده بقعة ظاهرة ولا خفية، وخْزٌ في دقة رؤوس إبر أو شوك ينغرز في كيانه حتّى العظم والنخاع... يهتز كيانُه ويهتز... فلا يملك إلا أن يلف عُريه على عرْيِه، يضم ذراعيْه حول كتفيه وصدره... فلا يجني غير القّر والاهتزاز... رغم الحرّ السائد، رغم العرْي الذي يكسوه في القرّ والصَّهْد... يلازمه ويلتحف به... تظل فكّاه تصطكّان، وأسنانُه تقرقر، والكيان المصرور بالذراعين يهتز اهتزازاً قويّاً، تضيع معه ذاكرة الأصوات والألوان والأسماء... طيلة أيام يستمر الحال... بعض الأكل حول مستقر الهبطي قد تعفن، متناثرة حول مجلسه الأوراق الرقيقة والمقواة، بغير انتظام... إحسان بعض المارة إليه، رمى عليه بعض كساء، لم ينفع في دفع شدة قرّ وارتعاش، سرعان ما يرميه الهبطي عنه، كعادته مكتفياً بحاله، يلف ذراعيْه حوله، ويهتزُّ مع كل موجة من موجات قشعريرة تعْبر كيانه من قمة الرأس إلى أخمص القدم...

ويملأ الموكب على الرجل قوس المدخل... تغيب الشمس عن مجلسه بامتلاء المدخل كله... يُشْدَه لما يرى ويتراءى أمامه من ألوان متداخلة متحركة غير متميزة، ولا مألوفة... مرة واحدة تهاجمه ألوان غير معروفة لديه، يشد

ذراعيه حول صدره وعنقه وكتفيه، ويزداد ارتعاشه وارتعاده... يتوقف الموكب أمامه، تتوقف الألوان بكل ما فيها من لا معروف ولا مألوف، يظل الهبطي في جموده وارتعاشه.

الرحمونية تقف... تتوجه نحوه، لا يرى منها الهبطي إلا سديم ألوان غير متميزة، ينتصب أمام عريه المقرور المهزوز... تتقدم المرأة، وهي تغض وتزيح الوشاح الأبيض الملفوف حول عنقها، تحيط به عنق وكتفي الهبطي... تفْعل البنات مثلها، تُزِحْن أوشِحتهن وتلفُفْنَها حول عري الهبطي وهن خافضات داعيات مشيحات...

يمضي الموكب، يتجاوز مجلس الهبطي، فَيُعاوده شعاع الشمس الهادئ الدافئ، وانفتاح قوس المدخل على ألوان حقيقية متمايزة مما يعهد ويعرف... يهدأ كيانه، يضحك لنفسه، يدرك المعهود من حالة أو كأنه يعاود الوعي والإدراك... أردية كثيرة ومعاطف تتراكم على جسده وحول مجلسه... ينظر حوله... ثم يقوم يرمي ما عليه، وينتصب في ألوانه المعهودة كما لو كان في أتمّ حالة المعهود... تلتمع ألوان الأفق لنظرته حمراء خضراء صفراء... متميزة ومتداخلة كما كانت تلتمع في انتصابه وسعيه المعهود... تلتمع لناظريه بمجرد التماع، لا يدوم أكثر من لمحة خاطفة... لتُهاجمه موجة القرّ والارتعاش... يعود منطوياً على كيانه إلى مجلسه، مهزوزاً ملتوياً على ما به.

ويكون موكب الرحمونية قد غاب أو انحرف به منعرج، يمضي موكبها سرب حمام أبيض، يخطو في رياض ورودها ألسنة شوك تلسع على كل جانب، وعيون تحملق حائرة، وأفواه فاغرة...

لم يكن بالحدث السهل هذا الذي عرضت له الرحمونية وعرض لها. انقلاباً كان، لم يدر في حسبان أحد، ولا انقطع بذكره لسان، والأعين ترقب النفس المتحرّرة من دار التائبة، والبخار الفوّار المتصاعد، والتواءات الدخان،

مرفوقاً ذلك كله بروائح الطبيخ والطعام، وحركة الداخل والخارج إطعاماً للمحتاج وغير المحتاج من كل قصد وقاصد...

انقلاباً كان، وكذلك ظل في الأذهان، لم يفتر ذكره إلى أن أضيئت رحاب الدار فجأة... وفجأة أُحيطت بمعالم الزينة المداخل إليها، وتوهجَتْ نهاراً في ليل: إحياء ليلة ذكر وقرآن عامرة ساهرة... التبعي ذاك الرائح الغادي مع من يروح ويغْدو، يحط رحاله بالدار... تعود به كل خيوله إلى العتبة ومنها تبدأ... واليها يزف أو تزف إليه الرحمونية في الحلال على طاعة الله وسنة رسوله، في ليلة يعم شذاها، ويشدو صداها، بنفح الطيب وعبير الذكر والدعاء. ويقول القائل: أخيراً يرتاح التبعي... أخيراً يرسي مركبه، أخيراً يكف به التحديق والتلمس والتفرس...

أخيراً أحس مول المقال أن صحفه لا تستوعبه، أشرعتها مرخاة من بين يديه، تتدلى أطرافُها على الطاولة أمامه وعلى ركبتيه، وهو تائه شارد عن معارك الرقعة بالقرب منه، بعيد عن أحاديثها التي تكاد توقف الصراع حيناً بعد آخر، أشياء تحدث صادمة مفاجئة، وهو غائب، كيف يقبل ذلك؟ كأنه ميت العصر كما يقولون... هو كذلك بالفعل... كيف يقبل ذلك؟ كيف يصبح آخر من يعلم، كأنه من... أيها الناس؟! الرحمونية تعيش انقلاباً، تحدث انقلاباً في الدرب والكون بكامله... ثم تردف ذلك بزلزال زواجها من التبعي... وهو... هو مول المقال العتيد، لا يصله إلا صدى بارد من خبر بائت ومصبح ومبتل؟! لا بأس على الغافلين حوله إذا كان ذاك شأنهم، يفاجئهم الخبر فينبهرون لحدوثه، وذاك منتهى ما يصلون ليعودوا إلى ما كانوا فيه إلى خبر آخر... وهو هو مولاي إدريس مولاي المقال، هو من يجب أن يسبق الخبر إن يساهم في صنعه... ها هو ذا قاعد شارد منبهر مثل الآخرين... كيف يسمح لنفسه بذلك؟

أحس أن صحفه لا تحتويه ولا تستوعبه، ولا ضجيج الرقعة حوله، إلا جواب القشاش لمتسائل وارد عن المنتصر، يجيبه القشاش بضحكته المجلجلة وسخريته المبطنة:

ـ الخبر في الكزيطة!

انتفض مول المقال للتلميح الذي أدرك منه أنه يعنيه! هكذا يصبح مولاي المقالات محط هزء... من غيره المقصود بالتلميح الفاضح المفضوح؟

ويضيف القشاش للسائل، مشجعاً إياه عن حقه في معرفة خبر الانتصار، وواجبه في البحث والسؤال ليعرف:

ـ اللي بلسانه ما يتلف.

ويجلجل ضاحكاً، ينظر مول المقال إلى السائل الواقف على رؤوس المتبارين، وينظر باتجاه الرقعة، تلتقي نظرته بعين القشاش، يخيل إليه أنها تقدح شماتة بجهله، بحمله لمشروع وكالة إعلامية بحجم الكون، دون أن يعلم شيئاً عما يجري تحته.

يهتف القشاش بخصمه في الرقعة:

ـ هزك الما يا وليدي!

ينتفض مول المقال قائماً يغادر، تاركاً بعض صفحاته تسقط مكانه.

25

حسم الأمر، لا يريد دعوات، لا يهمه ممن تأتي ولا من يحضُر... يريد هناءه وحريته ووحدته... هكذا... يحس أنه متعب، جد متعب وفي حاجة مستمرة إلى الراحة والارتياح من كل شيء، هل يفسر لها مرة أخرى ذلك؟.. أم يفسره لغيرها؟ قديريد فيه كل كفاية لينوب عنه... ليحضر بدلا عنه... إنه يمثله خير التمثيل، ويعقد دونه الصفقات... أوْ يترك ذلك وشأنه... ماذا يريدون منه؟... ألا يرتاح؟ أليس من حقه؟ كأن تعب عقود السنين كلها، ينكب عليه مرة واحدة... أو أنه يريد أن يتفرغ من تعب السنين كلها، دفعة واحدة... مرة واحدة... وما فائدة الثروة إن لم تكن تريحه راحة كاملة... وتمنحه متعة شاملة...؟

كان قديدير يرقب في هيئة المستعد للتنفيذ، أمّا حورية، فكانت غاضبة أو توشك... لم تكن مقتنعة بموقفه، ولا كانت هذه أول مرة من هذا القبيل... أشارت إلى قديدير بأن يتركها... أومأ بخفة، وخطا نحو البهو، تقدمت نحو رقيبة في خطو حازم... لن تفوِّت له هذه الفرصة... الدعوة على شرفهما...

على شرف رقيبة وحرمه... عليه أن يفهم صفة الدعوة هذه... تتويج لنجاح ورشته في أشغال مطار دولي... إنجاز نموذجي وزمن قياسي... الفضل لقديدير كما يكرر رقيبة مرات وهو الأحوج إلى هذا التكريم والأولى به... أما هو أحمد رقيبة فلم بعد يشعر بنشوة أي نجاح... مهما كان... إلا أن يرتاح، يتمتع بالراحة... الآن يفهم معنى الموت، وإن كان لا يرغب فيه ولا يتمناه... الموت راحة... راحة حقيقية للجسم على الأقل... تعبه الآن... كل تعبه... كل هذا الشعور الثقيل بالتعب أمر جسمي... انهدادٌ كامل شامل وتوق إلى الراحة...

تؤكد له أن للأمر أهمية أكثر بكثير مما يقدر... تتويج لحياته... حياتهما... حياتها معه، لا يمكن أن تكون عزلة مستمرة، لابد من الخروج للناس، رؤية النور، وشم النسمات البشرية، وتغيير الهواء والصوت و... هذه الدعوة بالذات لها طعمها... بنسميد مشرف عليها بنفسه... ليس هذا بالقليل... وستجمع عليه رجال الأعمال، وطنيين وأجانب... ثم هي على شرف رقيبة وحرمه... لابد أن تُفهمه ذلك...

نظر إليها ملياً... كأنه يستمع إلى صوت غريب بعيد، لا يعنيه أو يمت إلى موضوع بصلة... من خلال دخان سيجاره الغليظ الكثيف، كان يرسم ابتسامة باهتة... مريرة ساخرة... لا مبالية... من كان يعبأ بدعوته، أو بالتعرف عليه، طوال عقود طويلة من شقائه وتعبه؟! لماذا إذن يُفْرض عليه الأمر دائماً؟! تتويج وشرف؟! أإليه يوجه هذا السخف الآن؟ يدرك تمام الإدراك... تمام الوضوح أنه سيكون مدار صفقات في دعوة كهذه... ونجاح مثل هذا، ليس الأول ولا الأهم ولا الأخير؟ لا يراد من ذلك إلا تحجيم نشاط أشغاله، بعقد أو صفقة تنقذ منْ هو في ورطة، أو تضيف إلى من يرغب في الإضافة والزيادة... فقط لا غير! لماذا تفرض عليه دعوة... وتتويج لا يريده؟ لو حصل في وقت المعاناة... لكان مقبولا منه على الأقل... إذ ذاك لم يكن في غنى عمّن يفتح له الأبواب على هذا

النحو... أما وهو في يسر كبير... وزهو أكبر... وفي نجاح يأتي طوعاً، وبدون أي جهد منه ولا حتى دراية... فهو لا يزيد عن إزعاج واستفزاز لراحته التي يريدها أبدية... حياة راحة أبدية... إن كان يستحق شيئاً بعد كل شيء مما بذل، فهذا ما ينشد... وهو ما يستحق من تتويج، من وجهة نظره على الأقل... ومنطقه الذاتي... من مصلحته وهنائه... لا أكثر... لا غير... فقط!

انتفضت حورية مغضبة أمامه، لا، إنّه لا يفهم، بالتأكيد لا يفهم، لا مصلحته ولا راحته... بالتأكيد لا يفهم شيئاً... لم يعد يفهم... المصلحة كل المصلحة في أن يستجاب للدعوة، ولغيرها من المناسبات... وأن تقام مثيلاتها، ويدعى إليها أيضاً من قِبَل رقيبة وحرمه... لابد من الخروج للناس... للعالم... هذا قانون الحياة... لابد من خروج للناس ومن دعوة للناس... هكذا الحياة أخذ وعطاء... وصْل واتصال...

لم يتحرك، ظل في ابتسامته الباهتة الباردة... ودخان سيجاره الكثيف... تحدثه في مصلحته؟ مصلحته فيما هو فيه، وفيما يريده، أما الباقي فمصلحة غيره... مصلحة قديدير رغم إخلاص الرجل له... إخلاص يقدرُه رقيبة جيداً، أو يتخيل دواعيه ومطامحه... مصلحة الأشياع والأتباع المتنطعين والمتطلعين، من مديرين ورؤساء مصالح وأوراش من أتباع وأشياع، يختلقون المناسبات لاقتناص الفرص... أما هو فقد خاض طريقه الشاق بدون ذلك... بلا حفلات أو دعوات... بجهد ومعاناة... ليتبعوا إذا شاءوا... أما هو فمصلحته المثلى والعليا في الراحة والمتعة... بما يريد... كما يريد... لا أقل ولا أكثر من ذلك.

تُمعنُ حورية في الإلحاح، ولا يزيد على أن يتركها لأمرها... لتمض رفقة قديدير... أليست قرينته؟ وبرفقة مدير أشغاله؟ ألا يكفي ذلك؟ ألا يدل على علو شأنه ووفرة مشاغله كما يسعى إلى ذلك المولعون بالمظاهر؟

انتفضت للاقتراح، مغضبة ثائرة، نظرت إليه بحيرة ويأس. يفتعل معارك وهمية، لم يتحرك أو يغير من برودة ملامحه... رماد سيجاره الغليظ متراكم متماسك على امتداد احتراقه... رماد معلق... وهو لا يحفل بشيء حوله، لا يحفل بنفض رماده، ولا بدعوة مبسمه إلى شفتيه... لم يراد منه أن يفعل ما لا يريد؟ ولم ترفض أن تمثله في حضور الدعوة... أليست قرينته وبمثابة نائبه؟ أليس في هذا مظهر رقي وتقدم وعلو شأن؟

حسناً قررت أخيراً أن تتنزّل عند رغبته، أن تذهب برفقة قديدير... ليكن ستذهب وليقل إنها رغبتها الخفية إذا شاء... هي فعلا بحاجة ماسّة إلى أن تغير الفضاء، والهواء، والحديث... أحياناً يخامرٍها إحساسُ حبيس... رغم أنها لا تشكو فعلا من تقلص الحركة، ولا مِنْ تحكم فيما تريد أن تفعله... إنما عنادُه وحده، وإصراره، يولد فيها العناد والمقاومة... إصراره على حبس غيره بحبس نفسه... وإقصاء العالم كله من حوله... وتحصين هنائه الخاص وعزلته الذاتية... حيث هو... هنا... حوله وفيه... كل ما يزيد من إحساسها بالحبس... بكيفية ما... ليكن، ستذهب... ستذهب مهما فكر أو خطر بباله... ستذهب مهما برّر وفسر... وليكن ما يكون...

تركته حيث هو يشهد تماسك الرماد على امتداد سيجاره... حيث هو على امتداد إصراره وعناده، على مدى حدته وعزلته... حيث هو...

ذهبتْ تعد نفسها للخروج، ستخرج وحدها... عليه أن يكتوي بعزلته، بنار فعله... ربما هي التي تكتوي بفعله وفعلها... ستذهب أيضاً بدونه ستذهب بدون مزاج رائق... بغُصة، تكتوي هي أيضاً وربما أكثر... عندما يختل ما يجب ألا يختل تضيع الفروق والقسمات بين الأشياء والمشاعر... من يكتوي بفعل الآخر بعلم أو بغير علم، بقصد أو بغيره... من المكتوي من نأمة جارحة وإشارة وعبارة؟ نأمة؟ إشارة؟ عبارة؟ الأمر أوضح وأفصح من كل ذلك...

شبكة عناد واعتراض تمتد بينهما بعراك يبدو بارداً أو صامتاً، لكنه ناطق وأفصح من كل فصيح... وحدتها طاغية في حضوره ووحدته في حضورها! قوة في داخلها، بقية قوة تدعوها إلى أن تقاوم مقاومة المرأة... مقاومة المرأة التي تحْذِقها وتعرف أثرها فيه لو أرادت... أن تسد عليه كل أبواب الهروب ومنافذه، هروبه إلى الأمام تعرفه فيه، ويمكنها أن تواجهه مواجهة القوة التي يملكها طبع امرأة... يمكنها ذلك، ما يزال في إمكانها، لكن إلى متى وبأي ثمن؟ هذا هو السؤال وهو الحيرة... إلى متى؟ وبأي ثمن؟

شارداً ظل أحمد رقيبة، مجمداً في موضعه، مات الدخان في سيجاره أو أنكتم في أنبوبه، كخواطر تتزاحم في الصدر يسابق بعضها بعضاً، فلا تجد مخرجاً ولا فُسحة... هكذا يبدو... هكذا يمكن أن تحس به، لكنه مهما كان، فهو ببروده المتعمد، نبرته وسلوكه معها، يخفف عن نفسه الكثير ويتخذها متنفساً لغُمّة هو صانعها وناسجها حولها وحول نفسه... بأي سلاح تقاوم؟ سلاح المرأة تود طرحه. يعز عليها أن تؤدي الثمن دائماً من ذاتها... أليس من حقها أن تعاند بمثل سلاحه ومن جنس استجابته؟ أيهما المكتوي وأيهما المستريح؟ من المكتوي حقاً من الآخر؟!

العيسي ثاني مكتو بنار الحدث بعد التوكاني... اعتزال حورية الغناء في السطيحة... بانتظار أنْ تضع مولودها... مولودها؟ وممن؟ ممن غيره؟! ممن غيرك يا الحرامي ولد الحرام... تعملها وتعمل أكثر منها يا نّكار الخير... غدار العشرة والطعام... يا... يا...!

لسان الحاجة يامنة الشيخة العتيدة... زوجة العيسي انطلقت بركاناً... جحيماً يقذف حممه على كيان العيسي، ممسكة خناقه بأظافر ملك الموت... قاذفة كل ما يحضر على طرف لسانها من سيل التهديد والوعيد... حبلى؟ ممن تحبل حورية ومع من... غير العيسي الإبليسي... غيرك يا إبليس؟.

تدخلت فريدة الابنة الكبرى للعيسي من زوجته، تدخلتْ تفك الاشتباك دون جدوى... ثم ما لبث كيان الحاجة أن تساقط لتنخرط في نحيب وتعاويذ... وانتقل وضع العيسي من ضحية إلى مُعْتَدْ... إنه المتسبب فيما حصل لها... من حقها فيما بعد، أن تُعذبه عذابها بطريقتها الخاصة...

حال أصبحتْ معتادة لكثرة ما خالطت عشرتهما منذ الشباب... أيام كانت الحاجة شيخة الصدارة في مجالس الطرب والرقص والغناء... كانت إلى ذلك ناراً ملتهبة من الشك والغيرة... حادة العين فسيحة الخيال في تأويل أية نظرة من العيسي لإحداهن... لكن الآن... في هذه السن... من يحتمل؟ من يملك القدرة على ذلك؟ الأولاد كبروا... وما شاء الله... والشيخة حجت وأقلعتْ بحكم السن والصحة عن نشاطها، ملتزمة ببيتها الآن، إلا ما كان من توجيه دعوة أو احتفال عائلي محدود وضروري... من يستطيع أن يحتمل الآن؟ ابنة تهدئ من روع والدها وتهون... لا بأس... الحاجة ستعود إلى وعيها... ورشدها... وكل شيء ينتهي إلى خير... كل شيء يمر كما يمر دائماً...

تعمل الفتاة جاهدة في اتجاهين، علاج حال الوالدة والرفق بالوالد... فعلا، أفاقت الحاجة... عاد إليها رشدها... الأولاد كلهم حولها... استغفرتْ ربها، دون أن تكف عيناها عن قدْح العيسي بنظرات نارية... لا يعني ذلك أنها لم تكن على حق... حدسُها الوفي لا يمكن أن يخطئ... لكن لا بأس... من أجل المحيطين بها... لا بأس... المهم... المهم منذ الآن أن بنتها... بنتهما هي التي ستصبح المطربة غناء ورقصاً... فريدة بنت أمها رضعت الفن خالصاً... ومنذ اليوم ستكون مغنية الفرقة بجانب العيسي والدها... ومنذ اليوم ستهيئ الحاجة ابنتها لما تريد... لا تحتاج للكثير من التمرين... بنت فنانة... وليختر العيسي ما يريد... يختار؟ وهل يعترض؟ هل من معترض؟.. عليها فقط أن تستغفر ربها... وتسير فيما قررتْ واختارت، لماذا تغفل عن ابنتها... لعله هو

العيسي بتحايله جعل فكرها ينصرف عن فريدة... والواقع، لم ينصرف فكرها أبداً عن فتاتها فنانتها فهي لم تر فيها أبداً إلا وريثة فنها، وريثتها في كل شيء... إنما لم تقرر لحظة البدء... ولا تدري لماذا كانت تؤجل... القرار واضح صريح: فريدة رفيقة العيسي في فرقته حيثما كان ذلك...

لم ينبس الرجل أمام حال الحاجة يامنة وبين أولاده، لا أحد كان يقدر أن ينبس بشيء... المهم سلامتها... المهم صحتها وكل ما عدا ذلك يهون... وبدا العيسي مقطباً ساهماً مكتوياً بناره وحده، لا من يشارك ولا من يعاني مثله... مكتوياً... بناره وحده...

آه، أيهم المكتوي وأيهم المستريح في علاقة تختل... كيف تخرج إذن؟

ظل رقيبة جامداً في وحدته، وذهبت تستعد للخروج. بعد ساعة... تراءت أمامه من جديد... من جديد تتحرك هذه المرة، بلا مبالاة، نثرت حوله بحركتها رماد السيجار المنطفئ بين أصابعه... ماذا؟ عادت بهذه السرعة؟ لا، لم تذهب أصلا، أصلاً، لنْ تذهب ولم تعد راغبة في شيء، هل ينعشه ذلك؟ يغذي كبرياءهُ... يدغدغ غروره وأنانيته؟

نظر إليها مقطباً، لماذا تهاجمه؟ إذا كانت لم تذهب فهذا شأنها... ربما هو الذي كان يجب أن يتساءل ويستنكر سبب إحجامها... أو رجوعها... لكنه لم ولن يفعل... لا يهمه شيء... فلماذا تفتعل معركة... وتهاجمه؟

قالت إنها فضلت ألا تستجيب للدعوة مثله... حتى لا يقول في عناده، إنها رغبتها الدفينة الخفية في أن تذهب بدونه... وفي أنها كانت فعلا تخطط للذهاب بدونه... وفي أنها.. الا يهمها بعد الآن، ما يقوله، فقد ارتأت ألا تذهب ولن تشرح له... لن تبرر لأحد ولا حتى لنفسها.

حسناً، تناول سيجاراً جديداً يُداعبه تمهيداً لإشعاله... كان بادي الارتياح لوجودها إلى جانبه... مهما تقل أو تعتقد، فهو بوجودها مستغن عن

كل شيء... بها وحدها يسيطر على وحدته يتمتع بوحدته... بها يمتلئ كونه بكل ما يريد ويشتهي...

لم تكن موافقة ولا مقتنعة... بل تريد أن تقول له، إنه واهم في رأيه، يحاول أن يوهمها بحبه... عناده لا يدل على حب أو عشرة أو حتى مراعاة... أيقظته لهجتها الحادة العدائية... استفاق فعلا، تتحدث عن حبه لها، ماذا قدمت من حبها له؟! لا، لا، ليقل إنها لم تحبه أصلا... ولم يكن من حب من جانبها تجاهه أصلا... لا حب... ولا مودة ولا حتى شفقة أو رثاء! هل كان ليقبل منها شفقة أو رثاء؟ ربما، نعم... لم لا؟ ربما لا... لكن لم يكن ثم شيء... أي شيء عدا...

تساءلت ماذا يعني؟ ماذا كان إذن من جانبها تجاهه... حسب رأيه طبعاً؟ ماذا كان إذا لم يحس من جانبها بشيء تجاهه طوال هذه المدة؟ إذن لم يحس حتى بما كان في بدايتهما؟ ماذا كان إذن؟

كانت تبدو كمن يجاهد في ابتلاع أنفاسه... تؤكد أسئلتها ببرود متعهد، وصرير مكتوم، وصدر يغلي... تكاد تسمع جريان الدم في عروقها سمعاً، وشدة النبض... تغلي كانت...

لا شيء، يؤكد لها، لا شيء كان، مما يجب أن يكون، ولم يكن أبداً واهماً في ذلك... ولا يتوهم الآن... ماذا يمكنها أن تحب فيه وفي مثله... جماله؟ شبابه؟ طبعاً، لا... ولا، طبعاً، إذن رأت شيئاً آخر... يعرف أنه ألحَّ عليها وتابعها، وبالغ في كل ذلك... حتى ارتضت أخيراً... اقتنعت بأن تقترن به... لا حب، لا مودة أصلا من جانبها... لن يكذب على نفسه أو عليها... ! لن يجامل أو يتحايل على أفكاره، فهو كان واضحاً مع نفسه منذ البداية لم يكن إلا سعيداً بها...

تنمرت في موقفها... اعترتها تلك الرعشة التي بدأت تألفُها في نفسها... إنه يحقرها كما لم يحصل من قبل أبداً... يريد أن يقول إنها مالت إليه من أجل ماله... وثروته... فقط، لا غير؟! يجرؤ على ذلك؟ كأنما لم يكن قبله وبعده ذوو مالَ وثروة يلاحقونها... يحقرها تحقيراً...

رنا إليها مستنكراً بكاءها وثورتها... لكنها لم تزدد إلا إمعاناً في حالها... قالت إنها الآن بالذات لا تبكي عن ضعف، أو شعور بالغبن، لا، بكل بساطة... دموع بلا معنى، قالت إن عليه أن يهدأ ويرتاح، فهذه دموع من نوع آخر، بلا جرح ولا ألم... دموع بلا معنى ولا مضمون... دموع؟! قطرات تائهة في بيداء لا تفيد في شيء، لا تحيي ولا تميت، ليهدأ وليرتح...

لا هداياه المألوفة، لا استصغاراته واسترضاءاته، لا شروحه وتوباته تفيد بعد الآن... قالت إنها كانت تدلله، وتذل نفسها لكبريائه، وفاء على الأقل لما اعتبرته نبلا وكرماً فيه... ظهر لها برهة في حلل المنقذ، والمُخْلص المخلِّص لها من حالها... بدا شَهْماً، ذا مروءة غيوراً على حالها ذاك.. حال لم يرضه لها كما فهمتْ، أو كما جعلها تفهم ذلك على الأقل في حينه... صورته تلك ظلت عالقة في ذهنها... ظلت ساكنة فيها... تَسْتَعيدها معه... الآن يبدو كل شيء وهماً... وهْماً كان... ووهماً يظل... تحطمت الصورة... صورة المنقذ المتبتل الذي ترك من أجلها كل شيء... لأنّه وجد فيها كل شيء... عندما كانت تذكره بأسرته وبوضْعه الذي لا يلائم علاقتها، كان يقول إنها كل شيء بالنسبة إليه، وأمرها، هو أمره في الحياة... قال أكثر من ذلك في ليلة ليلاء، بعد أن استعصت على اقتراحه... قال تلك الليلة إن امتناعها سيؤدي إلى نتيجة واحدة مؤكدة، واحدة من اثنتين: ثانيتهما هي أن يرتبط بأية بنت ليل أو نهار يصادفها في طريقه، فيخسر بذلك نفسه قبل أن يخسرها... إنها طريقة انتحاره بنحو ما... لكنه مؤكد... أما أولى النتيجتين فهي أن يقتل حورية! يقْتُلها هي

حورية النسيمي... هي رقية... رقية أمرباط أو حورية النسيمي أو ما شاءت من الأسماء والألقاب... نعم، وأولاً، يقتلها هي بلحمها وعظمها وبما يحب فيها... يقتلها ولا يحتمل أن يراها مستمرة في السطيحة أو في غيرها... قال إنه يصنع توبتهما معاً، ويبدآن طريقاً جديداً... يخلقان معاً من جديد، بعلاقة زواج! وقال أيضاً إن لها الخيار إن صح أنه خيار حقاً: أن يستمرا في علاقة بدون زواج إذا فضلت... لكن معه وله وحده؟.. الآن ينكشف الرجل عن رجل كباقي الرجال... لم تعد حورية خلاصة حياته... فوراء العناد... وراء الحال كله، توْق وعشق لشيء آخر يتشكل... لكنه على كل حال، ليس حورية الحياة، ولا خلاصتها التي كانت... الصورة تحطمتْ... أسفر المشهد عن فارس على قصبة يشهر سيفاً من خشب! أسفر الليل عن صبح باهت بسماء غائمة لا ماطرة ولا عقيم... أسفر النوم بحمله الممتع الطويل عن حطام وهشيم، والمرآة الصورة والخواطر، لا تعكس إلا شائهاً ونافراً.. ماذا؟ أإلى هذا الحد ضلال؟!

26

مرة أخرى تتعلق الأسماء والأنظار بالرحمونية ودارها، ليلة إطعام وذكر ودعاء، جمعت إليها الأحبة والجيران، مستعدة لموكب القاصد هذه المرة، موكب الحج... ليلة الخرجة عرس آخر، يضاف إلى ليلة زفافها مع التبعي، ظهرت الرحمونية ليلتها هذه مرتدية جلابة بيضاء... وكل ما عليها بياض من أخمص القدم إلى قمة الرأس، عدا عصابة خضراء تحتضن رأسها على عرض الجبهة...

ليلة ساهرة عامرة، ظلت طوالها سيارة تاكسي كبير رابضةً أمام الدار، تزينها أشرطة البهجة، في انتظار إقلاع ضحى الغد بموكب حجاجها: الرحمونية وزوجها التبعي وبعض البنات من حاشيتها... أصبح اليوم، على هدوء يعم الدار، كعادة ما يعقب هرج الأفراح من هدوء الصباح وسكونه، التاكسي الكبير مازال رابضاً محاطاً بأشرطته الملونة، كأنه رزمة بريدية تهيأ للإرسال، وداخله يقبع صاحبه الذي اتخذه مسكناً مؤقتاً له، قضى به حصة نوم ما يزال أثرها كسلا في كيانه، بعدما أمضى الليلة في الدار مع الساهرين المحتفلين.

داخل الدار، حركة بسيطة هادئة كانت تجري، فكل شيء معد سلفاً، والحاجة الرحمونية في مشهد ما كانت عليه البارحة، كأنها تصبح كما باتت في لباسها من البياض الشامل؛ بعض الفتيات في مثل لباسها يتحركن هنا وهناك لتفقد أو ترتيب، الصبية بشرى بدورها بدت مشرقة وأكثر اكتنازاً بوجهها البدري المحاط ببرقع البياض... تخطر في تحتية بيضاء ومشاية وجوارب باللون نفسه، نشيطة كدأبها وأكثر من نشيطة بما هي فيه وما حولها من تغيير.

بهيجة وحدها، يتنازعها شعور ما بين التهيب والتوجس، أقبلت صباح اليوم لوداع أمها الحاجة الرحمونية، ولتطمئن عليها في طريقها إلى الحج... تهيب وتوجس عهدته الفتاة في نفسها منذ ما تغير من حال أمها الرحمونية ورفيقاتها... ظلت الفتاة قابعة في مجلس على حافة السداري قرب باب الغرفة الموارب، ترمق ما يجري من حركة وتتابع بعين الغربة ما ترى، وكأنها بذلك تجعل نفسها أقرب إلى حال المغادرة... مع ذلك، في أعماقها كانت تحس بأن ما بينها وبين الدار لا يمكن أن ينقطع بسهولة، ما بينها وبين أمها الرحمونية، هو ما قالته لرفيقاتها ممن أخذن سبيل الرحمونية الجديد... إنّه حقها، نصيبها في أمومة الرحمونية التي هي أمهن جميعاً، الرفيقات أخذن عليها أنها لم تسر معهن في الطريق الجديد...

ـ الله يعاونكم... أنا باقية على حالي حتى يتوب الله!

شرحت لهن بوضوح أنها ما تزال راغبة في مطامع الدنيا ومطامحها، أكدت أن شبابها وجمالها وذكاءها، ما زالت قوية للدفع بها نحو حطام الدنيا الفانية كما يسمينها، فلها ما اختارت ولهن ما اخترن... والرحمونية أم الجميع...

غادرت بهيجة إذ ذاك دار الرحمونية، مستقلة في حركتها ومسكنها وظلت تحافظ على الصلة مع الدار، كلما هبت مناسبة...

مرت بشرى بالقرب من بهيجة في جلستها، فمدت إليها يدها وجذبتها إليها تضمها، وتسوي حوافي البرقع حول محياها البدري المشرق:

ـ الله الله عليك... كل شيء يواتيك... الصلاة على النبي... عليك!

كررت بهيجة ذلك مراراً، وهي تقبل وجنتي الفتاة، وتمرز يدها على كامل كتفيْها، ونظرتها على كامل كيانها... وبدت بشرى سعيدة بلطف أختها بهيجة، مستجيبة بارتياح لمداعباتها، ثم انفلتت بسرعة لتعود بصينية القهوة إلى بهيجة، لتنفلت ثانية لشؤونها.

صبت بهيجة لنفسها بعض القهوة... ما يزال في داخلها شعور التهيب والتوجس، وسؤال يملؤها، لمَ تصرّ على زيارة الدار بعدما حصل؟ حقها، نصيبها في الأمومة، أم عناد ومعاكسة؟

تذكر الأيام الأولى لما حدث، أصبحت لتجد انقلاباً في الدار... أمها الرحمونية، الكل التحف البياض، الكل يدعوها لذلك... أصابع كانت إلى لحظة تحمل أنامل صبغت أظفارها الطويلة جلناراً، فإذا هي نقية نظيفة منعدمة البروز، تشير إلى حالها مستفهمة مستنكرة... ووجوه كانت إلى لحظة قريبة، طافحة بمظاهر الزينة وألوانها، تبرز الآن من خلال برقع يضفي عليها صفاء بارداً، لا تدري بهيجة أين كان مخبأ أو مكنوناً... ولا تطيقه. أصوات رفيقاتها ترغّب وترهب أثناء كل زيارة وتكرر:

ـ مازال العالي ما تاب؟

تنظر بهيجة في ابتسام ولا مبالاة، مطيلة تأملها في مشهد ما ترى من رفيقتها:

ـ مازال الوقت..!

وتقترب منها الرفيقة، لا يجوز انتظار وقت، كل الأوقات مناسبة، هذا الموعد... موعد مفتوح بلا إذن ولا انتظار...

وتحكي الصديقة كيف كان هذا الموعد فال خير، وفاتحة سعادة عليها، بسرعة أقبل عليها خاطب جدي، وهما على موعد زواج بمجرد الرجوع من الحج...

ـ زواج؟ الله يكمل بالخير.

وتفصح بهيجة عما في قلبها نحو الزواج... الآن بالنسبة لها وحتى في المنظور البعيد، لا تفكر بهيجة في الزواج، زواج؟ إنه يعني سجن كل ما وهبتها الطبيعة من شباب وجمال! ولماذا تسرع بدفن نفسها حية وفي عز شبابها... إنها عندما يحين الوقت المناسب، إذا كان ذلك ضرورياً، فستكون مثل أمها الرحمونية... بعد انتهاء الشباب وحماقاته... هذا ما تراه... مثل أمها الرحمونية، أما قبل ذلك فلا تحتمل هذا اللباس، ولا تحتمل أن ترى نفسها عاطلة مما ألفت من نفسها...

وتمعن الرفيقة في ذكر حلم أمها الرحمونية، تشير بالأصبع إلى ملامح بهيجة وتبرجها... صورة حلم أمها الرحمونية عن عذاب المتبرجات له ألف معنى لمن يفهم... أما اللباس...

وتشير الصديقة إلى الجلابة المنمقة التي ترتديها بهيجة، لولا بهرجة اللون، لكانت مثل أي لباس محتشم. فقط، كل ما يلزم، هو إطفاء هذه الألوان الصاخبة على الوجه والشعر واللباس...

حينئذ تنتفض بهيجة، تنضو عنها جلابتها لتبدو في لباس ضيق قصير متماسك ممسك بحوافي كيانها... عناداً كان من بهيجة له معناه، تحدياً كان منها، لم تملك الصديقات جميعاً إلا أن يتركنها لحالها، تأتي كلما أرادت، تأخذ نصيبها من أمومة من حنتْ عليها واحتضنتها... أمها الرحمونية.

لم تلبث الرحمونية أن أقبلت، قامت إليها بهيجة تقبلها، احتضنتها المرأة بحنو، والفتاة تلهج باسمها:

ـ أمي الحاجة... ادعي لي... ادعي معايا... أمي الحاجة...

جلست الرحمونية بجانب بهيجة ويدها على كتفها، كانت تنظر إلى وجهها وكيانها كأنّها تقرأ حالها من ملامحها، وأقبلت بشرى تصب القهوة لأمها، وسرعان ما أشارت إليها الرحمونية وهي تخاطب بهيجة:

ـ هذي أمانة في عنقك حتى نرجع إن شاء الله!

وأكدت أن بشرى منها بمقام البصر والقلب والروح جميعاً، وهي تتركها في يد بهيجة بعد يد الله، وطفقت المرأة توصي بهيجة بالصغيرة بشرى وتعيد التأكيد، وبهيجة تطمئنها:

ـ بشرى أختي الصغيرة وأعز علي من نفسي...

وبدا الاستبشار على وجه الرحمونية، وطفقت تسأل بهيجة عن أحوالها وهي تشدها، وتنشر على ركبتيها العاريتين فوطة الصينية، محتضنة لها في حنو عارم.

ولم تمض لحظة حتى أحاطت الفتيات بالباب، واقفات بغبطة يتأملن المشهد، تنفرط منهن بشرى لتنضم إلى أمها وأختها بهيجة، محتضنة لهما معاً...

كان الضحى يقترب، وميعاد الرحيل يتقدم، وأطلت معه عيون واشرأبت أعناق، وبدت أبواب تشرع لتقف على عتباتها وبجوانبها نسوة ورجال، في انتظار لحظة إقلاع الموكب.

صاحب التاكسي، بعد نومة قصيرة أدفأتها شمس متسربة إلى داخل السيارة، استفاق تماماً، بحركة ما حوله، وبحس الانتظار، وكأنما أدرك أهمية ما يجري، فبادر يساهم بدوره، بما يدفع عنه كل تقصير في اللحظة المناسبة، لذلك أدار المحرك أكثر من مرة، متيحاً له أن يسخن ويستعد.

في خضم ذلك كان التبعي يتحرك بحمية، يظهر بين الحين والآخر، ليختفي هنا أو هناك، ثم سرعان ما نادى سائق التاكسي ليساعده، وبدآ يتعاونان على إرساء حقائب وأمتعة مرزومة، على سطح السيارة المسيج، ويربطانها بقضبانه...

كل شيء جاهز، وسرعان ما بدتْ طلائع الموكب على العتبة: فتاتان في بياض كامل لا تغشاه إلا عصابة خضراء على الجبهة، تبعتهما أو على الأصح كانت تصحبهما بشرى الصغيرة، وبهيجة بلباسها الضيق القصير وكامل زينتها، وانطلقت زغرودة من جمع بدأ يقترب نحو باب الدار، بينما انهمكت الفتيات في عناق وداع، تمازجت فيه الدموع وشهقات الدعاء، ولم تمض برهة حتى أخذت الفتاتان الحاجتان مكانيهما في المقعد الخلفي للسيارة، وأغلق عليهما السائق الباب، وظل واقفاً بجانب باب القيادة مستعدّاً للانطلاق أو المساعدة.

ظلت بهيجة مسمرة عند حائط الباب، تمسح دموعها، محملقة في رفيقتيها داخل السيارة، ويدها تمسك بيد الصغيرة بشرى التي كانت في الحال نفسه من التأثر، تمسح دموعها حيناً بعد آخر، بطرف كم ثوبها المنسدل الطويل.

وأطلت الحاجة الرحمونية في خطوها المتئد وقامتها الفارعة، وقد زادها إشراق الوجه في البرقع المحيط الأبيض جلالا، وأسرع حولها الكثير يودعون ويتبركون، وهي ترد على تحيتهم وتبادلهم الدعاء معانقة جاراتها وقريباتها من المعارف، ثم أخذت مكانها جنب بنتيها في المقعد الخلفي، وقد تعالت الزغاريد متداخلة من كل جانب.

ومضت لحظة، قبل أن يظهر آخر من تبقى في الدار، التبعي يخرج، ويغلق باب الدار بالمفتاح، ويرمي بكرز كان يحمله بيده إلى سقف السيارة جنب المتاع، ثم يدلف إلى داخل السيارة جنب السائق، مرسلا نظرة اطمئنان إلى زوجته الرحمونية والفتاتين خلفه، ثم يعطي إشارة الانطلاق، يتحرك الموكب بين الهتاف والزغاريد...

27

استفاقت من غفوتها الصباحية، نبّهتْها جميلة إلى حالها بملامسة خفيفة، وهي تتعمد الوقوف إلى جانبها على إفريز الشرفة، يمتد البحر كتلة رصاصية هامدة لا محدودة من إشراف المنزل من على ربوة أنفا، لم يكن أول تنبيه من جميلة... بل كان إلحاحاً لإخراج حورية من حالها... عزلة وشرود وعزوف عن الحديث... ماذا حل وماذا حصل؟ انتهتْ الدنيا أم توقفت الحياة؟ منذ أيام لم تفلح محاولات جميلة في اختراق حاجز صمت عميق حول حورية؟ أكانت تحبُّ رقيبة إلى هذا الحد؟ تنكر حورية وتستنكر وتثور، لا، لا، ألف لا... لم تكن يوماً واهمة في علاقتهما... لكنها كانت متأكدة من حبه لها... حد الموت... حتى الموت... ألم يكرر لها مراراً قبل اقترانهما... قبيل... وفي مرحلة الإلحاح والتعارف، أنه لابد مرتكب جريمة قتل في حقه أو في حقها بطريقة ما... إن لم... وكانت عيناه تقدحان يقيناً... بل كان يرتعش بطريقة أضحكتها... ماذا أحب فيها؟ ما يحب الرجال فيمن يحبون... لكنه أحب بالذات طريقتها في النظرة إلى الحياة... جنونها بالمرح... قال مراراً إنّه عاش حياته محروماً إلا من

أعباء وتكاليف، لم يعرف بسمة ولا إشراقاً أو مرحاً قط..! لم تكن واهمة، فهو لم يحب فيها رفيقة العمر، ولا ربة الأسرة وأم الأولاد رغم زواجهما... إنما أحبّ فيها صخرة الأمان لطوافه وأغنية الحياة لشعوره بالشقاء، وفراشه الزهور ينظر من خلالها الكون... ألم يلق إليها حبال تغييره... تحويل كل ذرة في حياته..؟! ألم يقل مراراً إنه يولد من جديد... يريد أن يولد على يديها من جديد، وبإرادة منه؟.. يود أن يولد كل لحظة، معها، ويتكرر الميلاد بقدر ما تسعه أوْ لا تسعه قدرة البشر... يريد أن ينسى... أن يعوض... وأن يمرح ويفرح بقدر ما تألم وعانى وشفي... أكثر، أكثر، وأكثر... ومن كل كثير...

متحسرة؟ كئيبة؟ لا هذا ولا ذاك... إنها جامدة متوقفة تستحْلي أن تراجع على مهل صفحات حياتها... فقط... لا غير...ترفض بالحركة والإشارة دعوة جميلة لها إلى أن تتفسح... تتفرج وتنسى... ترفض أن تتجاوب مع ترديدها لأغنية حال مفتعلة:

ـ أنا بغْدا، حاضية البحر ليرحل..!

تنهر اللمز المتضمن، والدعوة الفجة للانطلاق، لانطلاق فج كما تدعو إليه جميلة، لا، أبداً، لا هي كئيبة ولا حزينة، ولا في حاجة لمن يدعوها لشيء.

تقف جميلة موقف الاحتجاج... غاضبة فعلا... ليست هي بالتي تنهر، ولا بمن يوقفها الانتهاز عن شيء تريده، لاسيما إذا كان يمس حورية... ليست خادمة... ولا مربية أطفال أجنبية. ليست غريبة عن شيء مهما كان في نفس حورية أو ما حولها... لن يثنيها أن تنهرها، ولن تسكت أو تكف، ما ماتت امرأة على رجل من أجله، ولا رجل من أجل امرأة... ما مات أحد منهما على الآخر... حزناً وغمّاً وكمداً! والآن. الآن. الآن. ما تراه لا يُعقل ولا يُحتمل، إما أن تعود حورية لانطلاقها، وإلا فلا بقاء لجميلة هنا... منذ الآن... وبكل

جد وغضب، كانت واضحة النبرة، صريحة الملامح، صادقة الوعيد، باكية منتحبة...

التفتتْ إليها حورية... حمقاء... وضمتْها إليها... لا تخافي علّي... لابأس علّي... حورية دائماً بخير.

شهقت جميلة بدموعها على صدر صاحبتها كطفلة غريرة تلتقط عبارة الصفح من والدة حاضنة!

جلستا معاً في الشرفة، بهدوء متقابلتين على مقعدين قصبيين، إلى الطاولة الصغيرة المستديرة، ذات السطح الزجاجي، ركزت حورية محدقة في ملامح جميلة... لكم تحبها، تجمع فيها سرائر الأم والأخت والصديقة والراعية الأمينة، ركزت فيها حورية تريد أن تبلغها ما وصلتْ إليه من قرار في عزلتها وصمتها، لا، لن تنتهي الحياة... أبداً، بالنسبة لها، لن تنتهي الحياة، ولا الوجود؛ فالدم فوار ما يزال في عروقها ونبض قلبها، لكنها تريد صفحة جديدة ترسم خطوطها بعناية ودقة صفحة تشكلها على مهل، كما حاولت دائما وتمنتْ، تريد أن ترسم مسارها... وحدها... وهذه المرة لن تترك لأحد فرصة التدخل، لأي كان في أية مرحلة، لن تتهاون وهي الأقدر، لن تترك لذكر أو أنثى فرصة التأثير مهما كان... ما تفعله منذ الآن، تنتقيه وتختاره بنفسها اختياراً... لأنها أرادتْه أو تريده، لا لأي سبب آخر، مهما كان... حياتها منذ الآن لها، ولن تغير شيئاً، مهما كان من أجل أحد، مهما كان أيضاً... خريطة عالمها منذ الآن، مثلث محدّد ومحدود؛ لها أن تملأه كيفما تشاء: رضى، جميلة، حورية... ولا شيء آخر... لا شيء سوى الله... لا شيء بتاتاً سوى ذلك!

والآن لابد من بعض الزمان، لابد من نسيان، ومؤقتاً يمكن الانتقال إلى شقة العنق القديمة... فهي ما زالت رهن الإشارة... مازالت كما كانت. لم لا؟

يحفزها حنين إلى هناك ولابد لها أن تسترد أنفاسها.

فوجئت جميلة بالقرار، تساءلت عن السبب في استنكار، وكأنما تصورت أن حورية ستتخلى عن كل شيء آل إليها عن حق من جانب زوجها... بتراض واختيار، لتعود إلى حال البداية، وتستبدل بفساحة مشهد البحر العريض المباشر، شبه إطلالة جانبية لا كاملة ولا مباشرة من نافذة جانبية بالشقة المحدودة تلك... لا، لا، ابتسمت حورية ابتسامة خافتة باهتة. لا يمكن، مستحيل، رضى قبل كل شيء، أو على الأقل، لا يسمح بذلك... انتقال مؤقت يساعد على النّسيان والتدبر. لابد لها من أخذ نفس، واسترجاع أنفاس...

انطلقت أسارير جميلة، وقامت تشد حورية، توقفها وتجر تثاقُلها بجهد خلفها... تعالي... تعالي... ومضت بها، تجرها ولسانها لا يكف عن تشجيعها، وتهيئتها لما ستشهد. ترددت حورية، وجميلة تقُودها نحو غرفة النّوم... لا تخافي... تعالي... ادخلي... ودفعتها دفعاً لتقف حورية مبهورة أمام ما حصل... كل شيء تغير، كأن الغرفة وُجدت لها وحدها أصلاً... ومنذ أصل الأصل..! التفتت متعجبة متسائلة، الأمر بسيط، جميلة ورضى قاما بالتغيير اللازم في الأثاث والفراش، حتى لا يبقى شيء يذكر بالماضي القريب... والباقي ساعد عليه قديدير نفسه... هو أيضاً له مصلحة في ذلك لأجل صاحبه على الأقل... كل هذا في طرفة عين... أيام معدودات انزوت فيها حورية... معتكفة على نفسها... مفكرة في أمرها... الأهم من ذلك، ما لحق الصالات ومجلس المسبح واستراحة الحديقة، لم تبق إلا الجدران والفضاء على حالها... لا، هي أيضاً لم تعد على حالها... حالا كانت مما يجري فيها... أما الآن فكل شيء يكتسب لوناً ما، لوناً لم يُتبين بعد، لكنه مخالف لما كان... لكل ما كان...

كانتا تخطوان مبتعدتين عن حوض المسبح في ممرات العشب، حين تناهى صوت بوق سيارة بالخارج، معلناً قدوم رضى من مدرسته... أسرعت جميلة

معلنة أنها ستأتي به... مؤكدة على صاحبتها ألا تقطع فسحتها القصيرة...

فعلا، تبدو زاوية رضى تتضخم على حساب خارطة المثلث كله... إن لم يكن الآن بالضبط... فبعد الآن... وقبل الآن... والى الأبد. وبدت حورية في لحظتها منتعشة بعض انتعاش، بخواطرها حول رضى... أكثر انتعاشاً من أية لحظة أخرى أو صورة... منذ انقطاع عشرة رقيبة...

تأملت فتاها وهو يقل نحوها منشرحاً، فاتحاً ذراعية، وقد أخت عنه جميلة حمولته المدرسية، بدا لها فارع القامة... بقامة رجل منذ الآن، بكفاءة رجل، أحاطها بذراعيه، فانحنت عليه تشمه وتحنو عليه... تضمه... لا شيء... لا شيء له قيمة رضى... كلا، ولا حورية نفسها، أفكارها تتزاحم في الرأس والصدر والحلق... يتداخل فيها حزن الفرح وفرح الحزن... جميلة تتأمل المشهد عن قرب، ثم تقبل تفك بلطف اشتباك المتعانقْين... مهلا... مهلا، لستما عائدين من سفر أو مقبلين على فراق..، حقّاً، ليس أحسن من السفر الآن؟! سفرة قصيرة تنسي وتغير الأجواء... لم لا؟ لكن مدرسة رضى بالمرصاد... ولا يجوز التفريط في شيء مما يعنيه... سفرة خير من فكرة التغيير بشقة العنق، لولا مدرسة رضى... آه...

أمسكت جميلة عن فكرة السفر بعد أن أوشكت أن تبوح بها، كبتتها واكتفت بأن ربتت على كل من رضى وأمه... تشاركهما الموقف... ثم تجذب إليها الفتى بحركة خفيفة، تدعوه إلى الدخول، تاركة صاحبتها في نزهة الحديقة، ومؤكدة عليها في ذلك بابتسامة عريضة...

أمن حقها أن تحزن لحظة من تكون أم رضى؟! ألا تكون أسعد امرأة به وبنفسها؟ أمن حقها أن تحزن من يكون لها رضى؟! أمن حق الحزن أن يخترق ويتسلل؟ لا، أبداً لن يكون... أتكون وحيدة وهي به ومعه؟ كذلك ظلت

حورية تتساءل منتعشة، وهي تتابع جميلة تبتعد بفتاها نحو الداخل... تتساءل وهي تجد في نفْسها قدرة جديدة للمواجهة والتجاوز، وكأنها تفاجأ بها. وماذا بعد؟ إنها في صميمها لو خيرتْ في كل الأوقات والظروف، لما اختارت غير ما هي فيه الآن. لحظة من حياتها كانت منعرجاً لا يدعو للندم، وهي تعود كما كانت، حورية النسيمي... أحسن وارفع مما كانت وآمن... لو أعادت العمر من جديد لما فعلتْ غير ما فعلت وتفعل... هي هي حورية النسيمي من أرادها فقد أراد، ومن لا، فألف لا، ولا... هي هي حورية النّسيمي بنت نفسها في كل لحظة، هي هي... شقيقة نفسها في كل ظرف... هي هي... دائماً... أبداً هي...

28

طرقتْ سليمة وأعادت، نحيب عزيز، زفراته تتناهى إليها من الداخل... أعادتْ طرق الباب... يرفض أن يجيب أو يفتح أو يأكل... آنية الغداء ما تزال عند باب غرفته الموصد، تحوم حولها قطة تتمسح...

منذ منتصف النّهار... خرج وعاد عودة سريعة مرتعبة، صعد دون أن يكلم أحداً، وأغلق على نفسه... لم يستجب لنداء أو رجاء...

بهلع بالغ، ظلتْ سليمة تعاود الصعود إليه، تطرق الباب أحياناً... وأحياناً أخرى تكتفي بالتصنت على أنفاسه المترددة أو تنهداته... لتعلم على الأقل أنه ما يزال حيّاً... أنّه لم يرتكب حماقة ما في نفسه... وفي نفسها أيضاً، بل في نفسها أولا فيما لو جرى له من نفسه شيء.

سميرة بدورها حملت آنية الأكل وقت الغداء، واضطرت لتركها عند الباب...

تعاود سليمة الطرق، تتصنّت ولا مستجيب... لكنها تلتقط بسمع حاد، صدى زفرات تتردد من الداخل واضحة قوية... تيأس من وضعها، تدور عائدة

أدراجها... ترمي قدمها في ضيق باتجاه القطة المحوِّمة المتمسحة بآنية الطعام، دون أن تصيبها أو تزعجها... تنزل الدرجات في تثاقل نحو السفلي... حيث تجتر أحزانها...

أمس فقط، ومنذ المساء، أشرق خاطرها... بارقة قلما تحصل لها، حضر قديدير مدير أشغال زوجها وحساباته... حضر كما طالما كان يحضر، وسلمها المصروف المعتاد... المعتاد كان يكفيها ويزيد... ولولا طلبات عزيز واستهتاره، لما أنفقت أكثر من نصف أو ثلث ما يصلها من زوجها بانتظام... على كل حال، لم تطلب أبداً بزيادة ولا ناقشت أي مبلغ... في البداية تساءلتْ كثيراً، لو لم يواظب رقيبة على إرسال المصروف المعتاد إليها... ماذا كانت تفعل؟.. لم تكن مترددة في الموقف لو حدث... كانت ستقوم بكل شيء، إلا أن تطالبه بشيء أو تثير ضجة! وتصورتْ أنها يمكن أن تُصبح شغالة، أو خادمة في البيوت إذا اقتضى الحال... ماذا تفعل إذ ذاك، لو جاء يخرجها من المسكن أو يطلقها بالمرة..؟ ماذا تفعل؟ لم تكن مترددة... فهي مستعدة لمصيرها... لكن شيئاً من ذلك لم يحدث... وما حصل هو ما حصل... أحمد رقيبة ذهب لمصيره الذي اختاره لنفسه، وتركها لمصيرها والأولاد... مكتفياً برسول النفقات الشهرية، ومناسبات الأعياد... ليكن ما يكون، فهي قد اعتادت كل شيء... والمعتاد يكفيها ويزيد عن حاجتها..

بيد أن قديدير لم يسلمها المبلغ وينصرف كعادته، غير محتمل أن يتناول الشاي حسرة على ما يراه من غياب رب البيت..! مشهد وقول واظب الرجل على تجسيده طوال السنوات الماضية، حتى أصبح موقفه جزءاً من المعتاد.

تساءلت في البداية وظلت تتساءل: أهو متعاطف معها إلى هذا الحد، أم أن الدور يقتضي منه ذلك؟ وما يستفيد من هذا المشهد؟.. على كل حال، لم

تشعر يوماً بأنّها في حاجة إلى تعزية أو تقوية عزيمة من أحد... مشاعرها في هذا الموضوع قد تكون باتجاه آخر...

هذه المرة، ظل قديدير منتظراً مبتسماً متحفزاً، لالتقاط أية إشارة ضيافة مهما كانت مجاملة... لاحظت سليمة تردده، لكنها لم تعبأ... ولم يلبث قديدير أن جلس من ذاته، بعد أن لم يظفر ببغيته... تساءل وهو يجلس إن كان باستطاعته أن يتناول الشاي!؟ نظرت إليه ببعض التعجب، لكنها رحبت به، واتّجهت لإعداد الشاي، حين اتسعت ابتسامته، وهو يرجوها ألا تتعب نفسها... إنما... هو...

وتحس المرأة في أعماقها أن وراءه شيئاً يريد أن ينقله إليها... طبعاً خير... خير وكل الخير... نبأ مفرح على كل حال... ليس نبأ بالمعنى الحقيقي، هو إشارة هامة يريد أن يبلغها لها...

تساءلت متوجهة مباشرة إلى الموضوع:

ـ قل؟

كل الخير، ويذكر لها أن الفرج قريب، ربما أقرب مما يتصور أي واحد، بما فيهم هو ذاته، أحمد رقيبة في أحسن حال، لكنه ليس على ما يرام مع تلك المرأة... الأمر بينهما ليس كالسابق، وهل يخفى على قديدير ذلك؟ كانا يختلفان في السابق، ويعودان لبعضهما... لكن الحال اليوم، كما يدركها، تدل على أمر جديد، وأحمد رقيبة سيعود إلى بيته وأسرته قريباً... أحواله تقول ذلك، ولا يمكن لقديدير أن يخطئ في ذلك... بشارة يضيق بها قلبه، ولا يملك إلا أن يزفها حارة خالصة لمن يستحقها... أحمد رقيبة الآن ملء سمعه نداء العودة... يحس قديدير بذلك في عيني صاحبه وحركاته، ملء قلبه الآن نداء الأسرة... نداء الدرب والجيرة... بعد كل التجوال وما شاء الله من ذلك، كل ذلك...

والآن ها هو ذا قد بلّغ ما عنده.... خير كل الخير... ثم هي لم تفتح الغلاف بعد، ولم تعد المصروف... المبلغ مضاعف عدة مرات... وذلك بأمر من رقيبة نفسه... ألا يكون ذلك مؤشراً آخر؟! ها هو ذا قديدير مرتاح البال والضمير، يبلغ كل ما عنده... كله خير... كله كان أماناً تتحقق...

ظلت تتابع أفكار قديدير بعد ذهابه... منذ مساء أمس، إشراقة كالبرق لمعت في خاطرها لَمْع البرق الخاطف... قبل ذلك... تباشير حلم لذيذ ممتع ترددت أطيافه في منامها... حتى لو عاد إليها رقيبة فلن يجدها ولن تجده. تشعر بجفوة قاتلة إزاءه، وحياد ثقيل... لا يعنيها شيء من موضوعه... موضوعها معه... لكنها بلاشك كفيلة بأن تبتهج على نحو مَا... ابتهاجاً ما، ابتهاج بارقة الإشراق المراودة للحلم واليقظة... إن لم يكن موضوعه يعنيها حقيقة... فهو كان وما يزال والد أولادها...

ويأتي عزيز مباشرة يعتكف على نفسه... يعزف عن الأكل والشرب والكلام... يزفُر... يتأوه... تجترُّ نفسها خواطرها عنه... ماذا به؟ سميرة منصرفة غمّاً إلى حركة خياطة مفتعلة، مجرد احتجاج على منعها من الخروج بلا مبرر...!

تسمع حركة انفتاح باب في العُلوي... غرفة عزيز بلاشك... خطواته متسارعة في نزوله الدرجات... في الوقت المناسب تعترضه سليمة... أية حال؟ وجه متورم من البكاء... أشعث أغبر. ما بالك؟ يحاول أن يتملص منها، لكنها تتمسك به بقوة، بسرعة ورغبة في إنهاء الموقف. يسر لها نبأ الشخش. قد لا يكون بخير، منعوه من زيارته! ليكن ما لنا وله؟ ومن هو؟ انتبه لنفسك، لوالدتك وأختك... أنت رب الدار بعد أبيك... في غياب أبيك، ما لنا ولغيرنا، ويكفينا ما نحن فيه...

تدعوه إلى الجلوس تدعوه إلى أن يتناول أكله... ينتبه إلى نفسه ويستمع إليها فلديها ما تقول له... ينظر إليها زائغاً منفلت البال، كيف تريده أن يجلس ويأكل؟ كيف يمكنه ذلك، وهل هو من حجر أم قلبه حديد؟ يرنو إليها زائغاً غائباً... ذهب عنه الجلوس والأكل وراحة البال وزهو الخاطر... ذهب ذلك كله، ولا يعود إلا مع خبر سعيد عن الشخش!

تحتضنه سليمة من كتفيه بشدة كأنها توقظه من نوم... بماذا يهذي؟ لديها ما تقول له... أبوه رقيبة يمكن أن يرجع إليهم... إلى أولاده... ليَع جيداً ما يسمع... أبوه راجع... أحمد رقيبة، قديدير خرج لتوه، وأكد لها ذلك، اسمع... أبوك راجع... راجع...

ملء سمعه نداءات وأصوات أخرى، ينفلت عزيز من أمه خفيفاً نحو الخارج زافراً متنهداً:

ـ أبوه الحقيقي، أخوه، شقيقه ورفيقه، معلمه وشيخه وحبيبه، منذ اليوم والأمس والى أن يحل الفرج: بين القضبان!

يترك أحضانها للريح، تترك أحضانها للريح والفراغ... هكذا كأنها كتب عليها ألا تدفأ أبداً، نادت سميرة بقوة، أقبلت هذه في تأفف ظاهر، لكن في استطلاع من نبرة نداء كأنها انتهار، ظلت الفتاة تنتظر المطلوب منها، بينما سليمة تنظر إليها بمواجهة كأنما نسيت أنها نادتها... تساءلت سميرة مثيرة اهتمام والدتها عن المطلوب؟ نظرت فيها سليمة ثم أدارت رأسها أن لا شيء... لا شيء!

صوت قديدير ما يزال يرن في سمعها ومشهده أمام ناظريها، تردده الواضح، ثم وهو يزف إليها ما يزف! هل فعلا قال ذلك؟ أحمد رقيبة عائد إلى ذويه؟ هل قال لها ذلك أم أنه خطأ في السمع والفهم؟ ألم تحاول سليمة أن تزف

الخبر لعزيز؟ إذن لابد أنها متأكدة، آه. لا أحد يشاركها مرة أخرى عبء ما هي فيه، والمعول عليه، وهو عزيز ربّ الدار في غيبة والده، يغادرها غير عابئ ولا مستمع، كأنّه مسطول أو غائب... كأنه لم يعد يعرف لوالده اسماً ولا رسماً ولا ذكرى... ينفلت منها خارجاً... أبوه الحقيقي، أخوه، شقيقه ورفيقه معلمه وشيخه علي الشخش في سجنه!

29

تثاقلت يد المعلم حمو وهي تهوي بالساطور على قطعة لحم الكتف المنتقاة لصديقه القشاش... كانت فرصة لإطالة فترة الحديث والتنفيس عن آهات عميقة ظل يحتبسها في داخله... آهة احتباس وحزن حقيقي عميق، على الهبطي الذي ترك الفرصة أخيراً لمن يستر عريه، لم تمتد أطرافه ولا يده بالرفض والتقطيع، لما يرمي على جسده من أردية كعادته، ولم يتمرد جسمه على الغطاء... كل ما كان الهبطي يرفضُه، أصبح اليوم يتقبله راضياً مرضياً في موته!

موت الهبطي أثار في المعلم حمو خليطاً من مشاعر متناقضة متعارضة، يقول إنه الآن يشعر بافتقاد الهبطي... رغم كل شيء... لم يكن الرجل لوثة في الدرب، لم يكن شيئاً... لكن مروره من هنا، في جولته اليومية المعتادة أو... مرة بعد أخرى، حينما يحدث له انقطاع... كان يتيح فرصة التفكر والتدبر... يؤكد المعلم حمو أنه يشعر بعري ذاته، كلما رأى الهبطي في عريه الكامل غير آبه بشيء، وأنه كان يضحك في مرارة: بدايتنا كآخرتنا، عري كامل... فعلا

يقول الرجل ويؤكد، كان يحس البرد متغلغلا فيه حتى العظام كلما رأى الهبطي عارياً في القر، وكان يعرق ويضيق به النفس حرّاً وهو يرى الهبطي متخففاً إلا من جلده صيفاً... الهبطي كان ضوءاً مؤنساً علماً وعلامة الدرب!

يؤمن القشاش... صحيح... الإنسان عري دائم... أولاد آدم كلهم عرايا ولا يحسون... كلنا عرايا تحت قشرة الكتان وما تحت الصوف والحرير إلا الجرب والنفاق...

الهبطي... الهبطي كان تذكيراً حيّاً للناس... بين الناس... أما العجب العجاب، فكان في جنازة الرجل المتواضع العاري... جنازة لا تعدلُها جنازة أغنى الناس، ولا أقواهم أو أتقاهم في طول درب السلطان وعرضه... شيء لا يصدق ولا يخطر حتى بالخيال.

كان يوماً أحر أغْبر أجمر... منذ الصباح الباكر خيم جو ثقيل خانق راكد... كل شيء راكد... سماء بلون كُدْرة لا تخالطها زرقة ولا بياض... لون كآبة يحبس الأنفاس، ويضغط الصدور... حواشي الأفق تحفها حمرة تنبئ باحتباس أشعة الشمس في كبد السماء ككرة ثقيلة، وما يلبث أن ينقلب ذلك كله إلى ريح ساخنة... شرْكي مبكر، يعبث بالغبار والنفايات المتطايرة... يوم يتحرك فيه الناس، يلفون حولهم أذيال ثيابهم، يخطون وهم يقاومون قوة الريح الجارفة الدافعة أو المضادة... يوم كان خلق من غير زمان معروف، بلا موسم ولا فصل... حبال الغسيل على سطوحها تقطعت، وتطايرت قطع منها مسافرة بلا انتظام في الأعالي بخفة ريش...

ولاشك أن الكثير من الوقت كان قد مضى، والعديد من المارة قد مر عابراً الأقواس، غير آبه بكتلة الهبطي الهامدة العارية، على الإفريز الذي اتخذته مستقراً... بما يتناثر حولها ويتكون من قطع اللباس والورق المقوى ونفايات

الأكل وبقاياه... أغلب الظن أن عيون المارة منذ باكر الصباح، مسحت المكان بعين المألوف والنفور... فمن ذا الذي يستنكر مشهداً أصبح من مكملات مشاهد الطريق، ومعلماً من معالمه؟.. ومن ذا الذي يحدق، أو يسرح الطرف، بنظرة لا تجني غير التقزز؟ مشهد من جنس يوم صاخب، تحتاج نظرة الفضول منه إلى جهد واحتمال من صاحبها، لاقتلاع ترسباته من أعماق نفسه...

وبدأ الخبر يسري قبيل الظهر... واهناً، باهتاً، متردداً في البداية، ثقيلا راكداً، كطقس بداية اليوم... ثم ما لبث أن طغى جارياً جارفاً لكل شيء في كل اتجاه...

لعل أول عين فاحصة استقرت على جثمان الهبطي، كانت من امرأة أو رجل، ممن ألفوا أن يتعهدوا مقامه بمبرة أو إحسان، أو ممن تعودوا على حركته في وقت معين طال انتظارهم له، أو لعلها جاءت من طفل عابث...

الخبر سارَ وسرى في درب السلطان بكامله، كما لو ساعدت في نقله ريح اليوم المواتية لكل شيء يتطاير، وتقاطر الناس على نحو غير معهود، حتى تعذرت الحركة عبر الأقواس... فتطوع البعض بافتكاك ممر في الزحام يقطعه المعنيون والعارفون للقيام بما يلزم من إجراءات الوفاة...

كانت أول بادرة بلاشك، صادرة عمن سجى الجثة بما اتفق، قبل أن تتهاطل الأردية والأغطية... وقبل أن تتسابق الهمم في كنس المكان وغسله بكامله وبما حوله، من جدران وأرضية الأقواس... كل يتطوع بما يستطيع... الكل في حركة، وفي ذهاب وإياب، منهم من يحمل سطول الماء من الدور القريبة، وبعضهم بالمكانس والمنافض يعمل في الأركان والزوايا التي كانت ممتنعة عن كل عناية...

اختلط عمل النّساء والرجال، ونشاط الأطفال... بل عمت همة

التنظيف، سرت عدواها وتعدّت ما جاور الأقواس إلى أزقة أخرى وأحياء في الدرب بكامله، وكأن الدرب يفيق لأول مرة منتبهاً إلى الإهمال والوساخة؛ تحفزه عزيمة الغسل والتنظيف، لتجري مياهه في الميازيب، وعبر المواسير حاملة أدران غفلة طويلة الأمد... لا يدري أحد: أهو عري جديد للناس بعد الهبطي، أم هو اكتساء؟

ويظهر التبعي نشيطاً، حافزاً متحفزاً بين الرجال؛ كما تظهر الحاجة الرحمونية، وبناتها بين النساء متحمسات متزعمات؛ وتتحرك الستاتية بهيكلها الفائض الزائد، مثقلة خارقة بذاتها جدار عزلتها العتيد... دعوة بلسان واحد على ستر عيوب البشر... عيوبنا جميعاً... عيوب بني آدم... المرحوم لم يكن إلا أخاً لهم من لحمهم ودمهم... عريه من عريهم... والستر ستر الدنيا والآخرة...

وفي فترة وجيزة، أُحضرت المباخر والمواقد، وسرت الحصائر والأغطية الصوفية والزرابي... وضرب نطاق من حاجز أبيض عازلا بين الأنظار وبين ما يجري داخل الأقواس، مستقر جثمان الهبطي من عملية غسل الجثة، وطقوس إعدادها لمقرها الأخير، وارتفعت في الجو أدخنة البخور وأصوات القراء... وأصبح المكان بكامله أقواساً وطرقاً وممرات وأزقة، فراشاً متّصلا يستقبل الجميع... حتى زوار دار سيد السيد، من الآفاقيين، طالبي الحاجات من ولد السيد، جلبهم الصدى أو التطوع والفضول، أو بتوجيه من ولد السيد نفسه... حجوا إلى المحفل بعطاياهم وهداياهم وطلبات البركة من صاحب الجثمان الغامض في حياته وموته... وظهر العسلي على استحياء يهدي ما يستطيع، دفعه أمامه في عربة خفيفة بعجلتي دراجة من زيت وسكر وسميدة وطحين... وتنظم الناس بعفوية، وبتبعية وطواعية لكل من يأمر ويوجه في هذا الأمر، يستقبلون الهدايا والعطايا ويتخصصون في المهمات...

وحين حُمل المرفع بجثمان الهبطي، المسجى في كفْن معطر بالزهر والورد والريحان، يحتويه غطاء أصفر مطرز بآيات قرآنية، جلبته الرحمونية، الحاجة الرحمونية من حجها بركة وتيمناً واستعداداً ليومها الموعود... يوم مماتها أو ممات أي متوفي من أمة المسلمين يحل أجله قبلها... ارتفعت معه الأصوات بالتهليل والتكبير والترحم والاستغفار، وتراصت الخلائق الآدمية حول النّعش المتّجه نحو المسجد القريب... لتنتقل برفقة الجثمان إلى مثواه الأخير... محمولاً على الأكتاف، تتسابق الأيدي لحمله ولثمه في محفل عظيم غَريب رهيب...

تأوه القشاش بدوره تأثراً بما رأى وبما عاش الناس في هذا اليوم... وهو يغبط الرجل الغريب، الذي عاش طول حياته بينهم عارياً، على ما كساه في مماته من تآلف الناس والتئامهم على البر به... وقال المعلم حمو، وكأنه يعتصر الذاكرة اعتصاراً عن الهبطي، إنه نبت بينهم فجأة منذ عرفوه، كما هو متجولاً عارياً، لا أحد سأل عن أصله ولا أحد يعرف مصدره...

ترتفع يد المعلم بالساطور، وقد بدأ الزبائن يتجمعون أمامه، أغلبهم من الجيران، أقبلوا يتزودون بقدر من اللحوم يهيئون بها قصاع الكسكس، في حفل نعي الهبطي المرحوم مساء اليوم.

وكان مساء النعي بالأقواس مرتع المرحوم ومسكنه حياً عطراً، تصاعدت فيه أصوات المقرئين والمادحين، وأدخنة الأبخرة، وفاحت روائح الطعام والقصاع قادمة من كل حدب وصوب، يصيب من خيرها الجميع، وترتفع الأكف والألسنة بجميل الدعاء والذكر للمرحوم الهبطي، متتابعة مسترسلة إلى الهزيع الأخير من الليل....

30

تعمدت أن تتهيأ للقائه ببساطة، الرجل بسيط، جد بسيط، كما تعهده... لن يتغير... ثم هي... أهم شيء بالنّسبة إليها كبرياؤها... واثقة كانت، من أنه يأتي بصدق المجاملة والوفاء... ورد الجميل، ألم تعده وهو مريض؟ أكثر من ذلك ألا تحتفظ له بعطف خاص وذكرى؟ ربما... أنها تشفق عليه... ربما... لكن على كل حال، بكل تأكيد، ليس الحب، ولا الكراهية، ولا النفور... التوكاني عالم مغْرٍ بالتطلع، لصيق بالذاكرة، لا تملك حورية إلا أن تنجذب إلى كل ما يرتبط به... عالم يضحكها ويبكيها، يغريها يسعدها ويشقيها... إنها بحالها هذا، بطبعها، بما تميل إليه، يمكنها أن تقرأ أحوال الناس، ما حصل وما يمكن أن يحصل... ويمكنها أن تقرأ حال التوكاني بالذات... تدفعه المجاملة والرغبة في الصداقة وبعض الوفاء... أي شيء هي بالنسبة إليه؟ ابنته؟ أبوها؟ ربما كان أصدق في ارتباطه بجميلة... هذه عاشت في كنفه... أو بمعاشرته فترة أطول... وأعز من عمرها، ولم تنسه أبداً... لا، بل لم تنقطع عن تتبع أخباره وذكره بمناسبة أو بغيرها...

أتت إليه من الواجهة الزجاجية التي كان الرجل يوليها ظهره، تجالسه جميلة حول التواء حوض المسبح، أمامه كاس عصير... وصينية القهوة... تتأمله حورية في غفلة منه، تملت المشهد بتمامه، أي ثنائي يكوّن التوكاني مع جليسته جميلة؟ ألا تأمل شيبته في أن ترتاح على ركبة صبية مثلها؟!

أعدت نفسها للقاء، متخيلة أنها تقرأ أفكاره حيثما اتجهت به، ولن تتجه إلى بعيد جدّاً... الرجل بسيط، بسيط... إلى درجة الشفافية... في بعضه على الأقل... أما بعضه الآخر...

لا يخفى عليها توتره من حركة كتفيه، وهما تتحركان تهتزان اهتزازة خفيفة بين الحين والآخر كأنما تشكوان الضيق... بالفعل يمكنها أن تؤكد إحساسه بالضيق، وفي هذه الفساحة والرحابة بالذات... إنه مرتعب، ولا يمكن أن يكون في أمان... نسيج وحده هذا التوكاني، جلاب عطف وإشفاق لا أكثر... أخ في الشدائد بلا أدنى شك... أخو الشدائد بلا ريب.

تملّتْه جيداً في موقعه، بمواجهة جميلة وهو موليها ظهره، منهمكاً في حديث حميمي مع جليسته...

دفعت باب الواجهة برفق وخطتْ باتجاهه... تعمدت أن تتجاهل مواقع الأقدام الرخامية الفسفسائية بين العشب المخْضر، وأن تخطو فيما تغوص فيه القدمان من طراوة النبت بدون أدنى حس لحركتها.

وانتفض التوكاني حين فاجأته منتصبة أمامه بالتحية... قدرت وقع المفاجأة فيه، تعثر في قيامه لها، طار صوابه كمراهق غِرٍّ يفاجأ في ممارسة محرمة... ظل يبحث عن اسمها وعن كلمة الافتتاح... لفظ التحية، ثم لم يقل بعدها شيئاً... بادرته، وأسعفته مرحبة، داعية إلى الجلوس، شاكرة، سائلة عن أحواله باسترسال كامل يتيح له فرصة التقاط أنفاسه... كان يتابعها، وأنفاسه

تستعيد إيقاعها الرتيب، ليجد كلماته أخيراً... لم ينسها أبداً... لم تغب عن ذهنه... إحساس غريب بأنها تملكه على الدوام... كل شيء يقيسه بها، بما قالت أو تحركت أو أدارت... صورة منقوشة المعالم في الخاطر والضمير، ما تفتأ تتجدد وتترعرع... استمعت إليه مبتسمة عاطفة، كررت الشكر والامتنان، أكدت له شعوراً مماثلاً... سألت عن صحته، قفزت كتفاه وركبتاه، مع ابتسامة مشرقة، كأنه يقول إن الجواب ما تراه... فعلا، أزمة الصحة فاتت بسلام، ولم ينس أن يشكر لها وفاءها له، وقد عادته أثناء ذلك...

توقف الحديث بينهما... ساد الصمت لحظة... عادت جميلة بصينية قهوة، وضعتها بمواجهة حورية، وولت منصرفة حين دعتها بإلحاح إلى الجلوس، وهي تؤكد للتوكاني عن جميلة، أنها نعم العون كل العون، هذه الأم الصغيرة الحنون... أم الجميع؟

أشرقت أسارير التوكاني، واتسعت عيناه، الضيّقتين وراء النظارة السميكة القابعة على أرنبة الأنف... جميلة... إنها تربيته وغرس يديه... معدن نفيس نفيس يا بنتي...

أتم كلامه في شبه تنهد وحسرة ... ثم رنا إلى ما حوله يغير موضوع الحديث، وسأل عن الحال مشيراً إلى كل ما حوله، يريد أن يفتتح موضوع زيارته، زيارة صداقة ووفاء ومجاملة، بعدما تأكد له من خبر انفصالها عن أحمد رقيبة... لابد أن يسأل عنها ويطمئن عن الأحوال... حالها هي بالذات وحال الولد... رضى... وحال جميلة... الكل... بما فيه المشاعر والخواطر... وأيضاً سؤاله يشمل الماديات، سؤال أراده أن يكون جامعاً مانعاً، موجزاً، تكمل الإشارة ما عجزت عنه العبارة...

لم تكن طريقته في الكلام لتخفي عن حورية في عدم قدرته على البيان، وكل شيء لديه بكلمة واحدة... أو بأقل من كلمة... إيماءة أو نصف!

رنا إلى ما حوله، يسأل بطريقته الخاصة عن الحياة هنا... الآن... بعد... يقصد، كيف تعيش حورية في هذا الفضاء أو... الفراغ... بعدما حصل..؟ ظلت تنظر في عينيه ساهمة... كانت متوقعة هذا السؤال المباشر، بل تدرك أنه ما جاء إلا من أجل هذا السؤال... رجل يثير كل إشفاقها وعطفها، ترعبه الرحابة، والفضاء ويسر المكان والزمان... تزعجه السعة والرفاه... طمأنته وخاضت في المباشر من سؤاله، لا تحتاج إلى شيء، ولا تريد أكثر من أن تعيش مطمئنة إلى رضى، وبصحبة العزيزة جميلة... وأما عن الآخر (كأنما تعمدت ألا تسميه)... فليست محرومة من شيء، لم يحرمها الطلاق من شيء... كل أخذ طريقه... لا مساومة بينهما كانت ولا مماحكة... كل أخذ طريقه المناسب المحتوم... كل أدرك خطأه الأولي... لا شيء يعاد... هنا يمكنها أن تستمر ما شاءت، لاشيء يزعجها، لا قوة ترغمها على شيء لا تريده... لن تفعل أبداً إلا ما تريد وقتما تريد هي بكل المعاني... حرة... حرة... كما كانت تريد دائماً... هكذا عاشت، هكذا تبقى وتدوم... إلى أن...

ظل يتابعها، عيناه محدقتان لا ترفان، كيان لا تنبئ عن حياة فيه سوى حركة الكتفين أو مداعبة ثقل النظارة السميكة لتستكين في مقامها على أرنبة الأنف... لا، لا يجوز أن يذهب به الظن بعيداً في فهمها... ذلك الرجل... زوجها الذي كان... أحمد رقيبة أرادته ولم تحبه أو تُتَيَّم به، إلاّ أنها لم تكرهه أبداً... كانت تقبله، وألفت مطواعيته... لم تحبه وكان يعرف وتعرف، ولم تكن تكرهه... ألفته... ألفت فيه الحياة ورغبته الشديدة في أن يحيا من جديد، وبعنف وقوة... أحبت فيه شعوره بالحرمان الذي لا يرتوي، وإرادة أن يولد كل لحظة من جديد... هي ربما في أعماقها مثل ذلك... أو أكثر... تلك كانت لحمة الرباط بينهما فيما تقدر هي... لم تخف عنه ذلك، ولم ينكره منها ولا من نفسه، وهذا خيط رفيع آخر، كان يجمع بينهما، كانا في شفافية طفلين...

لذلك لن يكون رقيبة فيما تقدر نادماً على سنواته معها، وهي بدورها غير نادمة إطلاقاً.. الخطأ كان في الآلفة التي غفلا معاً عن فعلها مع تتالي الزمن، فعلها العكسي... ومع ذلك... لكل شيء نهاية... يجب أن تكون له نهاية... والخيط الرفيع لا يتصور له أن يتضخم ويتسمك أو ينفسح... لا يتصور له إلا أن يبقى كما هو، أو ينفرط... وقد آن له أن ينفرط... فكان.

الآن... هنا، هي دائماً كما أرادت حرة، وما يزال بها ظمأ مستمر، إلى أن تكون حرة وتولد من جديد كل لحظة... شعورها في هذا ليس عابراً، ولا سطحياً... كما قد يكون لدى البعض فيما يبدو... وربما كان الأمر كذلك عند صاحبها، لكنها لا تريد منذ الآن أن تعود إلى تذكر شيء لا يزيد إلا أن ينتقص من سعادتها التي هي من صنع يديها... لذلك ستغادر مؤقتاً... ستسافر أولا... ثم ترسم بدقة وحرية خطها الجديد... تسافر وتعود، لتبدأ من جديد... بميلاد جديد... هكذا... أشرق محياها وهي تهز كتفيها كأنما تحللت فعلا من كل واقع مثقل...

تدخلت جميلة مبتهجة، وهي ترى بعض فكرتها ترد على لسان حورية مؤكدة على أهمية السفر والتغيير... وعرض التوكاني في مجاملة مترددة، أنه في الخدمة، وعلى استعداد لأي شيء... قياماً بالواجب... وبمقتضى الصداقة... وأنهى مؤكداً في شبه نصيحة أو رجاء، أنها لا تحتاج إلى هذا الفضاء... شقة كافية وزيادة... لا حاجة لكل هذا الفراغ حولها... نصيحة خالصة...

كانت حورية تتابعه... تتابعه بفهم ووعي وبالعطف المألوف، عرضت عليه مزيداً من قهوة، لكنّه بسط كفّه على فوهة الفنجان مستكفياً. عبرت خاطرها صورة التوكاني، لو تملكته الرغبة الجامحة في أن يولد من جديد، ويحيا من جديد، كما تملكت رقيبة... وكما تتملكها دائماً وبعمق؛ ماذا يكون التوكاني حينئذ... كيف يكون؟ هل تبدأ معه تجربة مثل ما فعلتْ مع سابقه؟

انتبهت لأفكارها، كل ما تريد أن تقوله لنفسها، وللرجل نفسه، إنه لو فهمها حق الفهم، من كل ما سمع منها، وعرف فيها وعنها، أنها بكامل حريتها يمكن أن تختار لنفسها فضاء أوسع من هذا بكثير، وبذخاً ورفاهاً أكثر من هذا بكثير... وإذا أرادت العكس، ربما تختار قفصاً، لا شقة كما ينصح ويقترح...

عادت لنفسها، حامدة لربها أن الخواطر لا مفصحة بذاتها، ولا ملزمة لغيرها... كحلم عابث، ابتسمت من نفسها لنَفْسها، وكأن ابتسامتها الداخلية ارتسمت على محياها... إذ بدا التوكاني مأخوذاً بسهومها، ينظر إليها مبتسماً متشوقاً لشيء يسمعه، لكنّها، ارتدت عن خواطرها لتلتقي بعينيه، فلا يملك إلا أن تقفز كتفاه في حركتهما الخفيفة، وتضغط سبابته تثبت موقع نظارته الثابتة أصلاً، على منقار أنفه القصير... ثم لا يجد إلا أن يتهيأ للوقوف يستأذن... تسير حورية إلى جانبه... تتبعها جميلة، يخترقان فضاء الصالة والبهو الكبير، من باب الواجهة الزجاجية... تحس بالتوكاني عيناه تخطفان نظرات قلقة إلى كل ما حوله... كون الرياش والأثاث والأركان تنزلق عنه الرؤية، تحس بغربته وهو يخترق مثل هذا العالم الفسيح المترف بلا مبرر في نظرته... تتوقع أن ينفض أطرافه حتى لا يعْلق به شيء من هنا... الآن..! ألم يكن رقيبة على شيء من هذا في السابق..؟

يودعها الرجل عند الباب الداخلي باتجاه الخروج، يقول بإشارة إنه على الوفاء والواجب.. في الخدمة في أية لحظة، رجاء ألا تنساه!.

يسير، تتابعه بنظرتها وخواطرها. يسير يخطو بتؤدة كأنه يقتلع قدميه بصعوبة، تارة بعض أخرى يبدو كالملتفت، كأنه يهم بذلك ولا يفعل، لكنه لا يخطو قاصداً، تسرع جميلة، تلحق بالرجل تسير بجانبه كأنّها تشجعه. وعند الباب الخارجي، تقف جميلة فاتحة مصراعه، بمواجهتها الرجل يبحث عن كلمة الوداع، دون أن ينظر إلى عمق الدار حيث يمكن أن تكون حورية في مكانها

ما تزال تشير بإيماءة أخيرة، أو غادرته إلى الداخل... لا يلتفت التوكاني ولا يتحرك، وإنما يطيل الوقوف بمواجهة جميلة، كأنه يبحث عن كلمات أو إشارة مناسبة، ثم لا يقول شيئاً، وإنما يشد على يد الفتاة كأنه بذلك يقول الكثير، وينصرف.

31

بمهل شديد كالتردد، كان أحمد رقيبة يقود سيارته لدرجة أزعجت السائرين خلفه وأزعجته... ارتفعت الأبواق محتجة أكثر من مرة، فاضطر إلى أن يلزم أقصى اليمين... طريق مديونة نهر مائج بالحركة رغم فساحته... على يمينه القصر السلطاني، والطريق يمتد أمامه تتحرك فيه مختلف السيارات، بكل الأحجام والألوان والبشر، تتوقف لتسير، وتسير لتتوقف صفوفاً متراصة وفق إشارات المرور عند الملتقيات... تنسل من بينها دراجات هوائية وبخارية، يعرف أصحابها كيف يجدون لأنفسهم المنافذ في نقط الاختناق... أشباح نسوة ورجال تعبر في كل حين، تقطع عرض الطريق غير عابئة بالإزعاج ولا بالخطر، كأنّما قوة الرهان بالحياة وحدها، هي ما يجعل الآخرين يحجمون عن الاندفاع، ويتوقف الخطر.

عند مدخل درب الأحباس... رغم التؤدة والتزام اليمين في طرق لم تخلق لقسمة يمين ويسار، أحس بصدمة خفيفة تصيبه من الخلف، من راكب دراجة كان متسللا في الزحام أو شارداً؛ أحس بتجاوزه له دون أن ينظر إليه...

يمكنه أن يقرأ ملامحه المتذمرة، مصدر الخطر لا يهم، ولا حتى النتيجة عندما تكون بهذه البساطة... المهم هو التحرك... استئناف السير، والمهم الانتباه حتّى لا تحدث صدمة أخطر...

عند مدخل درب الأحباس... رغم التؤدة والتزام اليمين في طرق لم تخلق لقسمة يمين ويسار، أحس بصدمة خفيفة تصيبه من الخلف، من راكب دراجة كان متسللا في الزحام أو شارداً؛ أحس بتجاوزه له دون أن ينظر إليه... يمكنه أن يقرأ ملامحه المتذمرة، مصدر الخطر لا يهم، ولا حتى النتيجة عندما تكون بهذه البساطة... المهم هو التحرك..: استئناف السير، والمهم الانتباه حتّى لا تحدث صدمة أخطر...

ظل يتابع صاحب الدراجة، وهو يتسلل تارة على اليمين وتارة على الشمال... خط سيره غير المنتظم بدا جذاباً، وأحمد رقيبة يتابعه... ضوءه الأحمر الصغير يبدو من الخلف جمرة ملتهبة مخطوفة في الهواء، تذكره بليالي الظلمة والبرد القارس في قرية صباه، بالجمرة المستعارة من الجيران، تبدو محمولة في الفراغ والظلام، كنجمة تتردد منحدرة قبل أن تستقر على الأرض.

أحس بانجذاب نحو الحركة والنّاس. لو التقت عيناه بعيني صاحب الدراجة، لاعتذر له، لا يهم عن أي شيء سيعتذر... المهم أن يستجيب لهذا الشعور الفياض في داخله، بأن الناس والأشياء في هذا الكون، هي من بعض لبعض...

مد بصره نحو عمق الدرب... تراءت له الأقواس القصيرة المتقابلة، روائح القماش والحرير والمصنوعات الجلدية تفغم الأنف، متسربة بقوة من فتحات الدكاكين نحو الأقواس ومن عمق القيساريات... روائح سحرية كافورية كبريتية نفاذة. أمام المسجد بالمقابل، أزقة الأقواس... تلمع الأواني النحاسية والفضية بمختلف الأحجام والأشكال في مجموعة دكاكين، بينما تكتم أخرى

ما بها من أنسجة يدوية ثمينة لأغطية وجلاليب الحبّة والسوسدي... ثم القاعة حيث تفوح في الجو روائح الزيوت وأنواع الزيتون... وتلمح أرضُها الدسمة المشبعة بالدهون باستمرار... وفي نهاية المرتفع قوس النهاية، المخرج والمدخل، مأوى المشردين، حيث يتوقع النظر المعتاد المتعود، أن يرتسم أمامه شبح أحدهم كالهبطي المألوف في عزّ أيام عريه، عندما كانت أيامه الملونة تغشي كامل الرؤية... بعد ذلك يأتي الجسرُ الصغير الذي يمر تحته القطار، ثم يتنفس الفضاء على رحابة السماء، كما لو انبلجت من نهاية نفق... جلبة جديدة، تختلط فيها الروائح والأصوات قرب البريد وعند بداية البلدية...

ظل في موقفه عند مدخل الدرب، أسكت المحرك، وترك أضواء السيارة تَغْمز على جوانبها...

بدا له الدرب من بداية المدخل طافحاً بالأنوار المعلقة الملونة... مناسبة عرس بلاشك... ظل في موقفه عند مدخل الدرب، طفق يتأمل الحي بكامل تفاصيله، يجوب بخاطره أزقته خطوة خطوة... يقف بمشاعره عند كل زاوية ومنعطف، يصعد وينحدر بالذكريات... تتدافع في وجدانه الأحاسيس عصية عن التعبير... القلب على حافة التفطر والدموع توشك أن تنزرق... كيف تحمل أن يغيب عن هذا... أو يغيب عنه هذا كله؟ مشاعر حرقة متناقصة متداخلة بغصة لا تخلو من التذاذ حارق أليم...

تحركت سيارته متمهلة، آثر مدخلا آخر للدرب، كأنه يطيل بذلك أمد متعته وعذابه في الآن نفسه، تجاوز المدخل، رنا ببصره إلى عمق الرحبة وهو يمر بمحاذاة بابها الكبير الموصد... واشتم بالقرب رائحة السمك المقلي لمجرد أنه رأى موقع المقلاة المعهودة على باب المقهى القديم، حيث كان في عهد ما، يتبضع قطعاً مقلية من سمك القرش أو السنور والفرخ... أحياناً، مع رؤوس الفلفل الأخضر الحار، وقد انتفخت قشرته الدقيقة عن بدنته بحرارة القلي، يعود

بها إلى البيت، أو يتناولها على الطاولة أمام المقهى حيث هو، مع سلطة بالخل الحريف المركز...

وتابع سبيله متمهلاً في طريق مديونة إلى مدخل درب كرلوطي... فانحرف يميناً نحو عمق الدرب، وبتؤدة كاملة، فتح نوافذ السيارة إلى أقصاها، وراح يستنشق بعمق رطوبة المكان، المحملة بخليط من روائح بقايا الخضر المتخلفة عن نشاط الأسواق الشعبية في الأزقة، تطفو بينها نفحة حموضة خفيفة... رطوبة يصنعها وقع الخطوات، وضغط العجلات على مرميات الخضر والفواكه المعطوبة، والفضالة الخضراء من ربطات البصل والخرشوف والقزبور والمعدنوس... خليط حموضة وعفن خفيف، يضرب في عمق الذكرى، ليبعث صورة أحمد رقيبة صبياً ويافعاً، يتجول في مثل هذا الخليط متسللا في الزحام ما بين الأقدام والعربات، وضجة المناداة والمساومة، يلتقط بين الحين والآخر بعض المرميات، يزيح عنها ظاهر العفونة، أو يمسح عليها بطرف كمه قبل أن يرميها بين فكيه، أو يضعها في قعر سلة يعود بها إلى البيت عش الأسرة... أمه وإخوته... صور يستعيدها، يغص بها حلقة مرارة، وتعبق بها الذكرى...

أوقف السيارة على الطوار، فتح الباب متمهلاً، نزل ووقف يتمطى، ويستنشق ملء رئتيه، ثم سار خطوات يحس رطوبة الإسفلت تحت قدميه وكأنها تخترق الحذاء، تخالط البشرة، يحس اللزوجة التي كان يحس بها حافي القدمين... أحياناً تزلق به القدم، وأحياناً يخطو على واحدة قافزاً ينط باتجاه أقرب طوار، أو ناتئ ما، يزيح على حافته ما علق بكف قدمه من بقايا لزجة مزعجة...

تقف به الخطوات، يتأمل البنايات القصيرة المتلاصقة، والنوافذ ذات الفدريش... يرى بعين خياله الأشعة الواشية بحياة الألفة من خلال الشقوق، يتصور نبض الحياة الساري بين المؤتلفين والمختلفين... يرى بوضوح ما يتراءى

له، صورة ما يجري وراء الشقوق من حركة وإشارة ولفظ... أليس ابن هذه الشقوق؟ يحس دبيب ما يسري ويري دِفْء شتاء ومُتنفَّس صيف...

تبدو علامة الصاكة، بارزة زرقاء، يبدو له دون أن يراه، خيط الدخان العتيد المنطلق من سيجارة يرسم ملتوياً معالم خارطة البلد... تلوح العلامة على مقربة منه بإغراء متزايد، تداهمه الرغبة في التدخين، يهم بسحب سيجاره من جيبه، لكنه يتوقف. ترى هل يستسيغ ما يزال، طعم الكازا والفافوريت؟

يعود أدراجه متمهلا نحو سيارته، يقودها في التواءات الأزقة، تصادفه الأضواء والأعلام... مصابيح بألوان متعددة كما صادفته في المدخل السابق، الناس في أفراح... الناس هنا دائماً في أفراح أو يتهيأون لعرس بعد آخر، أو مناسبة سعيدة تلو أخرى... حقّاً لقد نَسي الكثير من حياة الناس، غاب عنه الكثير من تقاليد الدرب... أحياناً، يذكر أن أفراح الأعياد المتتالية أو أعراسها تتكامل زينة بعضها، وتتداخل وكأنها عيد مستمر... الأمر مخالف تماماً لما يجري في الدروب الجديدة في الأحياء المتناسلة المتوالدة بعيداً، هنا وهناك، الأمر مختلف تماماً في الأحياء والدروب الجديدة راقية أو شعبية... هناك، كل شيء ينتهي في وقته، يبدأ محدوداً في الزمان والمكان وينتهي كذلك... كل شيء يبدأ وينتهي ولا يترك أثراً وراءه، كما لم يستثر شيئاً قبله... عكس كل شيء هنا... هنا... يا للعجب، تعاطف الناس غريب... كل شخص... كل بيت أو دكان، إلا ويشارك ويشترك في المناسبات أفراحاً كانت أم غيرها... كل شخص كل بيت... كل دكان إلا ويعلق راية الوطن في المناسبات البهيجة، وكأنه دولة!

يتقدم أحمد رقيبة بسيارته مطلقاً لخواطره العنان، يستعيد ما يستعيد، ويستثير في نفسه ما يستثير، كأنّه يتزود من أفكاره وذكرياته لما يقبل عليه... يتقدم بمهل كبير، يساعد عليه فخامة سيارته الفارهة المتمايلة في ضيق الأزقة، يدرك

أنها لا تناسب المكان هنا، يدرك ذلك الآن، ويعالجه فيما بعد، يدركه والسيارة تكاد وحدها تمتلك الفضاء والمكان في تقدم متمهل متمايل... وحدها، ولا يملك أن يتراجع... الآن يتقدم نحو الزقاق المباشر المجاور لزقاقه... تتكاثف حوله الأضْواء، تتراقص أكوانها وتتركز... ويخرج كل ما حوله عن هدوئه فجأة، لتحيط به الضجة... ترتفع زغاريد... تهاليل... تصفيقات... تتوقف السيارة من ذاتها أمام القوم الذين ملأوا عليها الطريق... تصعقه المفاجأة... تتميز الأصوات... تبدأ الوجود ذاتها تتميز والمشهد... الكون حوله يدوي بالتّرحيب، بعودة الحبيب سي أحمد... سي رقيبة... أكثر من عناق وشوق... عملها قديدير إذن! دبرها!

يتقدم الحاج... يتقدم عيادي... الكل... الجميع... يتقدم القشاش والمعلم حمو الجزار، يتقدم نسوة وأطفال وفتيان... أهلك... مرحباً بك بين أهلك... وناس دربك... عرسك... ودربك وأهلك... عرس الدرب كله... فرحة تطير بألف جناح... فرحة ما لها حدود... هذه ليلة يؤرخ بها... ليلة الجميع... زمان الجميع... تعلو الزغاريد... تتداخل، وعبارات الفرحة والترحيب...

يتقدم الموكب راجلا، مختلطاً، باتجاه منزل سي أحمد رقيبة العتيد... يبدو مظهره زاهياً زاهراً، وسط الأزهار تحيط بمدخل الباب، وتتدلى على جنبات الجدران عناقيد أضواء زاهية ملونة، ويصطف أمام مدخله جوقة من الطبالين والزمارين والضّاربين... يعلو ضجيجهم فوق ضجيج الموكب، ثم يختلط ذلك كله في وقفة جامعة أمام الباب، يرقص فيها الجمع رجالا ونساء وأطفالاً... تتعالى منهم أصوات المرح والابتهاج...

مرة بعد أخرى، ينبري صوت من بين الضجة تميزه قوة ارتفاعه، أو شبه خفوت في لازمة ما، فيذكر اسم أحمد رقيبة ومعه سيل عبارات الترحيب

والإشادة، منتهياً بدعاء صالح يشارك فيه الجميع بما فيهم رقيبة نفسه، دعاء صالح بكل ما هو خير، لا يلبث أن يتسع نطاقه ليشمل الكل... كل من حضر ويحضر، كل من شارك ويشارك... كل من أحب أحمد رقيبة وذويه والدرب وأهله...

مرة بعد أخرى، تنبري ملامح وجه، تجد طريقها في الضجة والزحام، لتقترب أكبر قرب من شخص أحمد رقيبة، تهتف فيه تهتف له بالصحة والعافية، تذكره بها إن كان خفي منها شيء عن باله... مفترة عن بسمة عميقة عريضة... كثير من وجوه طواها الزمن والنسيان...

أمام الدار في الوقفة الجامعة البهيجة الصاخبة، يعلو صوت القشاش، يده على كتف رقيبة، ووجهه إلى الفضاء باتجاه الجمهور حوله، وباتجاه الفضاء:

ـ الليلة ضاوية وضواتْ... الدار عالية وعلاتْ... عامرة تامرة بسواريها... فارحة باهجة بمواليها... وزغرتوا يا لعيالات...

يذكره الصوت والصورة وغنّة الطرب بالدعاء، بعرس العتبة الأولى وفرحتها عندما اقتنى الدويرة هذه، كانت طبقة أرضية غير مسقوفة إلا غرفتين متفتحتين على صحن فسيح تآكل استواء أرضيته، وبرزت بقع قرعاء هنا وهناك... فرحة كبرى كانت ودعاء بأن تتسع الدار وتعلو... عتبة مرزاقة كانت، سرعان ما اتسعت وتجددت وارتفعت إلى طوابق ثلاث... عتبة مرزاقة تلت بهجة فرحتها الأولى فرحات وأفراح... وأصبحت مجمع إخوة وجيران وأحبة وأهل، ومرتع أولاد...

ليلة ضاوية وضواتْ... عتبة عالية وعلاتْ...

يردّد القشاش ويعيد، كأنه يشهد الكون حوله والكل على صدق ما يقول، ويعود بنظره وعريض ابتسامته مرة بعد أخرى، إلى وجه رقيبة محدقاً فيه مرحباً بعودته...

وطالت وقفة الفرح والزغاريد، وأحمد رقيبة لا يملك إلا أن يعايش خواطر جاش بها المشهد... إلى أن دفع الأصدقاء بسي أحمد رقيبة إلى داخل الدار... والضجة تعلو وترتفع داخل المنزل، كما هي قائمة حامية خارجه.

32

شاع في الجماعة جو المرح والانبساط، وما لبث الحاج وهو ينظر إلى ساعته في إشارة إلى أن سهرتهم تأتي إلى نهايتها، أن طلب الصمت ليعلن لهم الهدف من جمعهم، الفرحة بعودة أخيهم سي أحمد رقيبة... الحاج أحمد رقيبة إن شاء الله، وكما يريد ويتمنّاه... إذ لابد له من الحج إن شاء الله، حج حقيقي لا بالاسم مثل بعض الناس... كان يتكلم بتفكه ملمحاً إلى اسمه هو بالذات، ثم بنظرة وصيغة أمر، وهو ينظر إلى رقيبة كأنه يستطلع رأيه في الأمنية... أمّن رقيبة بإشارة منه، ومن يكره حجة سعيدة له ولأحبابه... ولم لا تتم الحجة رفقة الأحبة حقاً..؟!

ويستأنف الحاج كلامه، يؤكد أن الدرب كله يشاركهم ما هم فيه من فرح... وغداً عندما يعلمون الخبر، ويتأكد لهم ذلك، سيكون لرجوع سي أحمد أثره، وما يستحق من احتفاء واحتفال... إنما... في كل هذه المنة الربانية العليا، يجب ألا ينسى من له الفضْل الأكبر فيما تم من جمع الشمل؛ إنه بنت الأصل والحسب والنسب أختهم سليمة، التي حافظت على العش... على العرين في غيبة الأسد الهصور...

أمنوا على كلامه جميعاً بصمت وإطراق، فالنقطة في غاية الحساسية، لا يدري أغلبهم، كيف غفل عن التفكير في ذلك... سليمة؟ نعم سليمة، كيف لم يفكر بها أحد؟ ربما لاعتبارهم أن رجعة صاحبهم لا يمكن أن تتم دون تسوية هذه الأمور... وهو صحيح إلى حد ما... أو... ربما...

أمنوا على كلام الحاج، وعيونهم على سي أحمد رقيبة الذي بدا الأكثر تأثراً، خافض الرأس والبصر.

قام الحاج، وهو ينادي بأعلى صوته على سليمة التي بدا من حركتها، أنها كانت قريبة منهم... ربما عند عتبة الغرفة التي هم بها... ربما هناك من كان يهيئها لهذه اللحظة... خرج الحاج ليعود وهو يسحب معه المرأة من يدها بلطف وتشجيع، غاضة من بصرها ينسدل عليها من الرأس إلى القدم غطاء أبيض... وقف الحاج بجانبها يقول إنهم يهنئون أنفسهم بصاحبة الفضل في هذه اللحظة التاريخية... أم الأولاد للاسليمة، زوجة سي أحمد رقيبة... لها الفضل على الجميع، والشكر والامتنان والعرفان من الجميع، وهي تستحق تقبيل الرأس... قال ذلك وأشار بيده الثانية تجاه رقيبة، ليقوم هذا ويهم بتقبيل رأس زوجته، إلا أنها لم تترك له الفرصة كاملة، بل سارعت بدورها بتقبيل يديه ويدي الحاج... ثم تمر منحنية في حياء تلثم بيدها رؤوس باقي الرجال... بينما زغاريد نسوة تتجاوب في فناء الدار... لحظات مؤثرة، صمت لها كل ما سبق مع هرج المرح وضجيجه، وارتفع صوت الجماعة بالفاتحة؛ وما كادت القراءة تنتهي، حتى رفع القشاش صوته طالباً من للاّ مولاة الدار... دار الكرم والطعام... للاّ سليمة إحضار الوليمة، وبداية العشاء، فهم لم يأتوا لمجرد... أم أنهم...؟

وتعمد ألا يكمل استفهامه ولا جملته، ناظراً فيما حوله نظرة استغراب وتساؤل واستنكار مبطن بتلطف وتحبب... نظر فيما حوله كأنه يستجلي

رأي القوم، إن كان لهم مثله مطمع في العشاء بهذه المناسبة، أم إنهم جاؤوا لتبحّ أصواتهم بالغناء والزغاريد، وتتقرح أكفهم بالتصفيق بلا طائل، غير الماء الساخن والسكر!

كان يقصد الشاي، كاس الشاي الذي هم حوله مجتمعون مبتهجون... ثم ختم منذراً:

ـ أحياتي من الماء وهاه..!

ودار يجول فيمن حوله متأكداً من مبلغ قوله، ثم مستفهماً بصيغة ساخرة:

ـ ياك ما... غير كعيبة وسرْمع الدريبة..؟!

ويقاطعه المعلم حمو، فاهماً كغيره للمقصود من السؤال والإشارة المازحة، لا، إنهم لن يأكلوا شيئاً قبل قدوم الطنجية الهائلة التي يسهر المعلم بنفسه على اختيار أطايبها...

ـ لحيمات مليجات عجليات يا بابا... سنان الحليب يا بابا... ومن اللي على بالك أمولاي... طنجية مفهومة معلومة مراكشية سلطانية... والله والله على لويزات العجلي سنان الحليب من يد معلمك حميمو يا وليدي...

وأنهى المعلم حمو كلامه بصدى قبلة ممطوطة مسموعة على لمّ أنامله...!

صفق القشاش تحبيذاً لكلام الجد، وترحيباً بقول الحق من صديقه وحبيبه المعلم حمو، ونظر إلى الجميع حوله، وإلى أحمد رقيبة، مظهراً أن ظنه لم يخب ولا يمكن، وما عليه الآن إلا أن يرتاح خاطره وخواطر من حوله... وما لبث أن قفز بين المجموعة يرقص ويصفق بإيقاع سريع مردداً:

هذي ليلتك أبابا أحمد
وافق ترجلْ ولا ارقد
وافق وافق وافق
وارقد وارقدْ وارقدْ...!

33

جبل صمت ثقيل... سيل كلام فصيح مكتوم... ظل أحمد رقيبة يتابع سليمة في حركاتها لتفقد كل شيء... كل شيء تفقدته مرات ومرات، كأنها تطيل فترة قطيعتها أو تماطل في لحظة المواجهة... مواجهة هيأ لها نفسه كثيراً لكنه يتهيب بدءها، مواجهة سليمة مسالمة بلاشك... ومن ثم صعوبتها... من يبدأ؟ متى وكيف؟ الجماعة قبل ساعة، والحاج بالذات نيابة عنهم، يسر المهمة كثيراً أمام الإشهاد، وعلى رؤوسهم... ويبقى مع ذلك شرخ السنين، سنوات الفراق والقطيعة شكلت ما بينهما، عازلاً كثيفاً، ضاعت معه كل ذكرى ونكهة، العاداتُ البسيطة الصغيرة، تلك التي تكونها عشرة ورفقة طويلة على البساطة والمودة...

تظل سليمة تنتقل بين أشيائها في أرجاء غرفة كانت أصلاً للنّوم، لكنها فقدت طابعها ولم تعد بعد لمثله... إنما...

تطيل سليمة لحظاتها... تمعن في تأجيل اللحظة، حتى يفاجئها رقيبة بأول جملة مباشرة، نداء ربما لا يدري كيف صدر عنه:

ـ سليمة!

تتوقف لحظة، لكنها لا تلتفت نحوه... تظل مجمدة الحركة... يقوم نحوها بتؤدة، يضع يده على كتفها... باكية في صمت يجدها... تغمره مشاعر رائحة ورد فواح، تتجمع أشتاتها من ضياع ساحر عميق البعد والزمن والمسافة... ربع قرن يزيد، ليلته الأولى معها، يافعة نحيفة فقيرة غضة العود كانت... بنت بلدته، شمله وإياها فقر سائد وقدر مشترك... طوال سنين قبل أن تهب ريح رخاء، ما لبثت أن عمت وفاض خيرها وفاق... ليلتهما تلك بكت بمثل هذه الدموع، سألها، أجابت متلعثمة مترددة... إنها لا تدري، وتركته يفهم أنها ربما... دموع الفرح... لم تكن قادرة على الحديث، لكنها أومأت برأسها موافقة على حكمه، وهي تمسح عينيها بظهر كفها، دون أن ترفع نحوه البصر... جلس إلى جانبها على حافة السرير... أمالَها إليه بلطف يضمها، يغمره من زينتها عبير ورد فواح...

ـ سليمة!

كان قد نهض نحوها بعد أن تسمرتْ على ندائه، متجاهلة إشارة يده الممدودة إليها... خطا نحوها وترك يده تحط على كتفها برفق، أحس يتصلب كيانها... تجمد حقيقي يُحس برودته وتخشبه على نحو غير مألوف... مرّض بيده يمسح دموعها المنسابة... كانت دموع الفرح كما قدّر ذلك منذ ربع قرن يزيد... لا بأس... لا بأس كل شيء يبدأ من جديد... أصيلة يا سليمة... فهما رغم كل شيء... رغم كل ما فعل... ليعترف بذلك... فهي لم تنبس بعيب... ولم يكونا مطلقيْن، أبداً. أبداً لم يكن ليطلقها، ولم ينس أسرته أبداً، أبداً ألا يُحسب له هذا... ولها... لهما معاً؟ لا بأس، لا بأس، كل شيء يبدأ من جديد، لا بأس عليه أن يتحمل كامل المسؤولية... سليمة أصيلة الود... أصيلة الوفاء... أصيلة بنت الأصل والأصول... ومنبع كل شيء أصيل... وهي هي أم الأولاد،

لن ينسى ذلك والأولاد... الأولاد بحر آخر... آخذون عليه... لهم ذلك وحقهم، صباح الغد بلقاء وكلام يستردهم، يسترضيهم ويستردهم... المهم الآن، سليمة، استردادها هي أولا، وهي تتكلف بغيرها... أصيلة...

ظلت خافضة غاضّة، تصغي لكلامه، ملتفتة عن مواجهته، كأنّها تخشى التقاء نظرتها بنظرته، أو تَسْتحي من جرم... عليه أن يتحمل، هو المسؤول... هذا بيته وهذه زوجته، وهو ظالم متعدٍ ولكنه عائد تائب... هو المسؤول، عليه أن يتحمل هذه اللحظات المريرة، نبتُ شرْخُ السنوات الطوال... والفضْل لها على كل حال... بها ظلّ البيت عامراً، والاسم اسماً والزوج زوجاً... يا الله يا سليمة يا بنت الأصول... لها كل الحق... تحملت وبها ظل العش ملتئماً، والأسرة أسرة... يا الله يا بنت الأصل... لتفْعل به ما تشاء، عليها أن تعمل ما تشاء. مهما يبرئ نفسه أو يدافع – إن حاول ذلك – فلن يكون إلا مسؤولاً على الأقل،... ولم لا يقول إنه مذنب؟.. مذنب في حق نفسه وبيته، وفي حق سليمة بالذات... مذنب ألف مذنب ألف مرة، ألا تغفر له... وتمد يدها لبناء لحظات جديدة سعيدة على نحوها؟.. لحظات هانئة على الأقل... إنه عائد من معترك... عائد محطماً... وستستمع إليه في لحظات أخرى، يفرغ عليها كربه وعذابه... لكن ليس الآن، عليه أن يتحمل لحظات البداية... شرخ السنين عميق... عميق عميق... لكنه تائب نادم راجع... ألا تغفر له؟.. والى متى تطيل لحظات العذاب؟!.. أتتلذذ بعذابه إلى هذا الحد؟ لن يتعجب فكل ما يأتي منها مقبول معقول مهما يكن، أتتلذذ بعذابه سليمة؟ من؟ سليمة! سليمة الأصيلة الأم الرحيمة الرؤوم؟ لتفعلْ به ما تشاء، لتقل له ما تشاء، مما لم يسمعه منْها قطُّ ولا من غيرها... إنما عليها أن تنطلق، فتشاركه بناء اللحظات المنشودة لهنائهما... ربما غيره في مثل هذا الموقف، لا يزيد على أن يقدّم ما يتطلبه الموقف من هدايا وكلمات عادية أو معسولة... غيره ربما استطاع أن يحتفظ بعلاقة مستمرة مع

أكثر من زوجة أو زوجتين... أما هو فكما تعرفه... لا يعرف مثل ذلك، ولا يستطيعه بسبب من قوته أو ضعفه... وهداياه إليها شيء آخر... لكنه يدرك أن الموقف فوق كل الهدايا... إنه مكانة خاصة لأم أولاده... زوجه، حافظة عشه وسره وعمره، آه الجراح قابلة للنزيف... بل هي نازفة... ليقفْ عند حاله. ليبحث عن مدخل آخر، سليمة لابد أن تستجمع قواها وتُساهم معه فيها يريدان معاً... ليترك لها فرصة التقاط أنفاسها، ليفتح صفحة الأولاد، سيتابعهم منذ الآن، لا شيء يحول دون ذلك، كل شيء يولد من جديد...

بدت له تستجيب بشبه انتفاضة... هو ذا مفتاح الحديث، الأولاد... له أن يقدر شعورها... عليه أن يفعل ذلك... واجبه ذلك، أم الأولاد... وأية أم كانت إلا ومفتاحها الأول والأخير، شعورها من هذه النّاحية، وهو لم يعد إليها خالي الذهن من مسؤولياته... بل بخطة واضحة... يعترف لارتعاشها أمامه، وحرقته أمامها، أنه أهمل أولاده... لكنه كان مطمئناً لوجودها معهم، وكان يتابعهم لا بالنفقات فحسب، بل بالإخبار، وهو يعرف كل شيء... وكل شيء يصلح من جديد... الإهمال؟! ألم ينشأ هو بذاته في الإهمال الأكبر... المطلق؟ ألا يفعلون مثله؟.. عزيز على الأقل؟ يعرف مآل عزيز الذي يبدو مشكلة... لا مشكلة، كل شيء سيصلح... الآن عليها أن تعرف أن خطته لن ترمي إلى إصلاح عزيز وحده، إن كان هو المقصود، بل إصلاح شلته بكاملها، وسيكون سي أحمد رقيبة أسعد الناس بلمِّ شملهم شمل الشلة كلها على ما هو صلاح وفلاح... ماذا ينقصهم وماذا ينشدون؟ إنه الفراغ وحده، وقلة الشغل الذي يولد فيهم ما يولد... الفراغ حقّاً وبعض الإهمال وطيش المرحلة... منذ الآن يمكنه أن يصرف همته لعزيز وشلته، ولغيرهم أيضاً، ليس غير الفراغ الذي يصادف كياناتهم الضعيفة المندفعة إلى السهولة، الميالة إلى المتعة السريعة والانحراف... بينما كان الإهمال والتشرد في حياة أحمد رقيبة شأن آخر،

بالعكس من ذلك تماماً... لا يهم ذلك، هذا عالم آخر، زمن آخر وجيل آخر، إلا أن أحمد رقيبة قرر أن يكون نعم العون... كل شيء يهون الآن في سبيل عزيز وأصحابه، الأوامر منذ الآن صارمة حازمة إلى قديدير مع متابعة شخصية من رقيبة بنفسه، لانتشال عزيز ومن معه ومن يرتبط بهم أو يلتحق، وافتتاح متجر أكبر، متعدد المبيعات والمعروضات في أي ركن من درب السلطان أو خارجه حيثما يشاء عزيز... أو يمكنه أن يدير أشغال والده، أو يستقل بورشة أو شركة... سيكون له منذ الآن ما يريد ومعه من يريد... الشخش نفسه، زعيمهم ما أحوجه إلى شيء من ذلك... لم لا، إذا أراد؟ ويجب أن يريد، لأنه رأسهم، وعندما يخرج من سجنه ينخرط مثلهم في العمل الجاد والمريح... المنتج والمريح حقيقة. لم لا؟ كل شيء ممكن إذا توافرت الوسائل، وأحمد رقيبة منذ الآن يسخر الثروة والمال في سبيل ذلك... ومادام المال يساعد، ومادامت الرغبة النشيطة الأكيدة من جانب سي أحمد رقيبة، فلن يتعذر شيء، ولن يدخر شيء لاستعادة عزيز كما لن يترك شيء للصدفة أو الإهمال...

مرة بعد أخرى، كان رقيبة يوقف سيل أفكاره، وينظر إلى سليمة في إطراقها واهتزاز كيانها، يعذرها، لها كل العذر... ويحس أنها تستعيد هدوءها شيئاً فشيئاً، بحديثه عن مشاريعه، يحس قوي الإحساس بأنه توفق أخيراً، وعن يقين في أن يطرق الباب الصحيح بحديثه عن مشاريعه ورعاية أولاده، يحس بها تهتز منتحبة لحالها، لكنها في أعماقها متفتحة، تتفتح شيئاً فشيئاً... لها كل العذر... ورغم كل شيء... رغم الغيوم... طريق نجاة... طريق ولد السيد أكثر من فسيح ومريح، فلا خوف عليها... وسميرة ليست مشكلة كبيرة... مادام الوالد أبوها إلى جانبها، لا خوف على سميرة... ومنذ الآن كل شيء يصلح من جديد إذا أصلحا نفسيهما هما سليمة وأحمد رقيبة، هما الأساس... وهو متعهد بتحمل أكبر مجهود في هذا التحول... ويعذرها... لها كل الحق وكل العذر...

يحس بها أكثر هدوءاً... يتوقف متيحاً لها فرصة أن تستجمع ذاتها لتكلمه... لتتكلم قليلاً... تعمد أن يجول ببصره في الغرفة... تغيرتْ أشياء كثيرة... وستتغير نحو الأحسن، الأحسن... يعود إلى سليمة، ما تزال مطأطئة وأكثر هدوءاً... انتحابها الداخلي أيضاً بدا أنه يسكن، من سكون حركة كتفيها الخفيفة لا بأس... لا بأس... كل شيء يصلح ويبدأ من جديد...

تعمد أن يظل واقفاً بقربها، ينتظر كلمة منها، لابد أن تفتح فاها بشيء، ألا تسمعه؟ سألها بإلحاح وبلطف أن تقول شيئاً، يريد أن يسمع صوتها على الأقل، ألا تسامحه.. ألا تعفو وتصفح؟ ألا تقبله... بقلبها ومشاعرها....بما تملك ولا تملك... بذلك الحب والعطف الكبير الذي تعرف وحدها أن تتجلى به وتخلص له...

مرة أخرى يضع ثقله، يده على كتفها، ينتفض كيانها وتهتز... توتر كامل شامل يعتريها... متجمدة متحفزة كالمقرورة أو تخشى لسعاً... لا بأس عليها... فعلا كانت تهتز تحت ثقل ذراعه... تهتز اهتزاز محمومة أو... لم تكن باكية... لا، انتحابها في الباطن، والكيان، إنما يعكس باهتزازه خفيّ الأعماق... لا بد أن يتوقف ذلك... يشفق عليها، ويخشى أن يتدهور الموقف بمكروه يصيبها...

قرر أن يتدخل الآن...لكل شيء نهاية، ولابد من المواجهة... حاول أن يحتويها بكامل ما يملك من حنو وحنان... أحس بها تغالب... كيانها وكأنّه يزداد انضغاطاً ذاتياً بعيداً عن كيانه وضد اتجاه جذبه، متصلبة، متخشبة تهتز اهتزازاً يخفف منه ثقل ذراعه على كتفيها، لكنه يحس بقوته وشدته... وتظل بعيدة عنه... بعيدة جدّاً، وكان المسافات بينهما تتناسل... بقدر ما يصر من جانبه على ضمّها إليه، واحتواء اهتزازاتها...

أخيراً، انحرفت عن مركز ضغطه، لتلتفت نصف التفاتة جانبية غاضّة خافضة... تُقبِّل يديه، تلثمهما وتكرر ذلك بقدر ما تستطيع، وبقدر ما يسمح لها تملصه المستمر من ذلك... تبلل يديه بدموعها... ثم ترفع نظرة لا تلتقي بعينيه، ببحة رغبة ملحة ورجاء:

ـ سي أحمد... أنا معك بالله وبالشرع... أنا أختك... من اليوم احسبني أختك... أختك... يشهد علي الله وتشهد علي الملائكة...!

34

فجر الجديد، ضحى المعتاد، حركة اليوم تتجدد وتعاد، منتهى الربيع ينافس مقتبل صيف، مكنسة تكشط بقايا الليل من متناثر أسواق. يتمطى نشاط، وهمم تنعقد، لكل يوم رزقه، وإن كان كسب اليوم مألوفاً لدى الكثير... الخطوات نفسها مألوفة، ولكن من يؤكد أنها تقع دوماً على المواقع نفسها؟ وطيور الزوش، ترف في ثقلها متصاعدة منحدرة، متقاطعة الاتجاه متنقلة بين الأسلاك وحافات المنازل... تبدو بعض أعشاش هنا وهناك، بقعاً سوداء ملفوفة بإحكام... تتحرك ببطء عربة صغيرة قصيرة، مدفوعة بيد، تتعانق على صندوقها المكشوف، محصورة بين حافاتها المرتفعة أربعة براميل متوسطة الحجم، مملوءة بماء... ماء السواني، آه من ماء السواني والسواقي، وآه من الماء الحلو... كأن الدنيا تعود إلى الأصوات المتقاطعة المتجاوبة في أرجاء درب السلطان تنادي... آلما لحلو... أو تختصر العبارة اختصاراً ممطوطاً ممدود الأول أو الآخر: اَلْحَلُوْوْ... آلْحَلْ... اَلْحَلُوْوو... ممطوطاً ممدوداً مكوناً لِغُنَّةٍ ولحن كان لهما الطعم، وكان لهما المذاق والمزاج... كأن العهد يعود إلى حيث لم

يكن معظم درب السلطان، وجُلُّ مساكنه تحتوي على أكثر من بئر مالح في الغالب... وآه من ماء السواني والسواقي، وآه، آه من باعة الماء الحلو في عهد زمان، من يتذكر ويذكر؟ زمان، كانت سواني بنمسيك وعيون أولاد حدو وينابيع كثيرة... مقصد المعتبرين من باعة الماء الحلو، ذوي الزبائن الأرقى ونخبة الدرب... بينما الأكثر يكتفي بماء العين الأنبوبية العامة في القريعة، أو في بعض الساحات، يملأ منها ويوزع على من يشاء... وحمالو الماء، باعته وموزعوه في الوقت نفسه، كانوا عصب الحياة في الدرب بأسره، يجوبونه متصايحين، تتقاطع نداءاتهم تمطط وتمدد في النداء... لكل نغمته وأداؤه، كل يتغنى بحلاوة مائة، تمييزاً له عن مياه غيره، وتمييزاً له أكثر عن ماء البئر الذي لا تكاد تخلو منه دار، ولكنه يستعمل للغسيل وما شابهه.

لكل شيء نكهته، وفي عصر الأنابيب، حيث تنعم كل دار بالماء، وحيث انقطع جيل باعة الماء الحلو، بأحزمتهم المشدودة، وسراويلهم الضيقة المرفوعة حد الركبة، تبين عن سيقانهم السمراء المفتولة، وهم يجوبون الأحياء، ويصعدون الطوابق بأحمالهم على الأكتاف لتفريغها في الخوابي المرتكنة في زوايا الغرف والصحون... وبين فرنكات الأجر الزهيد الخصيب، ولهاث الجهد، وتبلور حبات العرق على البشرات النحاسية، تنبثق حكايات عشق وغرام... فَوحْدَهم، باعة الماء الحلو، كان يقدر لهم، رغم التحجب والحجاب، والحرز والاحتراز، أن يغشوا كل البيوت، ويرقوا كل السلالم، ويطرقوا بقوة مداخل الأسرار والقلوب...!

زمان ولى، وحل زمان الأنابيب السعيد، عاماً شاملاً... انخرست أصوات، وضاعت نغمات والحان، وانقطعت حرف وأرزاق ليخلق غيرها، أو لتصب لهفتها نحو البحر، أو باتجاه الأحياء الصناعية للمدينة المتفسحة المتسعة باستمرار.

من يصدق أن عربات الماء الحلو، مهما تكن معدودة محدودة، ما تزال تظهر حيناً بعد حين؟ من يصدق في عصر الأنابيب الشاملة أن عشاق ماء السواني ما يزالون يشتهون الشاي بالنعناع المنعوت الزياني أو البروج العطشان، وحتى المكناسي، وخاصة نعناع البور بالماء الذي لا يحلو أو يزدهي المذاق إلا به؟..: تماماً كمن لا يرضى لنفسه إلا جزارة درب غلف الطبيعية، أو قضباناً مشوية على الفحم من لحم أبكار طيت مليل الطرية الفتية، أو حبات أتاي الصحارية العتيد...

هو ذا طيب درب السلطان وملحه عبير ماض، نفحة حاضر ومخاض، لا تعدم فيه شيئاً، لا ينعدم منه شيء...

تتجاوب أصداء طرب وغناء، تصفيق أكف، وترديد طعاريج، تطغى عليها بين الحين والآخر دفقات الغيطة وتعلو زغاريد... تنفتح النوافذ على مصاريعها، وتنحاز عربة الماء الحلو إلى أقصى الجدار؛ تتعاظم الأصوات متداخلة تقترب لتطل زفة الهدية إلى دار العروس: عربة كارو يجرها جواد منعّم برداء، وقد حليت حوافي عدته، وأطراف غرّته، بربُط الحبق المنور والنعناع، يحيط بموكبه نساء وصبايا وولدان وبعض رجال، بعضهم ارتقى العربة بجانب ما تحمل من أثاث المنزل، وأكياس المؤونة، تطل من بينها رافعة رؤوسها أكياس السكر مكتنزة بما تحتوي... وتتبع العربة عجلة ضروبة متحيرة في أمرها مما بها وما حولها، فلا تملك إلا أن تنصاع لإرادة الحبل المربوط بقرنيها، والمشدود إلى العربة أمامها أو إلى حازم من ساعد بني البشر... تترنح برأسها حيناً بعد حين، متبرمة تراود الحبل عن اتجاهه، ولكنها لا تلبث أن تعاود انصياعها المتمنع، متحيرة مجبرة سائرة...

ويحيط بالموكب كله هرج هدية العرس ومرجها، والجوقة تدور حول شخص بلباس شيخة كامل، شخص رجل يرقص بحذق ما يدق أو ينقر على

مقص بيده في الآن نفسه...

تساهم النسوة ممن في الجوقة بالترديد والمشاركة بالغناء وهز الأعطاف المحتشم، بينما تنخرط فتيات في الرقص مع محور الرجل أو مُشَكّلات محوراً موازياً لنشاط مماثل يضاعف من نشاط الجمع...

يسري في الكون دبيب النشاط والرغبة العارمة في الفرجة، تتغذى قوة الجمع بمن يضاف ومن يشاهد عن قرب أو عن بعد، الفرجة للجميع، ومادام الشخص الراقص الناقر يدور حول نفسه في حماسة، فالكل معه يصفق ويعتز ويدور، ومادامت عين صاحب المناسبة أو من هو مقامه لم يغمز بالحركة، فالكون يظل راقصاً مجمداً عند نقطته، يتغذى ويتضخم بمن ينضم له ويضاف إليه...

أخيراً بإشارة خفية، يشتد تسريع الإيقاع إيذاناً بختام وجبة، ينقطع بانقطاعها كل صوت، وتنبعث من أعطافها زغرودة، إيذاناً بتحرك بطيء، تنطلق معه الألحان والمغاني، في انتظار نقطة أخرى يتوقف عندها الركب والجمع في وصلة جديدة...

تغمر الزفة كامل الزنقة والأزقة المجاورة، وتمضي تجر وراءها من تجر من مشارك ومتفرج، تمضي الزفة بضجتها تتابعها العيون والخواطر والرؤوس المتطلعة من أعالي السطوح وعبر النوافذ المنفتحة والشقوق، وتمضي حتى تختفي عن كل تطلع، ويبقى صداها يتردد وهو يتلاشى متناقضاً متباعداً... ولا يعدم الحس في الآن نفسه أن تغمر منه السمع والبصر، مشاهد تشد الخاطر، تثير الحيرة في أبهتها وضجتها الهادئة؛ أصداء أبواق سيارات تتعالى من بعيد، يدنو صداها شيئاً فشيئاً حتى يظهر مقدمها عند مطلع الزنقة، مقدم فضي مشبك لامع لسيارة تتهادى، ما تلبث أن تملأ فضاء الزنقة كله إلا بضع أشبار على الطرفين تجعل عربة الماء لحلو المدفوعة، وقد رُفعت متقلبة بتؤدة من صاحبها،

لجعلها بثقلها مائلة على جدار الزنقة لتأخذ أقل حيز ممكن بعجلتين تدوران مرفوعتين في الفضاء، بينما يبحث هو لنفسه عن ملتصق بجانبها... تظهر السيارة بالكامل فارهة بيضاء بالكامل، تلمع عجلاتها وزجاجها وإطارها... كل ما فيها يلمع، ويبهر... تمر مديدة ممددة تتهادى من نوع الأحلام وما فوق الأحلام... لنكولن مديدة ممددة تتهادى بنفسها وما فيها: عروس تسبح في بياض وورد وجمال وتاج، بجانبها عصفور عريس كمرمر منحوت... ندف قطن، وأشرطة حرير خفيفة هفيفة، تلم فارهة السيارات... والموكب كله تحف به سيارات متنافسة الأناقة، رشيقة بمن تحمل من بدور وأقمار... أبواقها تصوت في إيقاع مرح بهيج... الكون يتهادى حول الموكب كله وهو يتباعد ساحباً وراءه الأنفاس والأنظار...

هكذا يبدو، هكذا كان، هكذا يمضي درب السلطان، مبتدأ ومنتهى، مزيج أذواق متفردة وحال اشتمال، مذهب ومأتى، توق نفوس باتجاه المبتغى والشوق، لا تمنعها قوة التيار، ومجرى السعي، من أن تجد لنفسها طريقتها في الوجود، تتمصص النشوة والمتعة، تخلق الحياة.

هو ذا طيب درب وملحه من عبير ماض، نفحة حاضر ومخاض، لا تعدم فيه شيئاً، لا ينعدم فيه شيء...

جديد فجر، ضحى المعتاد، حركة تسري وتعاد... مقتبل صيف ينافس الربيع...

فهرس المحتويات

صدر عن



الأعمال الكاملة
مبارك ربيع

الروايات

الجزء الأول
I

الجزء الأول
II

الجزء الثاني
I

الجزء الثاني
II



تصميم الغلاف : إدريس برادة

الثمن :
45 درهما

